دولة فلسطين
دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأسوة
محمد صلى الله عليه وسلم

الجزء العاشر

إعداد: الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس
1438هـ - 2017 م

هدية

من إصدارات
دار الإفتاء الفلسطينية

القدس
1438هـ - 2017 م

إعداد

الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

مراجعة شاملة

الشيخ إبراهيم خليل عوض الله

الوكيل المساعد لدار الإفتاء الفلسطينية

مفتي محافظة رام الله والبيرة

منسق أعمال الفريق

أ. مصطفى أعرج

المونتاج وتصميم الغلاف

يوسف تيسير

تدقيق لغوي

هالة عقل / إيمان تايه

تدقيق شرعي

نجود بدران / حذيفة غنيمات

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد؛

فالهدي النبوي ثاني تشريع بعد كتاب الله عز وجل، ينهل منه المسلم علوم دينه ودنياه، ويسير على درب المصطفى، صلى الله عليه وسلم، ليتمثل سيرته العطرة في حياته كلها فرسول الله، صلى الله عليه وسلم، صاحب أعظم شخصية في التاريخ كان زوجًا وأبًا وقائدًا ومحاربًا، وحاكمًا، وسياسيًا ومربيًا وداعية وزاهدًا وقاضيًا. وكون دار الإفتاء الفلسطينية تحمل على عاتقها مسؤولية نشر الوعي الديني بين أبناء المجتمع إنها تهدي لقرائها الأعزاء الجزء العاشر من كتاب (الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم)، الذي يعرض بعضاً من هدي المصطفى، عليه الصلاة والسلام، وسيرته الطاهرة، بطريقة ميسرة، تمتاز ببساطة العرض، ووضوح الفكرة، ودقة المعلومة.

وأسوة بالحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، القائل: (لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ) (سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، وصححه الألباني)، يسرني أن أتقدم بالشكر والتقدير من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل المتميز، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بعملهم المسلمين، كما أسأله عز وجل أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منهلاً للعلم والخير والهداية، إنه الموفق إلى سبيل الرشاد.

فإن أصبنا في هذا الكتاب وغيره من الأعمال، فبنعمة من الله وفضل، وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا، سائلين الله العفو والعافية، وقبول الأعمال الصالحة، بفضل جوده وكرمه.

الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس: 1438هـ / 2017م

الفصل الأول
العقيدة

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم		
.1	يخبر عن هدم الذنوب بالإسلام والحج والهجرة وأمور أخرى	6
.2	أنبأ بالأخسرين أعمالاً – الحلقة الأولى	11
.3	أنبأ بالأخسرين أعمالاً – الحلقة الثانية	16
.4	أنبأ بالأخسرين أعمالاً – الحلقة الثالثة والأخيرة	21
.5	العزة لله وله وللمؤمنين	26
.6	أَنزَلَ الله عَلَيه القرآن وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَاً	31
.7	يذكر بالفراق الحتمي للحياة الدنيا	36
.8	يتَعَوَّذ من جَهْدِ الْبَلَاءِ وَدَرَكِ الشَّقَاءِ	41
.9	يخبر عن رب العزة سبحانه إعلانه الحرب على من يعادي أولياءه	46
.10	يرد البدع المحدثة في الدين – الحلقة الأولى	51
.11	يرد البدع المحدثة في الدين – الحلقة الثانية والأخيرة	56
.12	ينبذ التطرف والمغالاة	61

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يخبر عن هدم الذنوب بالإسلام والحج والهجرة وأمور أخرى

عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه قال: (...فلما جَعَلَ اللهُ الإِسْلامَ في قَلْبِي، أَتَيْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقلت: ابْسُطْ يَمِينَكَ، فَلأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قال: فَقَبَضْتُ يَدِي، قال: ما لك يا عَمْرُو؟ قال: قلت: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قال: تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟ قلت: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قال: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما كان قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ...). [1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، طمأن عمرو بن العاص والمسلمين معه ومن بعده، بأن ذنوبهم السالفة تمحى بأمور عظيمة عدة، على رأسها دخولهم في الإسلام، ومنها الهجرة، والحج المبرور، وفي أحاديث أخرى وردت البشرى بغفران الذنوب السابقة بصيام رمضان وقيامه، وقيام ليلة القدر، والشهادة في سبيل الله، وأمور أخرى.

الإسلام يهدم ما قبله

كما أنه ليس بعد الكفر ذنب، فكذلك ليس بعد دخول الإسلام حساب على ذنب سابق، وهذا ما أكده الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله لعمرو بن العاص: (أَمَا عَلِمْتَ أَنَ الإِسْلامَ، يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ)

ومن الآيات الكريمة التي تؤكد هذا المعنى، قوله تعالى: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ}[2]

والتوبة الصادقة تهدم ما كان قبلها من الخطايا والذنوب، قال تعالى: {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ

---

1. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج.
2. الأنفال: 38.

وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً}.[1]

ويقول جلَّ ذكره: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[2]

وورد في بعض كتب التفسير ذكر الاختلاف في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة لما أراد أن يسلم، وخاف أن لا يغفر له ما وقع فيه من قتل حمزة، وقيل: نزلت في قوم آمنوا، ولم يهاجروا، ففتنوا فافتتنوا، ثم ندموا، وظنوا أنهم لا توبة لهم، وقيل: نزلت في قوم من أهل الجاهلية، قالوا: ما ينفعنا الإسلام؛ لأننا قد زنينا، وقتلنا النفوس، فنزلت الآية فيهم، ومعناها مع ذلك على العموم في الناس جميعهم إلى يوم القيامة. [3]

الهجرة تهدم ما قبلها

وعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه أعلاه المهاجرين بمحو ذنوبهم السالفة، فقال: (وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما كان قَبْلَهَا) ويتماشى هذا الوعد مع الوعد الرباني للمهاجرين في أكثر من آية قرآنية بالغفران، والتوبة عليهم، ومحو خطاياهم وذنوبهم، ومما ورد من آيات قرآنية بهذا الخصوص قوله تعالى: {لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}. [4]

الحج يهدم ما قبله

بالإضافة إلى الإسلام والهجرة فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه أعلاه يبشر من يحج حجاً مبروراً بمحو ذنوبه السالفة، فقال: (وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ) وعن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: من حَجَّ لِلهِ، فلم يَرْفُثْ،

1. الفرقان: 70.
2. الزمر: 53.
3. التسهيل لعلوم التنزيل، 3/ 197.
4. التوبة: 117.

ولم يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)[1]

ومعنى كيوم ولدته أمه؛ أي بغير ذنب.[2]

صيام رمضان وقيامه يهدمان ما قبلهما

من الأمور العظيمة التي يهدم الله بها ذنوب المخطئين ومعاصي المذنبين، صيام رمضان وقيامه، إن أداهما العابد إيماناً واحتساباً لله تعالى، فيقول، صلى الله عليه وسلم: (من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ)[3]

وعن أبي هُرَيْرَةَ قال: (كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يُرَغِّبُ في قِيَامِ رَمَضَانَ من غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ فيه بِعَزِيمَةٍ، فيقول: من قام رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ...)[4]، وقيام ليلة القدر تهدم ما قبلها؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (من يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ) [5]

الشهادة في سبيل الله تهدم ما قبلها إلا ديون العباد

من مكافأة الشهيد أن الله يغفر ذنوبه السالفة، سوى دَين العباد، لما روي عن الرسول، صلى الله عليه وسلم: (أَنَّهُ قام فِيهِمْ، فذكر لهم أَنَّ الْجِهَادَ في سَبِيلِ الله، وَالْإِيمَانَ بِالله، أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فقال: يا رَسُولَ الله؛ أَرَأَيْتَ إن قُتِلْتُ في سَبِيلِ الله، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: نعم، إن قُتِلْتَ في سَبِيلِ الله، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، ثُمَّ قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: كَيْفَ قُلْتَ؟ قال: أَرَأَيْتَ إن قُتِلْتُ في سَبِيلِ الله، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: نعم، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 9/ 119.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان.
4. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح.
5. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قيام ليلة القدر من الإيمان.

مُدْبِرٍ، إلا الدَّيْنَ، فإن جِبْرِيلَ، عليه السَّلام، قال لي ذلك).[1]

أي إن بقاء ديون العباد معلقة في ذمة الشهيد المدين، أمر موحى به من الله تعالى، مما يدل على ضرورة أداء الديون إلى أصحابها، وتجنب التسويف والمماطلة في أدائها، فمطل الغني ظلم.

هدم الذنوب السالفة بأمور أخرى

عدا الإسلام والهجرة والحج والصيام والقيام، هناك أمور أخرى إن فعلها المؤمن ابتغاء وجه الله، غفر له ما تقدم من ذنبه، منها:

• الصلاة بعد إحسان الوضوء، فقد روي في الصحيح: (أن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، دَعَا بِوَضُوءٍ، فَأَفْرَغَ على يَدَيْهِ من إِنَائِهِ، فَغَسَلَهُمَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ في الْوَضُوءِ، ثُمَّ تَمَضْمَضَ، وَاسْتَنْشَقَ، وَاسْتَنْثَرَ ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، وَيَدَيْهِ إلى الْمِرْفَقَيْنِ ثَلَاثًا، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ كُلَّ رِجْلٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ قال: رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يَتَوَضَّأُ نحو وُضُوئِي هذا، وقال: من تَوَضَّأَ نحو وُضُوئِي هذا، ثُمَّ صلى رَكْعَتَيْنِ، لَا يحدث فِيهِمَا نَفْسَهُ، غَفَرَ الله له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[2]

• موافقة تأمين الإمام في الصلاة تأمين الملائكة، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا أَمَّنَ الإِمَامُ، فَأَمِّنُوا، فإنه من وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وقال ابن شِهَابٍ: وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: آمِينَ).[3]

• موافقة قول المأموم قول الملائكة: اللهم ربنا لك الحمد بعد قول الإمام في الصلاة سمع الله لمن حمده، فعنه، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا قال الْإِمَامُ سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللهم رَبَّنَا

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدَّين.
2. صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب المضمضة في الوضوء.
3. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب جهر الإمام بالتأمين.

لك الْحَمْدُ، فإنه من وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[1]

ومن الأمور التي وردت في أنها مكفرة لسالف الذنوب، الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، وبعض العلماء حصر التكفير بصغائر الذنوب، وظاهر الحديث يفيد غفران الذنوب جميعها، فرحمة الله واسعة، وهو الغفور الرحيم.

وهو القائل سبحانه: {إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}.[2]

فنفحات الرحمة والمغفرة يتفضل الله بهما على خلقه، وما عليهم إلا أن يتعرضوا لهما بصدق وإيمان واحتساب، فيجدوا الله غفوراً رحيماً، والذنوب كبيرها وصغيرها قابلة للمحو إلا الشرك وحقوق العباد، فما على المرء إن أراد الأمل بمستقبل زاهر في الآخرة، إلا أن يطرق أبواب هدم الذنوب، وصلى الله على رسوله محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب فضل اللهم ربنا لك الحمد.
2. النساء: 48.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

أنبأ بالأخسرين أعمالاً ـ الحلقة الأولى

يطلب الله تعالى من نبيه، صلى الله عليه وسلم، أن يبين للناس الأخسرين أعمالاً منهم، فيقول جل شأنه: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً* الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً* أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً* ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً}.[1]

أي قل لهم يا نبي الله: هل أخبركم بالأخسرين أعمالاً وأضيعها؟ ومن المؤكد أن لهذا الإنباء هدفاً يخدم الدعوة إلى الهدى لتحقيق خير الجزاء، وتجنب شره، مع التنبيه إلى أن الله تعالى خصص إحدى قصار السور للإخبار عن خسارة الناس سوى صنف منهم، فقال تعالى: {وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[2]، فالكل إلى خسارة يوم القيامة باستثناء المؤمنين عاملي الصالحات، والمتواصين بالصبر.

الأخسرون

الأخسر صيغة تفضيل من الخسران، والخسارة نقيض الربح، وأصلها نقص الأثمان التي يجنيها التاجر عن كلفة مبيعاته.

ومفهوم الخسران يعرف الناس معناه بوضوح، حتى إن الكافرين استخدموا مادته اللفظية في وصف المؤمنين، كما قَالَ المَلأُ مِن قَوْمِ هود، عليه السلام، الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء

1. الكهف: 103 – 106.
2. العصر: 1 – 3.

الْآخِرَةِ وَأُترفوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وقالوا لقومهم: {وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ}.[1]

ومرادهم بالخاسرين هنا، أي خسروا عقولهم، وأنهم مغبونون في آرائهم، حيث جعلوا اتّباع الرسول الحق الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسراناً دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها.[2]

وصدر مثل هذا الوصف من كافري قوم شعيب تجاه المؤمنين به، فقال الله تعالى عن ذلك:{وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ}.[3]

واختلف في المراد بالخاسرين هنا، فقال بعضهم: خاسرون في الدين، وقال آخرون: خاسرون في الدنيا؛ لأنه يمنعكم من أخذ الزيادة من أموال الناس.[4]

وقد رد الله تعالى على هذا الوصف الظالم الصادر عنهم بوصفهم بمثله، عدلاً منه عز وجل، حيث توعدهم بالخسران الحقيقي مقابل توعدهم المؤمنين بشعيب بالخسران الزائف، فقال تعالى: {الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ}.[5]

والأخسرون عند الله هم الذين فاتهم نيل الثواب الذي يجزي به الله تعالى على الإيمان والعمل الصالح، مع ما يقترن بهذا الفوت من عقاب توعد الله به الكافرين الجاحدين وأهل المعاصي، الذين يموتون دون أن يتوبوا عنها، فيكونون من الصنف الخبيث الخاسر يوم القيامة، مصداقاً لقوله تعالى: {لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.[6]

---

1. المؤمنون: 34.
2. تفسير أبي السعود، 6/ 133.
3. الأعراف: 90.
4. التفسير الكبير، 14 /148.
5. الأعراف: 92.
6. الأنفال: 37.

يقول ابن كثير: (فهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم، وظل من يحموم، وعن الحور العين، بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته، بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون).[1]

ومن أصناف الناس الذين وصمهم القرآن الكريم بالخاسرين:

الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ: قد يخسر المرء صفقة، أو فرصة، أو جولة، أو موقفاً، أو مبلغاً مالياً، فيعتبر بذلك خاسراً، لكن من أصعب الخسران أن يخسر الإنسان نفسه وأهله، على شاكلة الذين قال الله تعالى فيهم: {فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}.[2]

فالذين تنحرف توجهاتهم العقائدية، فيعبدون غير الله تعالى، يجلبون لأنفسهم خسارة فادحة، إضافة إلى إلحاق الخسارة بأهلهم، كون الأهل يتأثرون عادة بعضهم ببعض، من هنا أمر الله عز وجل المؤمنين بالعمل على وقاية أنفسهم وأهليهم من النار، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[3]، فإذا كان تأثير المرء سلبياً تجاه أهله، فإنه يكون متسبباً في جلب الخسارة لهم زيادة على ما باء بهم من خسران واضح؛ لانحرافه عن جادة الحق حين عبد غير الله تعالى، وهذه النتيجة يعرفها المؤمنون الذين عبدوا الله، وآمنوا به، وبرسله، وبكتبه، وباليوم الآخر، فإذا ما نظروا يوم القيامة إلى مآل حال الذين عرفوهم كافرين في الدنيا، فإنهم سيخلصون إلى أن الكفر والظلم في الدنيا أدّيا بهؤلاء إلى خسارة الآخرة، وعن

1. تفسير ابن كثير، 2/ 442.
2. الزمر: 15.
3. التحريم: 6.

وصف هذا الموقف يقول الله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ}.[1]

فالعبرة إذن ليست ببهارج الدنيا وزينتها والصولة فيها، إذ قد يبوء أصحاب ذلك بالخسارة يوم القيامة رغم أنهم كانوا يظنون بأنفسهم الفلاح والنجاح، وبعضهم مضت عليه أيام كان حاله يقول فيها يا أرض اشتدي ما عليك أحد مثلي.

ولخسارة النفس يوم القيامة أسباب، من أبرزها: إنكار الإيمان بآيات الله الكونية الباهرة، وعن هذا يقول تعالى: {قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}[2]، كما أن إنكار بعض أهل الكتاب ما لديهم من علم بصدق نبوة محمد، عليه الصلاة والسلام، بعد أن جاء بما أخبرت به كتبهم السماوية، هو من أسباب خسارة النفس يوم القيامة، مصداقاً لقوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}[3]، والإمام البخاري عنون لباب في صحيحه بهذه الآية الكريمة، وأورد تحته حديثاً عن عبد الله ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما: (أَنَّ الْيَهُودَ جاؤوا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فَذَكَرُوا له أَنَّ رَجُلًا منهم وَامْرَأَةً زَنَيَا، فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما تَجِدُونَ في التَّوْرَاةِ في شَأْنِ الرَّجْمِ؟ فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ، وَيُجْلَدُونَ، فقال عبد الله بن سَلامٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فيها الرَّجْمَ، فَأْتَوْا بِالتَّوْرَاةِ، فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ على آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ ما قَبْلَهَا وما بَعْدَهَا، فقال له عبد الله بن سَلامٍ: ارْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ، فإذا فيها آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا: صَدَقَ يا محمد، فيها آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رسول

1. الشورى: 45.
2. الأنعام: 12.
3. الأنعام: 20.

الله، صلى الله عليه وسلم، فَرُجِمَا، قال عبد الله: فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَجْنَأُ على الْمَرْأَةِ، يَقِيهَا الْحِجَارَةَ).[1]

فمن الخسران المبين إنكار حقائق الدين وأركانه، فذلك الضلال بعينه، الذي لن يجد صاحبه مسعفاً يوم القيامة، حين ينتابه الندم على ما فات من ضلال، ويخبر القرآن الكريم عن هذا المآل، فيقول تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ}[2]، فالذين ظنوا أن أحداً غير الله ينجيهم يوم القيامة هم الخاسرون، ويتخلى عنهم أولياؤهم من دون الله تعالى يوم القيامة.

آملين أن ييسر الله تعالى متابعة الحديث عن خسارة النفس يوم القيامة، والوقوف عند موضوعات أخرى ذات صلة بقضية الأخسرين أعمالاً، الذين أخبر عنهم النبي، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى { يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون } (البقرة: 146).
2. الأعراف: 53.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
أنبأ بالأخسرين أعمالاً ـ الحلقة الثانية

متابعة لما تعرضت إليه الحلقة السابقة من بيان للمراد بالأخسرين أعمالاً، حيث تم توضيح مفهوم الخسران، وشرع بالوقوف عند أصناف الناس الذين وصمهم القرآن الكريم بالخاسرين، وبدأ بالذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ولذلك أسباب، من أبرزها: إنكار الإيمان بآيات الله الكونية الباهرة، وإنكار بعض أهل الكتاب ما لديهم من علم بصدق نبوة محمد، عليه الصلاة والسلام، وإنكار بعض حقائق الدين وأركانه، فذلك الضلال بعينه، الذي لن يجد صاحبه مسعفاً يوم القيامة، حين ينتابه الندم على ما فات من ضلال، وهو القائل جل شأنه: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ}[1]، وفي التفسير أن شراء عبادة الآلهة بعبادة الله تجارة خاسرة ليس خسراناً أعظم منه، إذ به تكون خسارة الأنفس، إضافة إلى أنه بطلان ضياع ما اشتراه أصحاب هذه التجارة، من افتراء الآلهة والاعتقاد بشفاعتها، فلا أحداً أبين خسراناً منهم.[2]

خسارة أهل الكفر والمعاصي

لخص صاحب أضواء البيان تحقيق المناط في حقيقة خسران الإنسان، بقوله: اتفقوا على أن رأس مال الإنسان في حياته هو عمره، كلف بإعماله في فترة وجوده في الدنيا، فهي له كالسوق، فإن أعمله في خير ربح، وإن أعمله في شر خسر.[3]

وأهل الكفر والمعاصي يتصدرون سلم الأخسرين من الخلق، فليس بعد الكفر ذنب، والعجيب أن بعض الذين يجحدون الدين أو بعض أركانه يغضبون إذا وُصفوا بالكفر،

---

1. هود: 21.
2. الكشاف: 2 /366.
3. أضواء البيان: 9 /90.

وهم أهله وخاصته، إلا أنه يبدو أنهم يريدون تفصيل وصفهم حسب مزاجهم، وبالتالي يبلغ بهم سوء تقدير الأمور إلى أن يظنوا بأنفسهم خيراً، فيتباهون بالمعاصي والجحود من منطلق تصورهم أن عقولهم نيرة، ومواقفهم شجاعة، ومسارهم سليم، فهؤلاء ليسوا فقط خاسرين فاشلين، وإنما هم الأكثر خسارة، إذ إنهم يفوقون من يخسر، ويعرف حقيقة خسرانه، في مستوى الخسارة، فهم يضيفون إلى خسارتهم فشلاً ذريعاً آخر من خلال اعتقادهم أنهم على صواب، وإن ما يفعلونه هو النجاح بعينه، رغم إنكارهم اليوم الآخر، وعنهم يقول تعالى: {قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ}. [1]

وقد أجاب القرآن الكريم عن السؤال الخاص بصنف الأخسرين أعمالاً، ببيان أنهم الذين ضلَّ سعيهم وعملهم في الحياة الدنيا؛ لأنهم كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، فجحدوا الآيات، ولم يؤمنوا باليوم الآخر، الذي يبعث الله فيه من في القبور، ويحشرهم ويحاسبهم، ويدخل مؤمنهم الجنة، وكافرهم الجحيم.

وعن خسارة الذين ينكرون الآخرة، يقول الله تعالى فيهم: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [2]، وفيهم يقول جلَّ شأنه أيضاً: {إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ*أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ}. [3]

وفي التفسير أن الأخسرين يوم القيامة هم الذين تبطل أعمالهم فيه، فلا يجدون لها وزناً أو قيمة، بل يكون جزاؤهم جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله، عليهم السلام، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}. [4]

---

1. النازعات: 12.
2. الأنعام: 31.
3. النمل:4 – 5.
4. المائدة: 10.

وقد حذر الله تعالى من الوصول إلى الخسران الذي يتسبب به الكفر بآيات الله، فقال جل شأنه: {وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[1]، فالخسارة المجلجلة التي ليس بعدها خسارة، هي التي يبوء بها الكافرون يوم القيامة، وقد أشار القرآن الكريم إلى خسران الكافرين في عدد من آياته الكريمة، فيقول تعالى: {وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ}[2]، والمبطلون هم الذين ماتوا مصرين على الباطل.[3]

ومن الآيات القرآنية التي وصفت خسارة المبطلين، قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ}.[4]

يقول الرازي: إن هذا وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات، وَالمقصود بـ {أَمْرُ اللهِ}: القيامة، و{الْمُبْطِلُونَ}: هم المعاندون الذين يجادلون في آيات الله، ويقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت.[5]

وبعد بضع آيات كريمات من سورة غافر سالفة الذكر، ذكرت الخسارة منسوبة إلى الكافرين، فقال تعالى: {فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}.[6]

فالكافرون ينخدعون بما كسبوا، فيركنون إلى الخيرات التي تتيسر لهم، متعامين عن إبصار الحقيقة في أن الإمداد بالخيرات يكون في أحيان كثيرة امتحاناً وابتلاء، وقد تكون عواقبه وخيمة، حين يقود صاحبه إلى التغلغل في الغي، وبهذا الصدد يقول تعالى: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

1. يونس: 95.
2. الجاثية: 27.
3. أضواء البيان، 6/ 395.
4. غافر: 78.
5. التفسير الكبير، 27 /77.
6. غافر: 85.

كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ}.[1]

خَسارَةُ الَّذِينَ يَعْبُدُون اللهَ عَلى حَرْفٍ

من أصناف الموصومين بالخسران الذين يَعْبُدُون الله عَلَى حَرْفٍ، ممن قال الله تعالى فيهم:{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}.[2]

يقول الرازي: في تفسير الحرف وجهان؛ الأول ما قاله الحسن، وهو أن المرء في باب الدين معتمده القلب واللسان، فهما حرفا الدين، فإذا وافق أحدهما الآخر، فقد تكامل في الدين، وإذا أظهر بلسانه الدين لبعض الأغراض، وفي قلبه النفاق، جاز أن يقال فيه على وجه الذم، يعبد الله على حرف، والثاني أي على طرف من الدين، لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون طمأنينة، كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحس بغنيمة قر واطمأن، وإلا فر وطار على وجهه، وهذا هو المراد {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ}، لأن الثبات في الدين إنما يكون لو كان الغرض منه إصابة الحق، وطاعة الله، والخوف من عقابه، فأما إذا كان غرضه الخير المعجل، فإنه يظهر الدين عند السراء، ويرجع عنه عند الضراء، فلا يكون إلا منافقاً مذموماً.[3]

وعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: ({وَمِنْ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ}، قال: كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ الْمَدِينَةَ، فَإِنْ وَلَدَتْ امْرَأَتُهُ غُلامًا، وَنُتِجَتْ خَيْلُهُ، قَالَ: هذا دِينٌ صَالِحٌ، وَإِنْ لَمْ تَلِدْ امْرَأَتُهُ، ولَمْ تُنْتَجْ خَيْلُهُ، قال: هذا دِينُ سُوءٍ).[4]

---

1. آل عمران: 178.
2. الحج: 11.
3. التفسير الكبير: 23/ 12.
4. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الحج، باب {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ}(الحج:11).

فهذا حال الخاسرين أصحاب القلوب المريضة والنفوس المترددة، من الذين قال الله تعالى فيهم: {فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}.[1]

بخلاف المؤمنين أصحاب النفوس المطمئنة، الذين لا يرون النهاية بخسارة أو فشل هنا، ولا بربح أو نجاح هناك، وإنما يعتقدون أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فهم الشاكرون الصابرون الذين يقول رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فيهم: (عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إن أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا له، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا له).[2]

آملين أن ييسر الله تعالى متابعة الحديث عن الأخسرين أعمالاً من الذين أخبر عنهم النبي، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الفجر: 15 – 16.
2. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

أنبأ بالأخسرين أعمالاً ـ الحلقة الثالثة والأخيرة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: أَتَدْرُونَ ما الْمُفْلِسُ؟ قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا من لا دِرْهَمَ له ولا مَتَاعَ، فقال: إِنَّ الْمُفْلِسَ من أُمَّتِي يَأْتِي يوم الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قد شَتَمَ هذا، وَقَذَفَ هذا، وَأَكَلَ مَالَ هذا، وَسَفَكَ دَمَ هذا، وَضَرَبَ هذا، فَيُعْطَى هذا من حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا من حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أَنْ يُقْضَى ما عليه، أُخِذَ من خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ).(*)

تواصلاً مع تدبر حال الأخسرين أعمالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، حيث وقفت الحلقة السابقة عند جوانب من خسارة أهل الكفر والمعاصي، وخَسارَة الَّذِينَ يَعْبُدُون الله عَلَى حَرْفٍ، وذلك في ضوء ما تيسر الاستشهاد به من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، وفي الحديث الشريف أعلاه، يذكر الرسول، صلى الله عليه وسلم، صنفاً من الخاسرين يوم القيامة، أولئك الذين يقومون بأداء الواجبات الدينية الرئيسة من صلاة وصيام وزكاة، وعند الحساب يوم القيامة يجدون جعبهم خاوية من أجور أعمالهم، بسبب المديونية الكبيرة التي يحملونها في حياتهم الدنيا تجاه الناس، والتي غلب حجمها أرصدتهم التي ادخروها ليوم الحساب، فكانت النتيجة إفلاسهم من الحسنات، وتحملهم سيئات الدائنين، وتلك لعمري خسارة فادحة؛ لأن حسم المصير الدائم في النعيم أو الجحيم ينبني على موازين الحسنات والسيئات يوم القيامة، مصداقاً لقوله تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ}.[1]

خَسارةُ الَّذِين يقتُلون أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ

من الخاسرين يوم القيامة أولئك الذين ينقلب دورهم تجاه أبنائهم من حال الرعاية والحنان والعطف والإيواء، إلى حال الجفاء والجريمة، كما يحصل من الآباء والأمهات الذين يجهضون الأجنة دون مسوغ شرعي، أو الذين يقتلون أولادهم بعد ولادتهم ظلماً وعدواناً، وفي أمثال هؤلاء يقول الله تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}.[2]

فهذه الآية الكريمة تنبه إلى حال الخسارة الذي يبوء به الذين يئدون بناتهم، أو يقتلون أبناءهم، بسبب الخوف من الفقر، أو مقاسمتهم الموارد، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ، فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} إِلَى قَوْلِهِ {قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}).[3]

فالجاهلون قديماً وحديثاً يتغافلون عن حقيقة أنّ الله هو الرازق ذو القوة المتين، يرزقهم وأبناءهم، وبعضهم يقع في براثن الجريمة النكراء حين يزهقون أرواح أبنائهم بسبب الفقر أو خشيته، وسبحانه وتعالى يقول: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.[4]

وعن عبد اللهِ، قال سَأَلْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قال:

1. الأعراف:8 - 9.
2. الأنعام: 140.
3. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب جهل العرب.
4. الأنعام: 151.

أَنْ تَجْعَلَ لِهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ، قلت: إِنَّ ذلك لَعَظِيمٌ، قلت: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قلت: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ).[1]

فهل بعد تدبر هذا الوعيد يعذر أحد من الوالدين في التخلص من أبنائهم بالقتل، سواء قبل ولادتهم أم بعدها بسبب ضيق ذات اليد أو غير ذلك؟!

صور من عذاب الأخسرين أعمالاً

للأخسرين أعمالاً عذاب بئيس يوم القيامة، تتجلى فيه خسارة النفس والأهلين، ومن نتائج خسارة النفس أن تخف موازين صاحبها يوم القيامة، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ}[2]، وقوله جل شأنه: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ}.[3]

فهاتان الآيتان الكريمتان تبينان أن من ثقلت موازينهم أفلحوا، ومن خفت موازينهم، خسروا بسبب ظلمهم، والملاحظ أن آية الأعراف لخصت سبب ما آل إليه حال الخاسرين؛ لكونهم كانوا بآيات الله ظالمين، أي يكذبون بها ظلماً.[4]

والمراد بهؤلاء عند أكثر المفسرين الكفار، إذ لا معنى لكون الإنسان ظالماً بآيات الله إلا كونه كافراً بها منكراً لها[5]. بينما آية (المؤمنون: 103) لم تذكر السبب، وإنما ذكرت مصيرهم أنهم فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، فهم مقيمون فيها دائمون، لا يموتون ولا يخرجون منها، وفي الآية التالية أشار الله تعالى إلى صورة من صور عذابهم في النار، فقال جل شأنه: {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب قوله تعالى: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}(البقرة:22).
2. الأعراف: 9.
3. المؤمنون: 103.
4. التسهيل لعلوم التنزيل، 2/ 29.
5. التفسير الكبير، 14/ 23.

النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ}[1]؛ أي تحرق وجوههم نار جهنم إحراقاً شديداً، واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيراً منه، وتخصيص الوجوه بذلك؛ لأنها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار، وهو السر في تقديمها على الفاعل.[2]

الخاسرون يوم القيامة لن تغني عنهم مكاسبهم التي نالوها في الدنيا

القرآن الكريم علق خسارة الأخسرين أعمالاً على حبوط أعمالهم في الآخرة، حين لم يقم الله تعالى لها وزناً جزاء كفرهم واتخاذهم آيات الله هزواً، هذا ما تضمنت بيانه الآيات القرآنية من أواخر سورة الكهف التي تم بها استهلال الحلقة الأولى من حلقات إنباء الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، بالأخسرين أعمالاً، والله عز وجل نبه في آيات أخرى إلى أن من ينتهج درب الخاسرين لن ينفعه الفداء بأعز خيرات الدنيا التي نالها، وكانت محط اهتمامه وفخره وهنائه، فيقول الله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ}[3]، ويقول عز وجل:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ}[4]، وكررت سورة آل عمران الإشارة إلى قصور الأموال والأولاد عن دفع وبال الخسران الذي يلحق بالكافرين في آيتها 116، مع اختلاف في وصف النتيجة العقابية، ففي الآية الأولى قال الله تعالى عن الكافرين الخاسرين: {وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ}، وفي الثانية قال سبحانه وتعالى عنهم: {وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[5]، وعن فشل الافتداء بمِلْء الأرْضِ ذَهَباً لو كان بالإمكان تملكه من مصير الخسران، يقول جل شأنه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن

1. المؤمنون: 104.
2. تفسير أبي السعود، 6/ 151.
3. الشعراء: 88.
4. آل عمران: 10.
5. آل عمران: 116.

يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ}.[1]

بل إن الافتداء من خسارة الآخرة لن يتحقق لو حدث محال آخر، وهو ملك ما في الأرض جميعاً وتقديمه فداء لعذاب الآخرة، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.[2]

فالأموال والأولاد لن تغني عن عذاب الآخرة، وفداء ذلك العذاب بملء الأرض ذهباً، أو بما في الأرض جميعاً ومثله معه، وهما محالان، ولو قدر التمكن من حيازتهما، لن يفيدا في مجال الافتداء بهما من عذاب يوم القيامة، سائلين الله العلي القدير أن ينجينا منه، وأن لا يجعلنا من الخاسرين فيه، وإنما من الذين يأتون الله بقلب سليم.

فهذه وقفات عند بعض محطات خسارة النفس يوم القيامة، في ضوء ما تيسر الاستشهاد به من الآيات القرآنية، وحديث النبي، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. آل عمران: 91.
2. المائدة: 36.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

العزة لله وله وللمؤمنين

ورد في صحيح البخاري، بَاب {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[1]، وفيه عن جَابِر بن عبد اللهِ، رضي الله عنهما، قال: (كنا في غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ من الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا من الْأَنْصَارِ، فقال الْأَنْصَارِيُّ: يا لَلْأَنْصَارِ، وقال الْمُهَاجِرِيُّ: يا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّعَهَا الله رَسُولُهُ، صلى الله عليه وسلم، قال: ما هذا؟ فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ من الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا من الْأَنْصَارِ، فقال الْأَنْصَارِيُّ: يا لَلْأَنْصَارِ، وقال الْمُهَاجِرِيُّ: يا لَلْمُهَاجِرِينَ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ، قال جَابِرٌ: وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ حين قَدِمَ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَكْثَرَ ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ، بَعْدُ، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ، أو قد فَعَلُوا، والله لَئِنْ رَجَعْنَا إلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ منها الْأَذَلَّ، فقال عُمَرُ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه: دَعْنِي يا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هذا الْمُنَافِقِ، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ الناس أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ). [2]

هذه الرواية الصحيحة التي تخبر عن حدث يكاد يكرر نفسه عبر السنين والأيام والأجيال، مما يضرب وحدة الأمة، ويفرق جمعها في أنحاء كثيرة من دنيا الإسلام والمسلمين، ولولا لطف الله ورعايته، لكان الحدث الذي تسبب في نزول الآية الكريمة أعلاه كفيلاً بإحداث شرخ في كيان الأمة الناشئة، والشاهد هنا يكمن في رد الله عز وجل على قول زعيم النفاق عبد الله بن أبي (لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ) قاصداً على حد زعمه أنه وعشيرته الأعز من المهاجرين، كون البلد في الأصل مسكنه وآله، وهم الأكثر، والمهاجرون لجأوا إليهم من

1. المنافقون: 8.

2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة المنافقين، باب قوله: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}(المنافقون:8)

موطن آخر، وهم الأقل، ووفق قيم المن والأذى، والتعصب الأعمى، والحمية الجاهلية، فإن المهاجرين أقلة غرباء، في أرض كثرة أهلها أصلاء، وإذا ما استندت النظرة إلى الفريقين من حيث العزة والذلة، إلى هذا المعيار الجاهلي، فإن الأصيل عزيز؛ لأنه صاحب البيت، والغريب منكسر الخاطر؛ كونه في كنف غيره، هذا تفسير لخلفية ذاك القول الآثم الذي نطق به زعيم النفاق، وكان الرد الرباني عليه حاسماً وقاطعاً، متضمناً جواباً مشتقاً من جنس المادة اللفظية المستخدمة، لكن الواقع مختلف، والدلالة أشد وأبلغ، فمعايير الله تختلف عن معايير الضلالة في وزن الأمور، فالعبرة عند الله ليست لصاحب الكنف، بقدر ما هي لصاحب الإيمان والاستقامة والصلاح، فمن يكن في جنب الله يؤمن به ويناصره، ويضحي بالغالي والنفيس في سبيله، يفوق بجدارة متناهية من يحارب الله ويكفر به، وينتصر للقيم الهابطة، فشتان بين الثرى والثريا، وبين من يتطلع إلى السماء في أهدافه وسلوكه، وبين من يدنو إلى الدرك الأسفل من الأرض في مبادئه وقيمه وسلوكه ومعاييره.

نعم؛ جاء جواب الله على ذاك القول الهابط دون فواصل ولا مقدمات، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...}، فالعزة الحقة هي عزة الله، التي تجمع في رحابها الرسول، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين، لكن مشكلة المنافقين أنهم يجهلون حقائق الأمور، من هنا كان التعقيب الرباني على سوق هذا الخبر والرد عليه بقوله تعالى: {وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ}.

مفهوم العزة

ورد في لسان العرب، أن العِزَّ والعِزَّة: الرفعة والامتناع.

وفيه أن العَزِيزَ: من صفات الله عز وجل وأَسمائه الحسنى؛ قال الزجاج: هو الممتنع، فلا يغلبه شيء، وقال غيره: هو القوي الغالب كل شيء.

والعِزُّ: خلاف الذُّلِّ.(*)

* لسان العرب: 10 /134.

فعزة الله قهره من دونه، وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم.[1]

وفي التفسير الكبير، عن الواحدي، أن أصل العزة في اللغة الشدة، واعتز فلان بفلان؛ إذا اشتد ظهره به، والعزة القوة، منقولة من الشدة؛ لتقارب معنييهما.

ويعقب الرازي على هذا المعنى للعزة، فيقول: إن المنافقين كانوا يطلبون العزة والقوة بسبب اتصالهم باليهود، ثم إنَّ الله أبطل عليهم هذا الرأي، بقوله تعالى: {فَإِنَّ العِزَّةَ لله جَمِيعاً}.[2]

العزة لله جميعاً

ليس بعض العزة لله، وبعضها الآخر لغيره، بل العزة جميعها لله تعالى، كيف لا؟ وهو سبحانه المعطي والمانع، وبيده الأمر كله، وجاء التأكيد على حقيقة حصر العزة بالله تعالى في عدد من الآيات القرآنية، وكل منها ورد في سياق معزز للإيمان بهذه الحقيقة، فيقول تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ}.[3]

ومن معززات الإيمان بحصر العزة بالله تعالى حسب مضمون الآية الكريمة أعلاه، أن الكلم الطيب يصعد إليه سبحانه، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ، وأن مكر أصحاب السَّيِّئَاتِ إلى بوار، والبوار الهلاك أو الكساد، ومعناه هنا أن مكرهم يبطل ولا ينفعهم[4]، وورد في التفسير أن هذا يقضي ببطلان التعزز بغيره سبحانه وتعالى، واستحالة الانتفاع به، وقيل: هو جواب

1. تفسير البغوي: 4/ 350.
2. التفسير الكبير: 11/ 64.
3. فاطر: 10.
4. التسهيل لعلوم التنزيل، 3 /155.

شرط محذوف، كأنه قيل: إن يبتغوا عندهم عزة، فإن العزة لله.[1]

وتكرر التأكيد القرآني على حصر العزة جميعاً بالله سبحانه، في سورتي النساء ويونس، فقال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلهِ جَمِيعاً}.[2]

فاللجوء إلى موالاة الكافرين، والتذلل لهم طلباً للعزة منهم، مؤشر دال على خلل في الإيمان لدى طالبي العزة من غير مالكها، والله جل شأنه أكد على إقرار هذه الحقيقة بجلاء أيضاً في سورة يونس، فقال تعالى:{وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.[3]

فالله تعالى يطمئن رسوله، صلى الله عليه وسلم، من خلال نهيه عن الحزن على ما يصدر من أعدائه من إساءات لفظية وفعلية ضده وضد دينه، وقرن الله تعالى هذا النهي بالتأكيد على حقيقة انفراده سبحانه في ملك زمام العزة، فهو صاحب القوة والغلبة والتدبير، يرفع بعزه من يشاء من عباده، ويذل من يشاء، وكل من يتعرض للذي تعرض له الرسول، صلى الله عليه وسلم، بسبب الإيمان بالله، والتمسك بمبادئ الإسلام، فله العزة والمنعة والقوة، بأمر الله تعالى ورعايته، وما ذلك على الله بعزيز.

كلمة لا بد منها

يعاني شعبنا في فلسطين من بطش المحتل وإجرامه، حيث قتل الأبرياء بدم بارد، وهدم منازل الآمنين، وانتهاك حرمة المقدسات، وسلب الأراضي، وفرض القيود المذلة، وفي بعض الأقطار العربية القتل يستشري، وكذلك التشرد، وتدمير الأخضر واليابس، في ظل هذه الكوابيس وغيرها، قد يبادر بعض القراء إلى السؤال عن مكان العزة في مثل هكذا ظروف، والجواب قد يتعدد ويتشعب، حسب منطلقات المجيب وعقيدته، وبالتأكيد أن المؤمن بالله

1. تفسير أبي السعود: 2 /244.
2. النساء: 139.
3. يونس: 65.

رباً، وبعزة الله، وصدق قرآنه، سينطلق جوابه عن مثل هذا التساؤل من فيحاء إيمانه، وروض إسلامه، حيث إنه يرتبط بعالم الآخرة أكثر، فهي خير وأبقى، وهو ينظر إلى أن ما يجري في الدنيا ليس نهاية المطاف، بل المهم ما سيكون عليه اللقاء بالله يوم القيامة، وعند الحشر والحساب، وإلى أي عنوان سيكون التوجه والمصير، آملين أن لا يفهم هذا الكلام على أنه دعوة للرضوخ للذل، بل هو حافز للصبر والثبات والطمأنينة إلى أن نصر الله قريب، والمؤمن عزيز في الرخاء والشدة، لا تنحني له هامة، ولا تلين له قناة.

سائلين الله العلي القدير أن يجعلنا من أهل العزة، المستظلين بفيء العزة الربانية، التي وعدنا الله تعالى إياها ووهبها الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

أَنزَلَ اللّه عَلَيه القرآن وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَاً

يقول الله تعالى في محكم التنزيل: {الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا* قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً* مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً* وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً* مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِباً}.[1]

سورة الكهف افتتحت بهذه الآيات الكريمة، التي تؤكد على حقائق تتعلق بالقرآن الكريم، من حيث إنزاله على الرسول، صلى الله عليه وسلم، قيماً دون عوج، بشيراً ونذيراً، وقبل الشروع بالوقوف عند بعض محاور فاتحة سورة الكهف، يحسن التذكير بفضلها.

فضل سورة الكهف

وردت آثار عديدة في بيان فضل سورة الكهف، وفضل قراءتها، من ذلك ما ورد عن ابن الْبَرَاءِ بن عَازِبٍ، قال: (كان رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ، وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فلما أَصْبَحَ، أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، فقال: تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ بِالْقُرْآنِ).[2]

وكانت للصحابة، رضي الله عنهم، مواقف دالة على إيمانهم بأهمية هذه السورة الكريمة وفضلها، فعن أَبي سَعِيدٍ الْخُدْرِي: (أَنَّ أُسَيْدَ بن حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هو لَيْلَةً يَقْرَأُ في مِرْبَدِهِ، إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قال أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يحيى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فإذا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي، فيها أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ في الْجَوِّ حتى ما أَرَاهَا، قال: فَغَدَوْتُ على رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رَسُولَ اللهِ؛ بَيْنَمَا أنا الْبَارِحَةَ من جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ

1. الكهف: 1 – 5.
2. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف.

في مِرْبَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرَسِي، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: اقرأ ابن حُضَيْرٍ، قال: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: اقرأ ابن حُضَيْرٍ، قال: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: اقرأ ابن حُضَيْرٍ، قال: فَانْصَرَفْتُ وكان يحيى قَرِيبًا منها، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ، فيها أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ في الْجَوِّ حتى ما أَرَاهَا، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كانت تَسْتَمِعُ لك، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَرَاهَا الناس ما تَسْتَتِرُ منهم).[1]

وفي فضل آيات منها ورد عن أبي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ من أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ من الدَّجَّالِ).[2]

أما بالنسبة إلى فضل قراءتها يوم الجمعة، فقد جاء عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بين الجمعتين)[3]

نعمة نزول القرآن الكريم القيم

يلاحظ أن الآية الكريمة الأولى من سورة الكهف، بدأت بحمد الله تعالى على نعمة نزول القرآن الكريم، وهي نعمة وأيما نعمة، والبدء بالحمد في اللفظ الأول من هذه السورة الكريمة يلفت الانتباه، ويشد الذهن لما يليه، من مسببات الحمد، التي بالتأكيد ستكون نعماً وخيرات، وعلى غرار الافتتاح بالحمد، كان الافتتاح بالتسبيح في بعض السور، مثل سورة الإسراء التي سبقت الكهف، والتسبيح يعني التنزيه، فالذي يليه سيتعلق بالتركيز على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، فكان ذكر فعل الإسراء، المنسوب إلى الله تعالى، وهو فعل عظيم،

1. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن .
2. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي.
3. المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوريّ 2 /399، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

لو نسب إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، لما تناسب مع إمكانات البشر وقدراتهم، فحتى لا يلتبس الأمر في ذهن السامع لخبر الإسراء، نبه إلى التسبيح استعداداً للإدراك بأن الخبر التالي يندرج ضمن أفعال الله تعالى، وليس أفعال الخلق، الذين يعجزون عن القيام بفعل خارق للعادة والمألوف، ولله المثل الأعلى دائماً.

وفي التفسير الكبير، جاء أن التسبيح أينما جاء، فإنما جاء مقدماً على التحميد، والله جلَّ جلاله ذكر التسبيح عندما أخبر أنه أسرى بمحمد، صلى الله عليه وسلم، فقال: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً}[1]، وذكر التحميد عندما ذكر أنه أنزل الكتاب على محمد، صلى الله عليه وسلم، فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}، ومن فوائد ذلك، أن التسبيح أول الأمر؛ لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي، وهو إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته، والتحميد عبارة عن كونه مكملاً لغيره.[2]

وفي هاتين الفاتحتين للسورتين الكريمتين تعليم للمسلمين وتنبيه لهم؛ لينزهوا الله تعالى عن مشابهة الحوادث، وأن يؤدوا واجب الحمد المستحق لله تعالى على جزيل نعمه، وفضل آلائه، وعلى رأسها نعمة الهداية، والقرآن كتابها ودستورها المبين.

عبودية المخلوق للخالق

من وجه التشابه بين فاتحتي سورتي الإسراء والكهف المتواليتين في ترتيب المصحف الشريف، عدا عن بدء الإسراء بالتسبيح بما يناسب ما سيتبع من خبر، وبُدِئت الكهف بالحمد انسجاماً مع ذكر النعم والخيرات التالي ذكرها، فإن في فاتحتي سورتي الإسراء والكهف إشارة للنبي، صلى الله عليه وسلم، بوصف العبد، فجاء في الإسراء {أسرى بعبده} وفي الكهف {أنزل على عبده}، ومن المحال أن تكون هاتان الإشارتان لهذا الوصف قد جاءتا

1. الإسراء: 1.
2. التفسير الكبير: 21/ 62.

عبثاً، أو دون سبب يقتضيهما، بل ذلك مؤكد على أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الرغم من المؤيدات الربانية التي أوتيها من الله عز وجل، يبقى عبداً لله، ولا يخرج عن هذا الإطار، بحال من الأحوال، ومن الآيات القرآنية التي تؤكد هذا المعنى، قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ}[1]، والآية 11 من سورة الزمر تتضمن دلالة مشابهة.

فمقام العبودية لله تعالى مقام كريم، وعبادة الله غاية سامية، وجد الخلق لأجلها، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.[2]

والأمر بعبادة الله وجهه سبحانه إلى الناس جميعاً، فقال جلَّ شأنه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.[3]

وأوحى الله إلى أنبيائه، عليهم السلام، بأن يأمروا الناس وأقوامهم بعبادته، فقال جل شأنه: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ...}.[4]

وورد الأمر بالعبادة على لسان الأنبياء، عليهم السلام، كما في قوله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}.[5]

وقوله تعالى: {... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ...}.[6]

وورد ذلك أيضاً على لسان نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من الرسل، عليهم السلام جميعاً، في الآيات 59، 65، 73، 85 من سورة الأعراف وغيرها.

والرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، كان يحاجج الناس بعبوديته لله تعالى، وعن هذا يقول

1. الزمر: 2.
2. الذاريات: 56.
3. البقرة: 21.
4. النحل: 36.
5. العنكبوت: 16.
6. المائدة: 72.

الله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.(*)

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، تلقى القرآن الكريم بوحي من الله تعالى، وبلّغه للعالمين، وكان لهم به هادياً ومبشراً ونذيراً، ولن تكون لهم نجاة في الآخرة إلا إذا آمنوا به، وعملوا بشرعه.

هدانا الله إلى حسن عبادته، والعمل بكتابه الكريم، وسنة رسوله الأمين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* يونس: 104.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يُذكر بالفراق الحتمي للحياة الدنيا

عن ابن عُمَرَ أَنَّهُ قال: (كنت مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فَجَاءَهُ رَجُلٌ من الأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ على النبي، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قال: يا رَسُولَ الله؛ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قال: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، قال: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قال: أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ).[1]

الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه هذا، يمنح المتفوق بذكر الموت درجة الامتياز في الكياسة، والكَيْسُ خِلاف الحُمْق، لأنَّه مُجْتَمَعُ الرَّأيِ والعَقْلِ.[2]

ومعنى هذا أن الذي يذكر الموت صاحب عقل متفتح، وفكر متقد، كونه يحسب لفراق الحياة الدنيا حساباً، فيعمل لما بعدها، بخلاف الغافل الذي يظن أنه مخلد عليها، وهو لها مفارق شاء أم أبى، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْكَيِّسُ من دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ من أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى على الله، قال: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ، قال: وَمَعْنَى قَوْلِهِ من دَانَ نَفْسَهُ، يقول: حَاسَبَ نَفْسَهُ في الدُّنْيَا، قبل أَنْ يُحَاسَبَ يوم الْقِيَامَةِ، وَيُرْوَى عن عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، قال: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قبل أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يوم الْقِيَامَةِ على من حَاسَبَ نَفْسَهُ في الدُّنْيَا).[3]

فليس من الكياسة تجاهل التجهز للآخرة، بالذي ينجي فيها من أعمال يؤديها صاحبها بيديه وبقصده، فمن غذى رصيد أعماله بالعمل الصالح كان عند ربه مرضياً، ومن خفت موازينه يوم القيامة من أعمال البر كان من الخاسرين، مصداقاً لقوله تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا* وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا* وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا* يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا* بِأَنَّ رَبَّكَ

1. سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، وحسنه الألباني.
2. العباب الزاخر: 1 / 185.
3. سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب منه، وحسنه الترمذي.

أَوْحَى لَهَا* يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}.[1]

فالموت خلقه الله كما الحياة، وهو القائل عن هذه الحقيقة جل ذكره: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}.[2]

والمتغير في معادلة الحياة والموت هو العمل، فكل حي مصيره أن يموت إلا الله جل في علاه، والفارق بين الأحياء مشاريع الموت هو ما يقدمون من عمل في حياتهم لما بعدها، والفائز هو صاحب العمل الأحسن والأفضل، والخاسر هو صاحب العمل الخسيس والسيء، وشتان بين العملين، فأحدهما يؤدي إلى جنة ونعيم، والآخر يقود صاحبه إلى نار وجحيم، والعياذ بالله العلي العظيم.

حتمية الموت

الموت الذي به يبدأ مشوار الرحيل عن الحياة الدنيا، والانطلاق إلى الحياة الآخرة، هو حتمية لازمة لا مفر منها، ولا يعتريها أي ريب، حتى إن الله تعالى شبه الموت بشيء يتذوقه الإنسان للدلالة على حتميته ولزوم وقوعه، فقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}.[3]

وورد التأكيد على هذه الحتمية في أدلة شرعية عديدة، إذ لا مفر للإنسان الذي ينتهي أجله من الخضوع للموت، حتى لو تحصن بأشد أساليب الحماية كلها، مصداقاً لقوله تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ...}.[4]

ويؤكد الله جل ذكره هذه الحتمية بقوله: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ

1. الزلزلة: 1 – 8.
2. الملك: 1 – 2.
3. آل عمران: 185.
4. النساء: 78.

تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.[1]

حتى إنَّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يجد ما يحميه من الاستسلام للموت لما دنا الأجل، وسبق لله تعالى أن أكد على المساواة بين الناس في الاستسلام للموت، فقال جل ذكره: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}[2]، ولما استهجن بعض المسلمين سماع خبر موت النبي، صلى الله عليه وسلم، حين أشيع عنه في غزوة أحد، عقب الله عز وجل على هذا الاستغراب بالتأكيد على حتمية موته صلى الله عليه وسلم، إن لم يكن في هذه الحادثة وهذا الوقت، ففي وقت لاحق، فقال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ}.[3]

الحذر من الموت وكراهيته

غالب الناس يحرصون على الحياة، ويأخذون بأسباب النجاة من الموت، لكن اليهود كانوا الأحرص على الحياة حسب الوصف القرآني لهم، فقال تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}.[4]

ومهما بلغ الحرص على الحياة، والحذر من الموت، فإن قدر الله لا بد له أن ينفذ، وفي وصف بعض حال الحذرين من الموت يقول تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ}.[5]

فالإنسان يلجأ بفطرته وبطريقة عفوية أحياناً إلى الحركة باتجاه النجاة من إصابة أو حدث؛ خوفاً من الموت، لكن القاعدة أن الحذر لا يغني من القدر، فإذا ما كان الأجل المحتوم، وقعت

1. الجمعة: 8.
2. الزمر: 30.
3. آل عمران: 144.
4. البقرة: 96.
5. البقرة: 19

مصيبة الموت، ومن الأمثلة التي ضربها القرآن الكريم، ما جاء في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}[1]

والموت محك صعب، تتهاوى أمامه مزاعم غير المبالين به وقت الرخاء والسعة، فإذا ما جاءتهم ريحه، تراجعوا عن مزاعمهم الكاذبة، وفروا هاربين، أو محاولين الهرب منه، وقد واجه الله بعض زاعمي الشجاعة والإيمان بامتحان تمني الموت، فكان الفشل، وكانت الخيبة، وقد أخبر الله عز وجل عن حال المتراجعين عن تلك المزاعم، فقال جلَّ شأنه: {قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [2]، وتكرر مضمون هذا الإخبار في سورة الجمعة في الآيات (6 - 8).

والفرق شاسع بين حال مستقبلي الموت، بين مرحبين بلقاء الله وبين كارهين، والنبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من أَحَبَّ لِقَاءَ الله، أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله، كَرِهَ الله لِقَاءَهُ، قالت عَائِشَةُ: أو بَعْضُ أَزْوَاجِهِ، أنا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قال: ليس ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إذا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، بُشِّرَ بِرِضْوَانِ الله وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إليه مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ الله، وَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إذا حُضِرَ، بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إليه مِمَّا أَمَامَهُ، فكره لِقَاءَ الله، وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ)[3]

فسواء كرهنا الموت أو أقبلنا عليه، فهو آت آت، فمن لم يأته اليوم سيأتيه غداً أو بعد غد، وليس شرطاً له المرض، أو كبر السن، أو الفقر أو الغنى، أو حضور المعارك الحربية أو الجبن عن حضورها والفرار منها.

---

1. البقرة: 243.
2. البقرة: 94 - 95.
3. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

الفائدة المرجوة من التذكير بالفراق الحتمي للحياة الدنيا

ما دام فراق الدنيا أمراً لازماً وقضاءً محكماً، فلا بدّ للكيس من الاستعداد ليوم الرحيل، بالتزود بزاد التقوى، لأن غداً لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

سائلين الله العلي القدير أن يحسن ختام أعمالنا، وأن يوفقنا للعمل بما يرضيه سبحانه، لنسعد برضوانه وجنته بمعية الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يتَّعوُذ من جَهْدِ الْبَلَاءِ وَدَرَكِ الشَّقَاءِ

عن أبي هُرَيْرَةَ: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم يَتَعَوَّذُ من جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ).[1]

الابتلاء من سنن الله تعالى في خلقه، كيف لا؟! والله تعالى يقول: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}[2]، فالله تعالى يختبر عباده بأمور امتحانية كثيرة، منها ما ذكر في هذه الآية الكريمة؛ خوف، وجوع، وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ، وَالأنفُسِ، وَالثَّمَرَاتِ، والابتلاءات ترتبط بمعنى المصائب والشدائد، فهي غير مرغوبة للإنسان، وهو يعمل جهده دائماً على تجنبها، وأخذ الحذر من أن تصيبه، وفي الحديث أعلاه يتعوذ الرسول، صلى الله عليه وسلم، من أمور ذات صلة عامة بالبلاء والابتلاء، وقد جاء في شرحه، أن قوله: (جهد البلاء) الجهد بضم الجيم وفتحها، والضم أشهر، وهو الحالة التي يختار عليها الموت، وقيل: هو قلة المال، وكثرة العيال.[3]

وقوله: (ودرك الشقاء) الدرك بفتح الدال والراء، ويجوز سكون الراء، هو الإدراك واللحوق. والشقاء بالفتح والمد، الشدة والعسر، وهو ضد السعادة، ويطلق على السبب المؤدي إلى الهلاك. وقيل: درك الشقاء يكون في أمر الدنيا والآخرة، وكذا (سوء القضاء) هو عام أيضاً في النفس والمال والأهل، والخاتمة والمعاد. وقوله: (وسوء القضاء)؛ أي المقضي؛ لأن حكم الله كله حسن لا سوء فيه، وقوله: (وشماتة الأعداء) أي الحزن بفرح عدوه، والفرح بحزنه، وهو مما ينكأ في القلب، ويؤثر في النفس تأثيراً شديداً، وإنما دعا النبي، صلى الله

---

1. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ من جهد البلاء.
2. البقرة: 155.
3. عمدة القاري: 23/ 160 - 161.

عليه وسلم، بذلك تعليماً لأمته، وهذه كلمة جامعة؛ لأن المكروه إما أن يلاحظ من جهة المبدأ، وهو سوء القضاء، أو من وجهة المعاد، وهو درك الشقاء؛ إذ شقاوة الآخرة هي الشقاء الحقيقي، أو من جهة المعاش، وذلك إما من جهة غيره، وهو شماتة الأعداء، أو من جهة نفسه، وهو جهد البلاء.[1]

الدعاء المسنون عند الكرب والهم

ما دام الابتلاء بالكرب والشدة واقعاً لا محالة، فلا بدَّ للمؤمن من مواجهته بالجلد والصبر والدعاء، ومن الدعاء المسنون عند الكرب والهم، ما ورد في السنة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه كان يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ يقول: (لا إِلَهَ إلا الله الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إلا الله رَبُّ السماوات وَالأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)[2]

والمراد بدعائه عند الكرب؛ أي عند حلول الكرب، وقوله: (لا إله إلاَّ الله العظيم الحليم) اشتمل على التوحيد الذي هو أصل التنزيهات.[3]

وقال العلماء: (الحليم) الذي يؤخر العقوبة مع القدرة، والعظيم الذي لا شيء يعظم عليه، والكريم المعطي فضلاً، وقال الطيبي: صدر هذا الثناء بذكر الرب ليناسب كشف الكرب؛ لأنه مقتضى التربية، وفيه التهليل المشتمل على التوحيد، وهو أصل التنزيهات الجلالية، والعظمة التي تدل على تمام القدرة والحلم الذي يدل على العلم؛ إذ الجاهل لا يتصور منه حلم ولا كرم، وهما أصل الأوصاف الإكرامية.[4]

وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: (اللهم إني أَعُوذُ بِكَ من الْهَمِّ، وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ، وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ).[5]

1. عمدة القاري: 22/ 304.
2. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب.
3. عمدة القاري: 22/ 302.
4. فتح الباري: 11/ 146.
5. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة.

يذكر ابن حجر أن (الهم) يكون لما يتصوره العقل من المكروه في الحال، و(الحزن) لما وقع في الماضي، و(العجز) ضد الاقتدار، و(الكسل) ضد النشاط، و(البخل) ضد الكرم، و(الجبن) ضد الشجاعة، وقوله: (وغلبة الرجال) هي إضافة للفاعل، استعاذ من أن يغلبه الرجال لما في ذلك من الوهن في النفس والمعاش.[1]

وقوله: (وضلع الدين) بفتح الضاد واللام؛ أي ثقله.[2]

فهذه أصناف من الكرب والشدائد التي تلحق بالناس، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يعلمنا التوجه إلى الله تعالى، طالبين عونه عليها.

وكان صلى الله عليه وسلم عندما يأوي إلى فراشه، يحمد الله على نعمائه، التي لولاها للحقت به الشدة، واعتراه الكرب، فعن أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، كان إذا أَوى إلى فِرَاشِهِ، قال: (**الْحَمْدُ لِلهِ الذي أَطْعَمَنَا، وَسَقَانَا، وَكَفَانَا، وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ له ولا مُؤْوِيَ**)[3]

لذا كان عليه الصلاة والسلام يحرص على تربية أصحابه والمسلمين من ورائهم على طلب الغوث من الله سبحانه، فعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لفاطمة: (**ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به، أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم؛ برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**).[4]

مقام الصابرين على الابتلاءات وجزاؤهم

ذكرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فضل الصبر على الابتلاء، وجزاء الصابرين، ففي سورة البقرة ذكر لسنة الابتلاء، متبوع بذكر البشرى للصابرين، وعرض لجزائهم، والصابرون هم الذين يسترجعون عند المصيبة التي تنتابهم، فلهم الرحمة وعليهم الصلوات

1. فتح الباري: 11/ 178.
2. فتح الباري: 9/ 554.
3. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.
4. المستدرك على الصحيحين: 1/ 730، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

الربانية، مصداقاً لقوله تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[1]، والصلاة من الله هي الثناء والمدح والتعظيم.[2]

وفي السورة نفسها أي البقرة، وبعد عشرين آية من الآيات السابق ذكرها، يرد ذكر قوله تعالى: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}.[3]

فهذه الآية الكريمة تذكر الصبر على البأساء والضراء في عداد خصال المؤمنين وصفاتهم الطيبة، التي ينال أصحابها الشهادة الربانية لهم بالصدق والتقوى، وأنعم بها من شهادة.

ومن طباع الإنسان بشكل عام، أنه يلجأ إلى الله بالضراعة، عند الكرب والشدائد، وتشير إلى هذا الطبع، آيات عديدة، منها قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}.[4]

وقوله تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ}.[5]

وقوله سبحانه: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}.[6]

وبعد أن أمر الله بالصبر، والرضا بحكمه وقضائه وقدره، حذر من الاستسلام للأحزان والغم بسبب البلاء من خلال ضرب المثل بيونس، عليه السلام، فقال تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ

---

1. البقرة: 156 – 157.
2. التفسير الكبير، 4/141.
3. البقرة: 177.
4. يونس: 12.
5. النحل:53.
6. الأنبياء:83.

رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}.[1]

والمكظوم هو المملوء غماً وحزناً، كما قال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}[2]، وهو قول ابن عباس ومجاهد، وعن عطاء وأبي مالك {مَكْظُومٌ} مملوء كرباً، وقال الماوردي: والفرق بين الغم والكرب، أن الغم في القلب، والكرب في الأنفاس، وقيل: مَكْظُومٌ محبوس، والكظم الحبس، ومنه قولهم كظم غيظه؛ أي حبس غضبه، وقيل المكظوم المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس، قاله المبرد.[3]

فالابتلاءات التي تعترض حياة الناس خير ما يساعدهم على مواجهتها، والخلاص من ربقتها هو الإيمان والرضا بالقضاء والقدر والصبر والجلد، والعمل على النهوض من مآسيها بأقل الخسائر والتبعات، بعيداً عن عوامل الإحباط ومعضلات الحبوط.

سائلين الله العلي القدير أن يفرج كروبنا، وأن يعلي شأننا، وأن يعز ديننا، ويفك قيد أسرانا، ويتقبل شهداءنا، ويهيئ لأقصانا الفرج القريب وسبل التحرر العاجل، كونه قبلتنا الأولى، ومسرى نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. القلم: 48
2. الأنبياء: 88.
3. أضواء البيان، 4/ 243.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يخبر عن رب العزة سبحانه إعلانه الحرب على من يعادي أولياءه

عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تقَرَّبَ إليّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إليّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليّ بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ).[1]

فهذا الحديث من الأحاديث القدسية، التي يرويها الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن الله تعالى وينسبها إليه، والمعاداة في قوله: (من عَادَى) ضدّ الموالاة.[2]

وورد في شرح هذا الحديث أن قوله: (لي) صفة لقوله ولياً، لكنه لما قدم صار حالاً، الولي في قوله: (ولياً) هو العالم بالله، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته، فإن قيل إن قوله: (عادى) من المعاداة، وهو من باب المفاعلة التي تقع من الجانبين، ومن شأن الولي الحلم والاجتناب عن المعاداة، والصفح عمن يجهل عليه، أجيب بأن المعاداة لم تنحصر في الخصومة، والمعاداة الدنيوية مثلاً، بل تقع عن بغض ينشأ عن التعصب، كالرافضي في بغضه لأبي بكر، رضي الله تعالى عنه، والمبتدع في بغضه للسني، فتقع المعاداة من الجانبين، أما من جانب الولي، فللَّه وفي الله، وأما من الجانب الآخر فظاهر.

وقوله: (فقد آذنته) بالمد، أي أعلمته، من الإيذان، وهو الإعلام، وقوله: (بالحرب)؛ أي فقد استحل محاربتي، ويدخل في قوله: (مما افترضت عليه) الفرائض جميعها؛ فرائض العين،

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.
2. التيسير بشرح الجامع الصغير: 1 /255.

وفرائض الكفاية، وقوله: (وما يزال) وفي روايات أخرى (وما زال) بصيغة الماضي. وقوله: (يتقرب إليّ) بتشديد الياء، والتقرب طلب القرب، وقال القشيري: قرب العبد من ربه يقع أولاً بإيمانه، ثم بإحسانه، وقرب الرب من عبده، ما يخصه به في الدنيا من عرفانه، وفي الآخرة من رضوانه، وفيما بين ذلك من وجوه لطفه وامتنانه، وقرب الرب بالعلم والقدرة، عام للناس، وباللطف والنصرة، خاص بالخواص، وبالتأنيس، خاص بالأولياء.

وقوله: (بالنوافل)؛ أي الطاعات الزوائد عن الفرائض، ويرى العيني أن المراد بها ما كانت حاوية للفرائض، مشتملة عليها، ومكملة لها، وليس المراد كون النوافل مطلقاً، وقوله: (أحبه) وفي رواية غيره حتى أحببته، وقوله: (كنت سمعه الذي يسمع به) قال الداودي: هذا كله من المجاز، يعني أنه يحفظه كما يحفظ العبد جوارحه لئلا يقع في مهلكة، وقال الخطابي: هذه أمثال، والمعنى والله تعالى أعلم توفيقه في الأعمال التي باشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها، بأن يحفظ جوارحه عليه، ويعصمه من موافقة ما يكرهه الله تعالى من الإصغاء إلى اللهو مثلاً، ومن النظر إلى ما نهى عنه، ومن البطش بما لا يحل له، ومن السعي في الباطل برجله، أو بأن يسرع في إجابة الدعاء، والإلحاح في الطلب، وذلك أن مساعي الإنسان إنما تكون بهذه الجوارح الأربع.

وقوله: (وبصره الذي يبصر به) وكذا قال في الأذن واليد والرجل، وقيل: المعنى أجعل له مقاصده كأنه ينالها بسمعه وبصره إلى آخره، وقيل: كنت له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه، وقيل: فيه مضاف محذوف، والتقدير كنت حافظ سمعه الذي يسمع به، فلا يسمع إلاَّ ما يحل سماعه، وحافظ بصره كذلك، إلى آخره.

وقوله: (يبطش) بكسر الطاء، أي يأخذ، وقوله: (وإن سألني) أي عبدي، وقوله: (استعاذ بي)؛ أي أعذته مما يخاف، وقوله: (لأعيذنه) أي مما يخاف، فإن قيل: إن كثيراً من الصلحاء

والعباد دعوا وبالغوا ولم يجابوا، أجيب بأن الإجابة تتنوع، فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور، وتارة يقع، ولكن يتأخر الحكم، وتارة قد تقع الإجابة، ولكن بغير المطلوب، حيث لا يكون في المطلوب مصلحة ناجزة، وفي الواقع مصلحة ناجزة، أو أصلح منها.

وقوله: (وما ترددت عن شيء) التردد مثل؛ لأنه محال على الله تعالى، وقال الخطابي: التردد في حق الله تعالى غير جائز، والبداء عليه في الأمور غير سائغ، وله تأويلان: أحدهما، أن العبد قد يشرف على الهلاك في أيام عمره، من داء يصيبه، أو فاقة تنزل به، فيدعو الله فيشفيه منها، ويدفع عنه مكروهها، فيكون ذلك من فعله كترديد من يريد أمراً، ثم يبدو له فيه فيتركه، ويعرض عنه، ولا بد من لقائه إذا بلغ الكتاب أجله؛ لأن الله تعالى قد كتب الفناء على خلقه، واستأثر بالبقاء لنفسه، والثاني، أن يكون معناه ما رددت رسلي في شيء أنا فاعله، كترديدي إياهم في نفس المؤمن، كما روي في قصة موسى، عليه السلام، وما كان من لطمه عين ملك الموت، وتردده إليه مرة بعد أخرى، قال: وحقيقة المعنى على الوجهين عطف الله تعالى على العبد، ولطفه به، وشفقته عليه.

وقوله: (وإساءته) ويروى مساءته، أي حياته؛ لأنه بالموت يبلغ إلى النعيم المقيم لا في الحياة، أو لأن حياته تؤدي إلى أرذل العمر، وتنكيس الخلق، والرد إلى أسفل سافلين، أو أكره مكروهه، الذي هو الموت، فلا أسرع بقبض روحه.[1]

وقال ابن الملك: (أكره مساءته) أي إيذاءه بما يلحقه من صعوبة الموت وكربه، وقال ابن حجر: أي أكره ما يسوءه؛ لأني أرحم به من والديه، لكن لا بد له منه؛ لينتقل من دار الهموم والكدورات، إلى دار النعيم والمسرات، فعلته به إيثاراً لتلك النعمة العظمى، والمسرة الكبرى.[2]

1. عمدة القاري: 23/ 89 - 90.
2. مرقاة المفاتيح: 5/ 144.

دروس وعبر من هذا الحديث القدسي الكريم

يمكن للمتدبر في الحديث الشريف المذكور أعلاه أن يستنبط أموراً ذات قيمة واعتبار، منها:

* إنَّ لله أولياء من عباده الصالحين، الذين يتقربون إليه سبحانه بالفرائض والنوافل.

* إعلان الحرب الربانية على الذين يؤذون أولياءه، ويا لها من مصيبة عظيمة تلك التي تحل بالذين يحاربهم الله تعالى، سواء في عاجل أمرهم أم آجله، أم فيهما معاً!

* أداء الفرائض والواجبات مقدم على أداء التطوع، وأداء الفرائض على وجهها المطلوب، يستجلب للعابد محبة ربه عز وجل، وإذا ما أتبع الفرائض بالنوافل، فإنه سينال من الخيرات والنعم التي يزجيها الله على عباده وأصفيائه، ما يجلب السداد لفعله، والتوفيق لقوله، ومن الآيات القرآنية التي تؤكد هذه المعاني الجليلة، قوله تعالى: {...وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...}[1]

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}.[2]

ويقول سبحانه: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.[3]

* الدعاء مخ العبادة، والله عز وجل يستجيب دعاء الداعي إذا أخلص في دعائه وأناب، وهو القائل جل شأنه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}.[4]

---

1. الطلاق: 2 - 3.
2. محمد:7.
3. الأنفال: 17.
4. البقرة: 186.

* الطاعة بفرائضها ونوافلها والدعاء مدخلات لمخرجات، تتمثل بالتوفيق الرباني، **والحماية**، والحفظ، وإجابة السؤال. فالله تعالى يتولى محبوبه في أحواله جميعها، فحركاته، وسكناته به تعالى.(*)

* ما أحوجنا وأمثالنا من المبتلين بالمحن والمصائب والجراح، أن نبذل الجهود لنيل محبة الله ورضوانه، فيحارب عنا، ويهلك بقدرته عدونا وعدوه بأيدينا، وهو على كل شيء قدير.

فهذه وقفة تأملية عند ما تيسر من معاني هذا الحديث القدسي الكريم، راجين تلمس نفحات الهمة والأمل منها، في ظل ظروف مليئة بالقسوة والشدائد، التي يؤمل أن تنقشع قريباً، بقدرة ملك السماوات والأرض، ومن بيده تصريف الأمور كلها، سبحانه وتعالى، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد، وعلى آله، وأزواجه، وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* حاشية العطار على جمع الجوامع: 2/ 517.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يرد البدع المحدثة في الدين ـ الحلقة الأولى

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (**من أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذا ما ليس فيه، فَهُوَ رَدٌّ**).[1]

هذا الحديث من جوامع الكلم، وروى الحافظ العراقي عن الإمام أحمد بن حنبل: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث؛ حديث الأعمال بالنيات، وحديث من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد، وحديث الحلال بيّن والحرام بيّن.[2]

وفي عمدة القاري، أن قوله: (من أحدث في أمرنا هذا) يراد بالإحداث هنا اختراع شيء في الدين بما ليس فيه، مما لا يوجد في الكتاب والسنة، وقوله: (فهو رد) أي مردود، وهو من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول، كما يقال هذا خلق الله؛ أي مخلوقه، وحاصل معناه أنه باطل غير معتد به.

وفيه رد المحدثات، وأنها ليست من الدين؛ لأنه ليس عليها أمره صلى الله عليه وسلم.[3]

وفي رواية عند مسلم، عن عَائِشَة، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (**من عَمِلَ عَمَلاً ليس عليه أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**).[4]

فالرسولُ، صلى الله عليه وسلم، يُنَفرُ من استحداث بدع في الدين وهي مما لم يَرد به دليل من القرآن الكريم، ولا من السنة النبوية الصحيحة.

فيحرم استحداث أمور في العقيدة والعبادة لم يرد بها الدليل المعتبر شرعاً، والله تعالى

---

1. صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود.
2. فيض القدير: 3 /425.
3. عمدة القاري: 13 /274.
4. صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور .

يقول: {...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.[1]

يقول السعدي في تفسيره: وهذا شامل لأصول الدين وفروعه وظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وإن نص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد، ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله.[2]

الأمر باتباع السنة ورفض الرغبة عنها، عن عبد اللهِ، قال: (لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ. قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ، يُقَالُ: لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَأَتَتْهُ، فَقَالَتْ: مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: وَمَا لِي لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيِ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ. فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: فَإِنِّي أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلَى امْرَأَتِكَ الآنَ. قَالَ: اذْهَبِي فَانْظُرِي. قَالَ: فَدَخَلَتْ عَلَى امْرَأَةِ عَبْدِ اللهِ، فَلَمْ تَرَ شَيْئًا، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا. فَقَالَ: أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكِ لَمْ نُجَامِعْهَا).[3]

فالآية الكريمة المستشهد فيها في نص هذا الحديث، وإن كانت نزلت في أمر الفيء، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتشمل لزوم الأخذ بما جاء به الرسول، صلى الله عليه وسلم، والانتهاء عما نهى عنه، فلفظ الآية عام في أوامره، صلى الله عليه وسلم، أو نواهيه، ولذلك استدلَّ بها عبد الله بن مسعود على لعن الواشمة والواصلة.[4]

1. الحشر: 7.
2. تفسير السعدي: 1/ 851.
3. صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله.
4. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 108.

وعن الْعِرْبَاض بن سَارِيَةَ يقول: (قام فِينَا رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ذَاتَ يَوْمٍ فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَتْ منها الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ منها الْعُيُونُ، فَقِيلَ: يا رَسُولَ الله؛ وَعَظْتَنَا مَوْعِظَةَ مُوَدِّعٍ، فَاعْهَدْ إِلَيْنَا بِعَهْدٍ، فقال: عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَسَتَرَوْنَ من بَعْدِي اخْتِلَافًا شَدِيدًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ، فإن كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف يأمر باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، ويحذر من بدع الضلالة.

وفي الحديث الصحيح، عن أَنَسَ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قال: (...فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِي).[2]

والمراد بالسنة هنا الطريقة، لا التي تقابل الفرض، والرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره، والتنفير هنا من ترك السنة، والأخذ بغيرها، وطريقة النبي، صلى الله عليه وسلم، هي الحنيفية السمحة، فيفطر ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة، وإعفاف النفس، وتكثير النسل، وقوله: (فليس مني) أي ليس على ملتي، والرغبة عن السنة لا تخرج من الملة إلا إذا كانت إعراضاً وتنطعاً، يفضي إلى اعتقاد أرجحية عمله؛ لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر.[3]

ثبات الشريعة الإسلامية ومرونتها

الثبات والمرونة خاصيتان متقابلتان، والدين الإسلامي يمتاز بهما معاً، فالأمور التي لا تقبل التغيير تكون ثابتة، مثل مبادئ العقيدة والإيمان، وعدد صلوات الفريضة، وركعاتها، وأوقاتها، وصوم رمضان، وحج البيت، فلا يقبل من المسلمين أفراداً أو مجموعين أن يغيروا

1. سنن ابن ماجة، كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، وصححه الألباني.
2. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح.
3. فتح الباري: 9/ 105 - 106.

أو يبدلوا في هذه القضايا وأمثالها، على غير ما جاءهم في أصول الدين ومصادره.

فتلك أمور تؤخذ بالنقل؛ أي إنها توقيفية، لا تخضع لاجتهادات العقول، ومن الآثار الصحيحة الواردة بهذا الخصوص ما روي عن عُمَرَ، رضي الله عنه، أَنَّهُ جاء إلى الْحَجَرِ الأَسْوَدِ، فَقَبَّلَهُ، فقال: (**إني أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، لَا تَضُرُّ، ولا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُكَ**).[1]

وعن علي، رضي الله عنه، قال: (**لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يمسح على ظاهر خفيه**).[2]

أما وسائل الحياة وطرائق المعيشة، وأساليب التوعية، وأنماط الحياة وما شابه، فتلك أمور تخضع للتطور والتغيير، ولا يعقل أن يقوقع المسلم نفسه دون الأخذ بمستجداتها، شريطة مراعاة المحافظة على حكم الشرع، فلا يقبل مثلاً التعاطي مع الربا؛ لأن جل الحياة الاقتصادية اليوم منغمسة في براثنه، لكن ركوب الطائرة ومركبات النقل البرية والبحرية الحديثة، لا يعقل رفض الاستفادة منها في تيسير أمور الحياة، بحجة أنها لم تكن موجودة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضي الله عنهم، وسلف الأمة.

وكذلك بالنسبة إلى مستجدات أخرى كثيرة، لا ينبغي حصر التعاطي معها بما كان موجوداً، وقد طرأ عليها تطور كبير، فالجلوس لتلقي دروس العلم كان أرضياً، ووسائله محدودة، أما اليوم فهناك المقاعد والسبورة والتقنيات الإلكترونية الخاصة بالبث والتلقي، مما لم يكن متاحاً من قبل، وكذلك صار التواصل عبر الأجهزة، وصارت بعض المساجد تبث كلام الخطيب لساحات المسجد وأجزائه؛ ليتمكن الجالسون في أنحاء المسجد من مشاهدة الإمام وسماعه بوضوح وهو لا يقابلهم، فهل يعتبر هذا الاستخدام من البدع الضالة؟!

---

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود.
2. سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب كيف المسح، وصححه الألباني.

وصار المسلمون يتحينون الفرص والمناسبات للتذكير بدينهم وسيرة نبيهم، صلى الله عليه وسلم، دون أن يحدثوا لذلك شعائر تعبدية جديدة، ولا أن يخرجوا عما عهدوه من أصول العبادة، فيجلسون في ذكرى مناسبات فارقة وعظيمة في تاريخهم ليستذكروا أمجادهم، ويعلموا الأجيال الجديدة، أمور دينهم، ويوثقوا صلتهم بعقيدتهم ومقدساتهم، من خلال تذكيرهم بالإسراء والمعراج مثلاً، وذكرى المولد النبوي، فلماذا نحدث اختلافاً بيننا حول التذكير بهذه الذكريات، ما دام لم يرافقها استحداث شعائر، أو فرض أحكام تعبدية لم تفرض من لدن الرسول، صلى الله عليه وسلم.

راجين أن يوفق العلي القدير إلى متابعة الحديث عن رد البدع الضالة، والتفريق بينها وبين المحدثات المحمودة، في إطار الحرص على القول بما يوافق دينه العظيم والعمل به، واتباع أَحْسَنَ الحديث كِتَاب اللهِ تعالى، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيِ مُحَمَّدٍ، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

عن رِفَاعَةَ بن رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ، قال: (كنا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما رَفَعَ رَأْسَهُ من الرَّكْعَةِ، قال: سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ، قال رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كثيراً طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه، فلما انْصَرَفَ، قال: من الْمُتَكَلِّمُ؟ قال: أنا، قال: رأيت بِضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا، يَبْتَدِرُونَهَا، أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ).[1]

قوله: (يوماً) يعني في يوم من الأيام، قوله: (قال رجل وراءه)؛ أي وراء النبي، صلى الله عليه وسلم، وقوله: (طيباً)؛ أي خالصاً عن الرياء والسمعة، وقوله: (مباركاً فيه)؛ أي كثير الخير. وقوله: (فلما انصرف) أي من صلاته، وقوله: (قال: من المتكلم؟) أي قال النبي، صلى الله عليه وسلم: من المتكلم بهذه الكلمات؟ قوله: (بضعة وثلاثين ملكاً) البضع بكسر الباء وفتحها، هو ما بين الثلاث والتسع، تقول: بضع سنين وبضعة عشر رجلاً، وقوله: (قال: أنا) أي قال الرجل: أنا المتكلم يا رسول الله، وقوله: (يبتدرونها) أي يسعون في المبادرة.

وقوله: (يكتبها أول) التقدير يبتدرون الذي هو يكتبها أول؛ يعني كل واحد منهم يسرع ليكتب هذه الكلمات قبل الآخر، ويصعد بها إلى حضرة الله تعالى، لعظم قدرها.[2]

أنواع البدعة

البدع المحرمة تكون في أمور دينية لا تقبل التغيير، أو الإضافة، أو الإنقاص منها، كأمور العقيدة والعبادات كمها وكيفيتها وشروطها، وما شابه ذلك، أما التغيير الذي يحدث في أمور المعيشة وطرائق الحياة والتربية والتعليم والصحة وما شابه، فهي مستحدثة، غير أن

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب فضل اللهم ربنا ولك الحمد.
2. عمدة القاري: 6/ 75 - 76.

المسلمين يأخذون بها دون نكير شرعي، ما دام لم يرد دليل شرعي يمنعهم من ذلك، ومن أمثلة ذلك أن الناس جميعاً يستخدمون الكهرباء في بيوتهم ومساجدهم ولم تكن موجودة من قبل، فلا بد إذن من التفريق بين المسموح والممنوع بالنسبة إلى الأمور المستحدثة، حتى يكون المسلم على بينة من أمره، ويقل الخلاف بين آراء المسلمين ومواقفهم حيال هذه المسألة ذات الأهمية البالغة. وقد تنبه إلى الحديث عن أنواع البدع أفذاذ العلماء، ففي فتح الباري يذكر ابن حجر، عن الشافعي، قوله: إن البدعة بدعتان؛ محمودة ومذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالفها فهو مذموم، وقوله: المحدثات ضربان؛ ما أحدث يخالف كتاباً، أو سنة، أو أثراً، أو إجماعاً، فهذه بدعة الضلال، وما أحدث من الخير، لا يخالف شيئاً من ذلك، فهذه محدثة غير مذمومة.[1]

وفي فتح الباري ذكر لتقسيم ابن عبد السلام البدعة إلى خمسة أقسام؛ فالواجبة، كالاشتغال بالنحو الذي يفهم به كلام الله ورسوله؛ لأن حفظ الشريعة واجب، ولا يتأتى إلا بذلك، فيكون من مقدمة الواجب، وكذا شرح الغريب، وتدوين أصول الفقه، والتوصل إلى تمييز الصحيح والسقيم، والمحرمة، ما رتبه من خالف السنة من القدرية والمرجئة والمشبهة، والمندوبة، كل إحسان لم يعهد عينه في العهد النبوي، كالاجتماع عند التراويح، وبناء المدارس، والكلام في التصوف المحمود، وعقد مجالس المناظرة إن أريد بذلك وجه الله، والمباحة كالمصافحة عقب صلاة الصبح والعصر، والتوسع في المستلذات من أكل وشرب وملبس ومسكن، وقد يكون بعض ذلك مكروهاً، أو خلاف الأولى، والله أعلم. [2]

ومن الأمور الرئيسة التي أحدثها الصحابة، وخدمت وجود الدين وركائزه، جمع القرآن الكريم، في مرحلتيه، الأولى التي كانت في عهد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، والثانية

1. فتح الباري: 13 /253.
2. فتح الباري: 13/ 254.

التي كانت في عهد عثمان، رضي الله عنه، وكذلك جمع الناس لصلاة قيام ليل رمضان جماعة، والتي قال فيها الفاروق عمر بن الخطاب: (نِعْمَ الْبِدْعَةُ هذه) فعن عبد الرحمن بن عَبْدٍ القاري، أَنَّهُ قال: (خَرَجْتُ مع عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، لَيْلَةً في رَمَضَانَ إلى الْمَسْجِدِ، فإذا الناس أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ، يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ، فقال عُمَرُ: إني أَرَى لو جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ على قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ، ثُمَّ عَزَمَ، فَجَمَعَهُمْ على أُبَيِّ بن كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ معه لَيْلَةً أُخْرَى، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِئِهِمْ، قال عُمَرُ: نِعْمَ الْبِدْعَةُ هذه، وَالَّتِي يَنَامُونَ عنها أَفْضَلُ من التي يَقُومُونَ، يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ، وكان الناس يَقُومُونَ أَوَّلَهُ) .[1]

جاء في فتح الباري، أن البدعة إن كانت مما تندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة، وإن كانت مما تندرج تحت مستقبح في الشرع فهي مستقبحة، وإلا فهي من قسم المباح، وقد تنقسم إلى الأحكام الخمسة، وقوله: (والتي ينامون عنها أفضل) هذا تصريح منه بأن الصلاة في آخر الليل أفضل من أوله، لكن ليس فيه أن الصلاة في قيام الليل فرادى أفضل من التجميع.[2]

فعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وصف جمع الناس على إمام واحد في ليالي رمضان، بنعم البدعة؛ لتحقيقها مصلحة شرعية، ولم ينكر المسلمون عليه ذلك، وليس الناس جميعاً ملزمين بفهم من قال: إن عمر، رضي الله عنه، قصد هنا المعنى اللغوي للبدعة، إذ لماذا يرفض أن يكون ما قاله دليلاً على مشروعية البدعة المحمودة، التي تستحدث دون أن تعارض أصلاً شرعياً، أو دليلاً صحيحَ الثبوت، وواضحَ الدلالة.

وعمر بن الخطاب اختار حدث الهجرة للتأريخ الإسلامي، وذلك بعد استشارة الصحابة بالخصوص، ومنذ ذلك الحين وهذا التأريخ موجود بدِء به من شهر محرم، مراعاة لبداية السنة

1. صحيح البخاري، كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان.
2. فتح الباري: 4/ 253.

القمرية، رغم أن الهجرة لم تكن في هذا التاريخ، بل كانت بعده بشهرين أو أكثر، ورغم ذلك لم يحدث اختلاف على هذا الاختيار، أو محاججة بأن محرم ليس شهر الهجرة.

فكثيرٌ من الأمور التي تنكر اليوم من قبل بعض المسلمين، تقبل أن تكون من المحدثات المحمودة، التي يمكن للعلماء أن يقولوا فيها بآرائهم، كما كان يقول الأولون من أسلافهم، دون أن يعيب بعضهم على بعض، كما يحصل من قبل بعضهم الذين أسلموا عقولهم لمدارس معينة، ويريدون أن يفرضوا آراءها على عموم المسلمين، دون أن يعتبروا من العلماء إلا أصحابهم، وذلك تعصب مقيت، ترفضه أخلاق الدين ومناهج العلماء الأفذاذ من سلف الأمة وخلفها.

فيمكن قبول المستحدثات التي تتعلق بمجالات لا تمس بأصول الدين، ولا بأصل العبادة، وما دام لم تشرع لها شعائر تعبدية ليس لها أصل في الدين، فهي بهذا تندرج في إطار ثقافات الناس وأعرافهم وعاداتهم الاجتماعية ومستجدات حياتهم، التي يجتهد بعضهم بأن يتعايشوا معها بما يخدم الحداثة، ويحقق المصالح المشروعة للأشخاص وجماعاتهم، ودينهم ومبادئهم.

رفض المغالاة في فهم البدع والتهاون فيها

مما سبق يتضح أن الأمور المحدثة منها المقبول والمرفوض وفق معايير الدين ومبادئه وأحكامه، وتجاهل هذا الفهم يوقع في براثن الإثم مثلما يوقع في الاستسلام لأنماط تقليدية يقبل الدين الحداثة فيها، ومن سلبيات هذا التجاهل اتساع رقعة الخلاف بين المسلمين في آرائهم ومواقفهم وسلوكهم، ومن متطلبات معالجة هذه المعضلة، تجنب فرض آراء اجتهادية أو مذهبية من قبل أشخاص أو فئات على مجموع المسلمين، وكأنها مسلمات غير قابلة للنقاش والمحاورة، وهي ليست كذلك في كثير من الأحيان، فالصحابة وهم خيار المسلمين

وصفوتهم، اختلفت آراؤهم حول ما استجد في حياتهم بعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، مثل خلافهم الأولي حول مسألة جمع القرآن، فتناقشوا وتحاوروا حتى شرح الله صدور المعارضين للقبول برأي المبادرين إلى جمعه، فجمع أخيراً، والمسلمون على مر عصورهم بعد ذلك يلمسون خير هذا الصنيع وإيجابيته.

فالتمييز بين البدع المذمومة والمحمودة أمره دقيق، ينبغي إمعان النظر فيه، فلنا الأخذ بمستجدات تقتضيها الحاجات لديننا ودنيانا، في الآن نفسه الذي يجب علينا فيه تجنب الضلالة بأنواعها وأشكالها واستحداث مسبباتها، وعلى علماء الأمة بيان أنواع البدع انطلاقاً من معاني اللغة ومبادئ الدين وأحكامه.

وصلى الله على نبينا مُحَمَّدٍ وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

ينبذ التطرف والمغالاة

عن المقداد بن عمر الكندي، أَنَّهُ قال لِرَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (أَرَأَيْتَ إن لَقِيتُ رَجُلًا من الْكُفَّارِ، فَاقْتَتَلْنَا فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فقال: أَسْلَمْتُ لِلهِ، أأقتله يا رَسُولَ اللهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لا تَقْتُلْهُ، فقال يا رَسُولَ اللهِ: إنه قَطَعَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قال ذلك بَعْدَ ما قَطَعَهَا، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ، فإنه بِمَنْزِلَتِكَ قبل أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ، قبل أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ التي قال).[1]

يحدد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف معياراً أخلاقياً، ينبع من مبادئ عقيدة الإسلام في التعامل مع المسالمين من الناس، فرفض عليه الصلاة والسلام، قتل المحارب الذي اختار في لحظة ما الاستجارة بالإسلام، بل توعد المسلم الذي لا يحترم هذا المعيار بأشد عقوبة، مستخدماً صورة تشويقية مؤثرة للالتزام بذلك، والتنفير من تنكبه، حيث وضع المخالف القاتل في مقام المحارب الكافر، ووضع المقتول في مقام قاتله المسلم، بمعنى أن النجاة تكون للمستجير المقتول، والهلاك للقاتل الذي خالف معايير الإسلام في هذا الجانب، مما يوحي بضرورة تحلي المسلم بالاعتدال والحكمة، حتى وهو يقاتل أعداء الإسلام ومحاربيه، وذلك انطلاقاً من مبادئ الإسلام وقيمه وأحكام شريعته.

وجاء في شرح هذا الحديث، أن قوله: (أرأيت) أي أخبرني. وقوله: (ثم لاذ مني بشجرة) أي تحيل في الفرار مني بها، ومنه قوله تعالى: {يتسللون منكم لواذاً}[2]، وقوله: (قال أسلمت لله) يثبت به الإسلام، فلا يحتاج إلى كلمة الشهادة. وقوله: (أأقتله) بهمزة الاستفهام، على سبيل الاستعلام، وقوله: (فإنه بمنزلتك) معناه أنه مثلك في كونه مباح الدم فقط، وإن قتله المسلم بعد ذلك، صار دمه مباحاً بحق القصاص، كالكافر بحق الدين، فالكافر المحارب إذا

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب منه.
2. النور: 63.

نطق بكلمة التوحيد، حرم قتله.[1]

جريمة قتل المستجير بالإسلام

لم ينحصر تنفير الرسول، صلى الله عليه وسلم، من قتل المستجير بالإسلام في الصورة النظرية التي رسمها خلال مناقشة سائله، كما جاء في الحديث أعلاه، بل وقع التطبيق العملي لذلك، حين صدرت عن أحد الصحابة مخالفة للمبدأ المرسى بالخصوص، فعن أُسَامَةَ بن زَيْدٍ، قال: (بَعَثَنَا رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، في سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ[2] من جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلاً، فقال: لَا إِلَهَ إلا الله، فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ في نَفْسِي من ذلك، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: أَقَالَ: لَا إِلَهَ إلا الله وَقَتَلْتَهُ؟ قال: قلت: يا رَسُولَ اللهِ؛ إنما قَالَهَا خَوْفًا من السِّلَاحِ، قال: أَفَلَا شَقَقْتَ عن قَلْبِهِ حتى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا، فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ، حتى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ، قال: فقال سَعْدٌ: وأنا والله لا أَقْتُلُ مُسْلِمًا، حتى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ، يَعْنِي أُسَامَةَ، قال: قال رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلْ الله: {وَقَاتِلُوهُمْ حتى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ} فقال سَعْدٌ: قد قَاتَلْنَا حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حتى تَكُونَ فِتْنَةٌ).[3]

فعلى الرغم من منزلة الصحابي أسامة بن زيد عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حيث كان يحبه وأباه، وكان لذلك يلقب بالحب بن الحب، إلا أن هذه المنزلة القلبية الرفيعة لم تشفع له ليقتل مستجيراً من الأعداء في ساحة المعركة، فلما تجرأ عليه وقتله، ووصل الخبر إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنكر عليه صنيعه، بصورة جعلت أسامة يتمنى أنه لم يسلم قبل وقوع هذا التجاوز منه، وذلك على إثر غضب الرسول، صلى الله عليه وسلم، منه، حيث قال له: (أَفَلَا شَقَقْتَ عن قَلْبِهِ، حتى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟ فقال أسامة على إثر ذلك: (فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حتى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ)، جاء في عمدة القاري أن الكرماني تساءل: كيف جاز تمني عدم سبق الإسلام؟ ثم أجاب بقوله: تمنى إسلاماً لا ذنب فيه، أو ابتداء الإسلام ليجب ما قبله. وقال الخطابي: ويشبه أن أسامة قد أول قوله تعالى: {فَلَمْ يَكُ

1. عمدة القاري: 17/ 117.
2. الحرقة: اسم قبيلة من جهينة، وقوله: (فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ) إشارة إلى بطون تلك القبيلة. (كشف المشكل، 4/ 20).
3. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله.

يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}[1]، وهو معنى مقالته كان متعوذاً، وقال ابن بطال: كانت هذه القصة سبب تخلف أسامة أن لا يقاتل مسلماً بعد ذلك، ومن ثمة تخلف عن علي، رضي الله تعالى عنه، في الجمل وصفين، وقوله: (فما زال يكررها) أي يكرر مقالته: أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله، وفيه تعظيم أمر القتل بعدما يقول الشخص لا إله إلا الله، وقوله:(حتى تمنيت...إلخ) حاصل المعنى أني تمنيت أن يكون إسلامي الذي كان قبل ذلك اليوم بلا ذنب؛ لأن الإسلام يجب ما قبله، فتمنيت أن يكون ذلك الوقت أول دخولي في الإسلام؛ لآمن من جريرة تلك الفعلة، ولم يرد أنه تمنى أن لا يكون مسلماً قبل ذلك.[2]

ويستدل النووي بهذا الحديث على قاعدة معروفة في الفقه والأصول، تنص على أن الأحكام يعمل فيها بالظواهر، والله يتولى السرائر.[3]

استقباح قتل المعاهد

يرجو المسلم أن يكون الناس على أحسن حال مع الله تعالى، لكن هذا الرجاء من المحال تحققه، فالله تعالى يخاطب النبي، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}[4]، ويقول جلَّ شأنه: {...فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}[5]، من هنا لا يستغرب اختلاف الناس حيال المبادئ والعقائد السماوية، فيتصور واقعياً وجود الاختلاف العقائدي بين الناس، بل العداء بينهم، والمسلم يلتزم بمحددات الشرع وأحكامه حيال نفسه والمسلمين وغيرهم، فإذا وجد في مجتمعه غير مسلمين، فإن علاقته معهم تنظم وفق معايير الشرع، التي منها احترام دم المعاهد وماله، وقد جاء في السنة النبوية التنفير الشديد من سفك دم المعاهد، فعن عبد اللهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله

1. غافر: 85.
2. عمدة القاري: 24/ 36
3. صحيح مسلم بشرح النووي: 2/ 107.
4. يوسف: 103.
5. فاطر: 8.

عليه وسلم، قال: (من قَتَلَ مُعَاهَدًا لم يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ من مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) [1].

ويتماشى التغليظ في عقاب المعتدي على المعاهدين، مع المبادئ القرآنية التي فرضت على المسلمين التمييز بين من يناصبهم العداء، وينتهك حرماتهم، وبين المعاهدين والمسالين لهم من غير المسلمين، فقال جل شأنه: {لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [2]، ويقول عز وجل: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}. [3]

والله لما أمر بقتال أعداء الإسلام، خص المعتدين منهم، وحرم ممارسة الاعتداء، فقال جل شأنه: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ} [4]

فهذه عينة من النفحات الإيمانية الملزمة للمسلمين في علاقاتهم مع الآخرين، مما يعني أن الذين يخرجون عن إطارها فيقتلون الآمنين في كنائسهم وصوامعهم ومساكنهم، إنما يتنكبون درب الإسلام الصحيح، الذي يمنع المسلم أن يشطط، أو يتطرف في فهم تعاليم الدين وتطبيق أحكامه، الذي أرسى مبادئ عظيمة في التعامل مع الآخرين، ونفّر من الغلو والتطرف، وسار على هذا النهج القويم المسلمون من لدن الرسول الهادي، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.
2. آل عمران:113
3. الممتحنة: 8 – 9.
4. البقرة: 190.

الفصل الثاني
العبادات

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم		
.1	يشرع النداء للصلاة بالأذان ورفع الصوت به – الحلقة الأولى	66
.2	يشرع النداء للصلاة بالأذان ورفع الصوت به – الحلقة الثانية والأخيرة	71
.3	وقوله: (ساعة وساعة)	77
.4	يبشر المؤمنين بخيرات رمضان	82
.5	يربط ثواب الصائم بحسن سلوكه	87
.6	يرشد الصائمين إلى سننه في الصيام وبعض آدابه وأحكامه – الحلقة الأولى	92
.7	يرشد الصائمين إلى سننه في الصيام وبعض آدابه وأحكامه – الحلقة الثانية	97
.8	يرشد الصائمين إلى سننه في الصيام وبعض آدابه وأحكامه – الحلقة الثالثة والأخيرة	102
.9	يعظم الشعائر والحرمات	107
.10	وشعيرة الطواف بالصفا والمروة – الحلقة الأولى	112
.11	وشعيرة الطواف بالصفا والمروة – الحلقة الثانية والأخيرة	116
.12	وسننه في العيد والأضحية	120

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يشرع النداء للصلاة بالأذان ورفع الصوت به ـ الحلقة الأولى

عن عبد الرحمن بن عبد اللهِ بن عبد الرحمن بن أبي صَعْصَعَةَ الأَنْصَارِيِّ، ثُمَّ الْمَازِنِيِّ، عن أبيه، أَنَّهُ أخبره أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، قال له: (**إِنِي أَرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ، فإذا كُنْتَ في غَنَمِكَ أو بَادِيَتِكَ فَأَذَّنْتَ بِالصَّلاةِ، فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ، فإنه لا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ ولا إِنْسٌ ولا شَيْءٌ إلا شَهِدَ له يوم الْقِيَامَةِ، قال أبو سَعِيدٍ: سَمِعْتُهُ من رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم**).(*)

يبين هذا الحديث الشريف الصحيح أن رفع الصوت بالأذان من سنن الإسلام وشعائره التي شرعها النبي الذي لا ينطق عن الهوى، صلى الله عليه وسلم، فبناء على ما تعلمه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه، من الرسول، صلى الله عليه وسلم، فقد وجه صاحبه إلى رفع صوته بالأذان، وذلك لتحصيل مزيد من الفضل والخير والثواب، فما من جن ولا إنس يسمع صوت المؤذن إلا شهد له يوم القيامة، وفي هذا رد واضح وصارخ على الذين يسعون لإطفاء صوت الأذان، حيث باتت آذانهم تضيق ذرعاً به، من عظم غيظهم وحقدهم، فيريدون أن يسكتوه تغيظاً، قل موتوا بغيظكم، فالله متم نوره ولو كره الذين يريدون أن يطفئوه بقراراتهم الهوجاء، وعنجهيتهم البغيضة، وعنصريتهم المقيتة، وفي هذا المقام يجدر التذكير بمفهوم الأذان ومشروعيته وصيغته وبعض أحكامه، في ضوء ما جاء في السنة النبوية.

الأذان في اللغة والاصطلاح

الأذان في اللغة: الإعلام، فقد جاء في لسان العرب: أَذِنَ بالشيء إِذْناً وأَذَناً وأَذانةً: عَلِم. وفي التنزيل العزيز: {**فأْذَنوا بحَرْبٍ من الله ورسوله**}(البقرة:279)؛ أَي كونوا على عِلْمٍ.

* صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء.

وقد ورد في الحديث ذكر الأَذان، وهو الإعلام بالشيء؛ يقال منه: آذَنَ يُؤْذِن إيذاناً، وأَذّنَ يُؤذّن تأْذِيناً، والمشدّدُ مخصوصٌ في الاستعمال بإعلام وقت الصلاة.[1]

والأذان في الاصطلاح: الإعلام بدخول وقت الصلاة بذكر مخصوص.

أو الإعلام بدخول وقت الصلاة المفروضة بألفاظ معلومة مأثورة على صفة مخصوصة، وهو من خير الأعمال التي يتقرّب بها إلى الله تعالى، وفيه فضل كثير وأجر عظيم.[2]

مشروعية الأذان وحكمه

جاء ذكر النداء إلى الصلاة في أكثر من آية قرآنية، فيقول الله تعالى: {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ}[3]، أي وإن يتخذ أعداء الإسلام الصلاة أو المناداة إليها هزواً، وفيه بيان لاستهزائهم بحكم خاص من أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الإطلاق إظهاراً لكمال شقاوتهم، وفيه كذلك دلالة على مشروعية الأذان.[4]

قال الكلبي: كان منادي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا نادى إلى صلاة، وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، وصلوا لا صلوا، على طريق الاستهزاء، وضحكوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.[5]

وهذا يدل على الموقف التاريخي لمتطرفي اليهود من الأذان، فهم المستهزئون به أولاً، ثم ها هم اليوم يسعون إلى إسكاته بالغطرسة والعنجهية والظلم.

والملاحظ أن الله تعالى أضاف الأذان هنا إلى المسلمين جميعاً؛ لأن المؤذن يؤذن لهم، ويناديهم، فأضافه إليهم.[6]

1. لسان العرب: 1/ 78.
2. زاد المعاد: 2 /357.
3. المائدة: 58.
4. تفسير أبي السعود: 3 /53.
5. تفسير البغوي: 2/ 48.
6. تفسير السمرقندي: 1 /425.

ويقول جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[1]؛ أي إذا قام المنادي بها، وهو المؤذن، يقول: حي على الصلاة.[2]

وعن ابن عُمَرَ كان يقول: (كان الْمُسْلِمُونَ حين قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ، فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَاةَ ليس يُنَادَى لها، فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا في ذلك، فقال بَعْضُهُمْ: اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، وقال بَعْضُهُمْ: بَلْ بُوقًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ، فقال عُمَرُ: أَوَلا تَبْعَثُونَ رَجُلاً يُنَادِي بِالصَّلَاةِ، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يا بِلالُ؛ قُمْ فَنَادِ بِالصَّلَاةِ).[3]

فهذا الحديث الشريف يدل على أن الأذان شرع في المدينة بعد الهجرة، وليس قبل ذلك، ويدل كذلك على أن الأذان من شعائر الإسلام التي يتميز بها عن غيره من الأديان والملل، فقد رفض الرسول، صلى الله عليه وسلم، بدائل عديدة اقترحت للنداء إلى الصلاة، وقبل المناداة لها، والتي استقرت في نهاية المطاف بالأذان بصيغته التي يعرفها أقصى المسلمين وأدناهم، عربهم وعجمهم، صغارهم وكبارهم.

والأذان من خصائص الإسلام وشعائره، وحكمه يقع بين المندوب وفرض الكفاية عند الفقهاء، والأرجح، والله تعالى أعلم، أنه فرض كفاية، إذا قام به من يكفي له من المسلمين، سقط الفرض عن باقيهم، وإن لم تحصل الكفاية يأثم الجميع حتى تحصل.

فضل الأذان على المسلمين ووباله على الشيطان وأعوانه

وردت أحاديث كثيرة في فضل الأذان وخيره سواء بالنسبة إلى المؤذنين أم المرددين وراءهم، أم المسلمين عموماً، فعن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا نُودِيَ

1. الجمعة: 9.
2. أضواء البيان: 8/ 122.
3. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب بدء الأذان.

لِلصَّلاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ، حتى لا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فإذا قضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حتى إذا ثُوِّبَ بِالصَّلاةِ أَدْبَرَ، حتى إذا قضى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حتى يَخْطِرَ بين الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يقول: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لم يَكُنْ يَذْكُرُ، حتى يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدْرِي كَمْ صلى).(*)

فالشيطان يدبر خاسئاً منهزماً حين يسمع الأذان، فإذا انتهى المؤذن من رفع الأذان عاد، وفي عمدة القاري أن الإدبار نقيض الإقبال، وإدبار الشيطان وله (ضراط) تمثيل لحال الشيطان عند هروبه من سماع الأذان بحال من خرقه أمر عظيم واعتراه خطب جسيم، حتى لم يزل يحصل له الضراط من شدة ما هو فيه؛ لأن الواقع في شدة عظيمة من خوف وغيره تسترخي مفاصله ولايقدر على أن يملك نفسه، فينفتح منه مخرج البول والغائط، ولما كان الشيطان، لعنه الله، يعتريه شدة عظيمة وداهية جسيمة عند النداء إلى الصلاة؛ فيهرب حتى لا يسمع الأذان شبه حاله بحال ذلك الرجل، وأثبت له على وجه الادّعاء الضراط الذي ينشأ من كمال الخوف الشديد، وقال الطيبي: شبه شغل الشيطان نفسه عند سماع الأذان بالصوت الذي يملأ السمع ويمنعه عن سماع غيره، ثم سماه ضراطاً تقبيحاً له، وإن قيل: هو يهرب من الأذان، ولا يهرب من قراءة القرآن وهي أفضل من الأذان؛ لأنه يهرب منه حتى لا يشهد بما سمعه إذا استشهد يوم القيامة، لأنه جاء في الحديث أعلاه أنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة.

وقوله: (حتى لا يسمع التأذين) الظاهر أن هذه الغاية لأجل إدباره، وقال بعضهم: ظاهره أنه يتعمد إخراج ذلك إما ليشتغل بسماع الصوت الذي يخرجه عن سماع المؤذن، وإما أنه يصنع ذلك استخفافاً كما يفعله السفهاء، والظاهر كما ذكر آنفاً؛ لأنه وقع بيان الغاية في رواية لمسلم من حديث جابر، قال: (سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: إِنَّ الشَّيْطَانَ إذا

* صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التأذين.

سمع النِّدَاءَ بِالصَّلاةِ ذَهَبَ حتى يَكُونَ مَكَانَ الرَّوْحَاءِ، قال سُلَيْمَانُ: فَسَأَلْتُهُ عن الرَّوْحَاءِ، فقال: هِيَ من الْمَدِينَةِ سِتَّةٌ وَثَلاثُونَ مِيلاً).[1]

وقوله: (فإذا قضي النداء) بضم القاف على صيغة المجهول، أسند إلى فاعله، وهو النداء القائم مقام المفعول، وروي على صيغة المعلوم، ويكون الفاعل هو الضمير فيه، وهو المؤذن، والقضاء يأتي لمعان كثيرة، وها هنا بمعنى الفراغ، تقول: قضيت حاجتي؛ أي فرغت منها، أو بمعنى الانتهاء.[2]

فللأذان فضل عظيم على المسلمين بعامة والمؤذنين بخاصة، وهو من شعائر الإسلام وخصائصه، ورفع الصوت فيه من سننه المشروعة لتحقيق الغاية الإعلامية منه، وهو وبال على الشيطان وأعوانه، الذين نستعيذ بالله من شرهم، وإلى لقاء لاحق مع متابعة الوقوف عند شعيرة الأذان وسننه وأحكامه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح مسلم، كتاب الصلاة ، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه.
2. عمدة القاري: 5 /111 - 112.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يشرع النداء للصلاة بالأذان ورفع الصوت به ـ الحلقة الثانية والأخيرة

عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، (كان إذا غَزَا بِنَا قَوْمًا، لم يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حتى يُصْبِحَ، وَيَنْظُرَ، فَإِنْ سمع أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لم يَسْمَعْ أَذَانًا، أَغَارَ عليهم، قال: فَخَرَجْنَا إلى خَيْبَرَ، فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ لَيْلًا، فلما أَصْبَحَ ولم يَسْمَعْ أَذَانًا، رَكِبَ وَرَكِبْتُ خَلْفَ أبي طَلْحَةَ، وَإِنَّ قَدَمِي لَتَمَسُّ قَدَمَ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: فَخَرَجُوا إِلَيْنَا بِمَكَاتِلِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ، فلما رَأَوْا النبي، صلى الله عليه وسلم، قالوا: مُحَمَّدٌ والله، مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ، قال: فلما رَآهُمْ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: الله أَكْبَرُ، الله أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إذا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، (فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)).(*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى بيان معنى الأذان، ومشروعيته وحكمه، وعرّجت على فضل الأذان على المسلمين، ووباله على الشيطان وأعوانه، فأجره عظيم عند الله تعالى للمؤذنين والمرددين وراءهم، والمسلمين عموماً، بينما الشيطان يدبر خاسئاً منهزماً حين يسمع الأذان، فإذا انتهى المؤذن من رفع الأذان عاد، والمواقف المعادية للأذان من قبل الشيطان وأوليائه قديمة حديثة، وحالة منع رفع الصوت بالأذان تدل على الموقف التاريخي لمتطرفي اليهود منه، فهم المستهزئون به أولاً، ثم ها هم اليوم يسعون إلى إسكاته بالغطرسة والعنجهية والظلم، ورغم أنف هؤلاء وأولئك سيبقى رفع الصوت بالأذان من سنن الإسلام وشعائره، فهو يعبر عن عقيدة الإيمان بالله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، ويرفع للنداء لإقامة شعائر

* صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب ما يحقن بالأذان من الدماء.

الصلاة والإعلان عن بداية أوقات فرائضها، ويبدأ الأذان بالإعلان المتكرر يومياً مرات عدة على الألسنة المؤمنة، بأن الله أكبر، أي ليس له ند في العظمة والقدرة والقوة، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، مهما بلغ مستواه في أعين الناس، والأذان شعيرة تميز بلاد المسلمين، فالبلاد التي يرفع فيها يستدل منه على وجود مسلمين فيها، فهو علامة فارقة، كما يدل على ذلك الحديث المذكور أعلاه، فالصحابي الجليل أَنَس بن مَالِكٍ يحدث أن المسلمين بقيادة الرسول، صلى الله عليه وسلم، كانوا يعرفون البلد المسلم من غيره بالأذان، فكان المسلمون إذا قصدوا قوماً بجهاد ينتظرون الصباح، فإذا سمعوا أذان الفجر، علموا أن فيه مسلمين، وإذا لم يسمعوا صوت الأذان، علموا أن الإسلام غائب عنه، ويدلل على ذلك بما كان يوم خيبر، فَقد خَرَج المسلمون إليها، ووصلوها لَيْلًا فلما أَصْبَحَوا ولم يَسْمَعُوا أَذَانًا رَكِبَوا والرسول، صلى الله عليه وسلم، قاصدين حربها، فخرجت يهودها بمساحيهم؛ يعني طالبين زرعهم، وذلك أنهم كانوا يخرجون في كل يوم متسلحين مستعدين، فلا يرون أحداً، حتى إذا كانت الليلة التي قدم فيها المسلمون، ناموا فلم تتحرك لهم دابة، ولم يصح لهم ديك، وخرجوا بالمساحي، طالبين مزارعهم فوجدوا المسلمين، والمساحي جمع مسحاة، وهي آلة الحرث، والمكاتل جمع مكتل، وهي القفة الكبيرة التي يحمل فيها التراب وغيره، فلما رأوا المسلمين، قالوا: هذا محمد والخميس؛ أي الجيش، وسمي خميساً لأنه خمسة أقسام؛ الميمنة، والميسرة، والقلب، والمقدمة، والساقة.(*)

فلما رأى المسلمون خيبر، وهي التي استهدفوها بخروجهم، كبّر الرسول، صلى الله عليه

* عمدة القاري: 17 /237.

وسلم، فقال: الله أكبر، وقال: (خَرِبت خيبر)؛ أي صارت خراباً، قال القاضي عياض: قيل: تفاءل بخرابها بما رآه في أيديهم من آلات الخراب من المساحي وغيرها، وقيل: أخذه من اسمها، والأصح أنه أعلمه الله بذلك، ويؤيده قوله: (إنا إذا نزلنا بساحة قوم) أي بفنائهم وقريتهم وحصونهم، وأصل الساحة الفضاء بين المنازل، (فساء صباح المنذرين)؛ أي بئس الصباح صباح من أنذر بالعذاب.(*)

ويلاحظ من هذا الحديث الشريف أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، استخدم التكبير، وهو فاتحة الأذان عند إقدامه، والمسلمون على الشروع في غزو خيبر، إضافة إلى أنهم انتظروا الصباح قاصدين تمحيص المكان بالأذان، ومعلوم أن غزوة خيبر وقعت بين المسلمين ويهودها في السنة السابعة للهجرة، وسببها يعود إلى المواقف العدائية للإسلام والمسلمين من قبل يهود خيبر، الذين انضم إليهم بعض بني النضير وقينقاع بعد إجلائهم عن المدينة المنورة، فأصبحت خيبر تشكل مركزاً لتجمع قوى معادية للمسلمين، فصاروا يؤلبون عليهم القبائل، ويختلقون لهم المشكلات، فكان لا بد من حدوث المواجهة معهم؛ لدفع شرهم، وصد عدوانهم.

حرص المسلمين على نيل فضل الأذان وثوابه

تماشياً مع عظيم الفضل الموعود للمؤذنين، ومرددي عبارات الأذان من ورائهم، فقد كان يقع التنافس عليه بينهم، والرَسُول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (**لو يَعْلَمُ الناس ما في النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لم يَجِدُوا إلا أَنْ يَسْتَهِمُوا عليه، لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ ما في التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا**

* شرح الزرقاني: 3 /65.

إليه وَلَوْ يَعْلَمُونَ ما في الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا).[1]

قوله: (لو يعلم الناس) قال الطيبي: وضع المضارع موضع الماضي ليفيد استمرار العلم، وقوله: (ما في النداء)؛ أي الأذان، والمعنى، لو علموا ما في النداء والصف الأول من الفضيلة، ثم حاولوا الاستباق لوجب عليهم ذلك.[2]

فالأذان الذي له فضل عظيم في دين الإسلام، والمسلمون يعمر قلوبهم حبه، وتردد ألسنتهم عباراته، آناء الليل وأطراف النهار، والله تعالى من قبل ذلك وبعده بالمرصاد لمحاولي إسكات النداء لله به، وهو القائل سبحانه: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}[3]، فلا يمكن لأحد من الخلق أن يطفئ نور الأذان، أو يلغي وجوده، والذي يحاول المبادرة إلى هذا الشر إنما يستعدي مسلمي العالم أجمع؛ لأنه يحارب قاسماً مشتركاً بينهم.

تعزيز دور الأذان في التربية الإيمانية

الإسلام يروض المسلم على الارتباط الوثيق بالأذان، فلا يقف عندما يستمع الأذان عند مجرد السماع، بل من السنة له أن يردد بعد المؤذن عبارات الأذان، لقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا سَمِعْتُمْ النِّدَاءَ، فَقُولُوا مِثْلَ ما يقول الْمُؤَذِّنُ).[4]

وعن يحيى، قال: (وَحَدَّثَنِي بَعْضُ إِخْوَانِنَا أَنَّهُ قال: لَمَّا قال: حَيَّ على الصَّلَاةِ، قال: لَا حَوْلَ ولا

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان.
2. عمدة القاري: 5 /124 - 125.
3. التوبة: 32.
4. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب ما يقول إذا سمع المنادي.

قُوَّةَ إلا بِاللهِ، وقال: هَكَذَا سَمِعْنَا نَبِيَّكُمْ، صلى الله عليه وسلم، يقول).[1]

ويحرص المسلمون على رفع الأذان للصلاة في الحضر والسفر، فقد أتى رَجُلَانِ النبي، صلى الله عليه وسلم، يُرِيدَانِ السَّفَرَ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إذا أَنْتُمَا خَرَجْتُمَا، فَأَذِّنَا ثُمَّ أَقِيمَا، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمَا أَكْبَرُكُمَا).[2]

فلا تنحصر سنة رفع الأذان على الإعلام بدخول أوقات الصلاة في الحضر، بل تتعدى ذلك لرفعه في السفر أيضاً، مما يدل على مزيد من أهميته لدى المسلمين، ومن صور ربط المسلم بالأذان في عقيدته وعبادته، أنه عُلِّمَ الدُّعَاءَ عِنْدَه، لقوله صلى الله عليه وسلم: (من قال حين يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللهم رَبَّ هذه الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الذي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ له شَفَاعَتِي يوم الْقِيَامَةِ).[3] ومعلوم أن الدعاء مخ العبادة.

فهذه التربية الإيمانية للمسلمين على حب الأذان والحرص عليه، تتحدى من يكيدون للإسلام وشعائره ووجوده؛ لأنها تروض قلوبهم على دوام ذكر الله تعالى، والذي يؤمن بأن الله أكبر، لا يتساقط أمام المتربصين لدينه، من أنصار إبليس وجنده، الذين تتأرق أنفسهم، من سماع الأذان، فيخرج لهم ضراط، من شدة الحنق والقهر الذي انتابهم، كما ثبت في الحديث الصحيح أنه إذا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ، وَلَهُ ضُرَاطٌ حتى لا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ،

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب ما يقول إذا سمع المنادي.
2. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر، إذا كانوا جماعة والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، وقول المؤذن الصلاة في الرحال في الليلة الباردة أو المطيرة.
3. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء.

وهكذا أذناب الشيطان يرتعدون نفوراً من صوت الأذان، ويسعون لإسكاته بقوة القانون الظالم، الذي يصنعونه بأيديهم، بدعم من آلات بطشهم، فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سائلين الله العلي القدير أن يحفظ للمسلمين دينهم وشعائره ومساجده وذكر الله فيها، وأن يهديهم للعمل الدائم بكتاب الله وسنة نبيه، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

وقوله: (ساعة وساعة)

عن حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، قال: (لَقِيَنِي أبو بَكْرٍ، فقال: كَيْفَ أنت يا حَنْظَلَةُ؟ قال: قلت: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قال: سُبْحَانَ اللهِ، ما تَقُولُ؟ قال: قلت: نَكُونُ عِنْدَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حتى كَأَنَّا رأي عَيْنٍ، فإذا خَرَجْنَا من عِنْدِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ، وَالْأَوْلَادَ، وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قال أبو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هذا، فَانْطَلَقْتُ أنا وأبو بَكْرٍ، حتى دَخَلْنَا على رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قلت: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يا رَسُولَ اللهِ، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: وما ذَاكَ؟ قلت: يا رَسُولَ الله؛ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حتى كَأَنَّا رأي عَيْنٍ، فإذا خَرَجْنَا من عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: وَالَّذِي نَفْسِي بيده؛ إن لو تَدُومُونَ على ما تَكُونُونَ عِنْدِي، وفي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ على فُرُشِكُمْ، وفي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، علمنا أن الحياة لن تسير على وتيرة واحدة، فهناك صيام وإفطار، وهناك طاعة ومعصية، وهكذا، ومعنى قوله: ساعة وساعة؛ أي ساعة كذا، وساعة كذا.[2]

والساعة تعبير عن الفترة الزمنية، ومع بداية شهر شوال الذي أعقب رمضان، يفهم أن هناك أياماً للصيام، وأخرى للإفطار.

---

1. صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 17/ 67.

الله يحب أن يعبد كما أمر وشرع

فرض الله على المسلم البالغ العاقل المقيم القادر بدنياً أن يصوم رمضان، وزيد شرط يخص النساء، وهو الطهارة من الحيض والنفاس، إلا أن الله تعالى أوجب على المرأة قضاء ما أفطرت في رمضان بسببهما، ولم يوجب عليها قضاء الصلاة التي تركتها بسبب ذلك، وتلكم حكمة ربانية، تتماشى مع رحمته سبحانه بعباده، وتنسجم مع مبادئ التيسير، ورفع الحرج في الدين.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن الله فرض الصيام على عباده، إلا أنه حرمه على المرأة أيام حيضها ونفاسها، وأيام عيد الأضحى ويوم الفطر، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: نهى عن صِيَامِ يَوْمَيْنِ؛ يَوْمِ الْأَضْحَى، وَيَوْمِ الْفِطْرِ). [1]

وعن أبي عُبَيْدٍ، مولى بن أَزْهَرَ، أَنَّهُ قال: (شَهِدْتُ الْعِيدَ مع عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، فَجَاءَ، فَصَلَّى، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَخَطَبَ الناس: فقال: إِنَّ هَذَيْنِ يَوْمَانِ، نهى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، عن صِيَامِهِمَا؛ يَوْمُ فِطْرِكُمْ من صِيَامِكُمْ، وَالْآخَرُ يَوْمٌ تَأْكُلُونَ فيه من نُسُكِكُمْ). [2]

صيام الست من شوال

اقتضت حكمة الله تعالى أن يشرع للمسلمين إنهاء شهر رمضان الذي فرض عليهم صيامه بعبادة أخرى، لكنها من نوع آخر، ألا وهي عيد الفطر، الذي به يبتهجون، ويفرحون أن وفقهم ربهم جل وعلا لصيام شهر، ويأتي تشريع عيد الفطر منسجماً مع ما وُعِد به الصائمون من الفرح بالفطر، فقال صلى الله عليه وسلم: (لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا؛ إذا أَفْطَرَ فَرِحَ، وإذا لَقِيَ رَبَّهُ، فَرِحَ بِصَوْمِهِ). [3]

---

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى.
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم.

فالصائم يفرح بفطره مع غروب شمس أيام صيامه، ويفرح به في العيد مع اكتمال صوم شهره، ويصبو لأن يفرح بصيامه حين يلقى ربه، فيفوز بجزاء الله الموعود، وهو القائل سبحانه كما في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن ربه، أنه قال: (الصِّيَامُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا).[1]

ولما كانت الحسنة بعشر أمثالها، فإن حاصل أيام الشهر مضروبة بعشر تساوي ثلاثمائة يوم، فيبقى لصيام العام خمسة وستون، وقد جاءت السنة النبوية بالحث على إتباع صيام رمضان بصيام ستة أيام من شوال، ليكتمل بذلك صيام العام على وجه التقدير والتقريب، فعن أبي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: من صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا من شَوَّالٍ، كان كَصِيَامِ الدَّهْرِ).[2]

وهذا الكرم الرباني في مضاعفة ثواب الصائم يتماشى مع قاعدة مضاعفة أجر الحسنات، حيث يقول الله تعالى: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}.[3]

وعن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (إذا أَحْسَنَ أحدكم إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا، تُكْتَبُ له بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إلى سبع مائة ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا، تُكْتَبُ له بِمِثْلِهَا).[4]

وفي المقابل؛ فإن الذي يتهاون في صيام رمضان، فيفطر دون عذر شرعي، فإنه لو صام الدهر مقابل كل يوم أفطره فيه، لا يعوض الفضل الذي فاته بإفطاره يوم كان المسلمون يصومون، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ: (من أَفْطَرَ يَوْمًا من رَمَضَانَ من غَيْرِ عُذْرٍ، ولا مَرَضٍ، لم يَقْضِهِ صِيَامُ الدَّهْرِ، وَإِنْ صَامَهُ، وَبِهِ قال ابن مَسْعُودٍ، وقال سَعِيدُ بن الْمُسَيَّبِ، وَالشَّعْبِيُّ، وابن جُبَيْرٍ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَقَتَادَةُ،

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم.
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتْبَاعاً لرمضان.
3. الأنعام: 160.
4. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء.

وَحَمَّادٌ، يَقْضِي يَوْمًا مَكَانَهُ).[1]

التوفيق بين العيد والواجبات الأخرى

التطبيقات من السنة النبوية لمبدأ ساعة وساعة كثيرة، منها أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يؤدي متطلبات العيد ومقتضياته، لكنه في الآن نفسه لم يكن يغفل عن أداء الواجبات الأخرى، بمعنى أنه لم يشرع الاستغراق حتى في اللهو المباح، والاسترخاء المتضمن في نفحات العيد، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قال: (كان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَخْرُجُ يوم الْفِطْرِ وَالأَضْحَى، إلى الْمُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلَاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ الناس، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ على صُفُوفِهِمْ، فَيَعِظُهُمْ وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كان يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قَطَعَهُ، أو يَأْمُرَ بِشَيْءٍ، أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ).[2]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يؤدي نسك العيد، ويشارك المسلمين بهجتهم به، وعيناه تطلعان إلى عزة أمته، وانتصار دعوته، حتى إنه كان يتطرق لذلك في خطبة العيد، وأعقاب صلاته، وكان يأخذ الإجراءات اللازمة لذلك من بعث السرايا والجيوش، في دلالة واضحة على قمة اليقظة والاستعداد.

حكم من أكل أو شرب ناسياً أو مخطئاً خلال نهار الصيام

قد يفيد التنويه في هذا التوقيت الذي يشرع المسلمون فيه بأداء صيام الست من شوال، تطوعاً في أعقاب عيدهم بعد صيامهم رمضان، أن من تناول شيئاً من الطعام أو الشراب ناسياً في أثناء الصيام يستمر في صيامه، ولا يؤثر ذلك على صحة صيامه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا نَسِيَ، فَأَكَلَ وَشَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ،

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان.
2. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.

فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ).[*]

وهذا الحكم يشمل الذي يصوم رمضان أو تطوعاً، فكلاهما في هذا الحكم سواء، ولا صحة لما يتداوله بعض الناس من أن الناسي في صيام التطوع ليس مشمولاً بالعفو، وأن عليه القضاء، والحقيقة أنه مثل الذي يصوم رمضان، أطعمه الله وسقاه، ويكمل صومه، ولا قضاء عليه.

أما بالنسبة إلى الذي يأكل أو يشرب قاصداً، وليس ناسياً، كأن يأكل أو يشرب بعد طلوع الفجر ظاناً أنه لم يبزغ، وكذلك بالنسبة إلى الذي يأكل في المساء قبل تحقق غروب الشمس، فهذان إذا تحقق وقوعهما في مثل هذين الخطأين يجب على كل منهما قضاء يوم مكان كل يوم تحقق وقوع الخطأ فيه، وذلك أخذاً بالأحوط من آراء العلماء في هذه المسألة، وهذا الحكم يشمل أيضاً الذي يصوم الفرض والتطوع.

سائلين الله العلي القدير أن يهدينا إلى التفقه في ديننا، والعمل بسنة نبينا، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسياً.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يبشر المؤمنين بخيرات رمضان

عن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل رَمَضَانُ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ).(*)

بضعة أيام تفصلنا عن استقبال أول أيام شهر رمضان المبارك لهذا العام، والمسلمون في أنحاء الدنيا كافة، عادة ما يترقبون قدوم هذا الشهر الفضيل بشغف ولهفة، فالحديث الشريف أعلاه يخبر عن فضل خاص بقدوم رمضان، يتلخص في فتح أبواب الجنة، وغلق أبواب جهنم، وتصفيد الشياطين، وفي شرح الحديث عن القاضي عياض، قال: يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته، وأن فتح أبواب الجنة، وإغلاق أبواب النار، وتصفيد الشياطين علامة للملائكة لدخول الشهر، وتعظيم لحرمته، ويكون التصفيد ليمنعوا من إيذاء المؤمنين، والتهويش عليهم، ويحتمل أنه على المجاز؛ ويكون إشارة إلى كثرة الثواب والعظم، وأن الشياطين يقل إغواؤهم وإيذاؤهم، فيصيرون كالمصفدين، ويكون تصفيدهم عن أشياء دون أشياء، لناس دون ناس، ويحتمل أن يكون فتح أبواب الجنة عبارة عما يفتحه الله لعباده من الطاعات في هذا الشهر، التي لا تقع في غيره عموماً؛ كالصيام، والقيام، وفعل الخيرات، والانكفاف عن كثير من المخالفات، وهذه أسباب لدخول الجنة، وأبواب لها، وكذلك تغليق أبواب النار، وتصفيد الشياطين، عبارة عما ينكفون عنه من المخالفات.

ورجح ابن المنير الأخذ بظاهر الحديث وحقيقته، وقال: لا ضرورة تدعو إلى صرف اللفظ عن ظاهره، وكذا رجحه القرطبي، وقال: فإن قيل، فكيف نرى الشرور والمعاصي واقعة في رمضان كثيراً، فلو صفدت الشياطين لم يقع ذلك؟ فالجواب أنها تغل عن الصائمين الصوم، الذي حوفظ على شروطه، وروعيت آدابه، والمصفد بعض الشياطين، وهم المردة، لا كلهم،

* صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.

والمقصود تقليل الشرور فيه، وهذا أمر محسوس، فإن وقوع ذلك فيه أقل من غيره، أو لا يلزم من تصفيد جميعهم ألا يقع شر ولا معصية؛ لأن لذلك أسباباً غير الشياطين؛ كالنفوس الخبيثة، والعادات القبيحة، والشياطين الإنسية.[1]

غفران ذنوب الصائم المحتسب

نعم؛ يستعد المسلمون كعادتهم في كل عام لاستقبال شهر رمضان، بحب وشوق شديدين، رغم أنه يعني بالنسبة إليهم تحمل أعباء خاصة في نهارهم وليلهم، فيمتنعون عن تناول الشراب والطعام والمفطرات الأخرى من بزوغ فجر كل يوم من أيامه، حتى مغيب شمسه، آملين الفوز بالغفران، الذي وعدوه، حسب قوله، صلى الله عليه وسلم: (**من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ**).[2]

ويتقاطر المسلمون في ليالي رمضان إلى المساجد لأداء صلاة العشاء جماعة، ثم يقتفون سنة نبيهم، صلى الله عليه وسلم، بالقيام بصلاة خاصة تعرف بصلاة التراويح، نسبة إلى جلسة الراحة التي يجلسونها بين كل أربع ركعات، والتي تليها من صلاة القيام، الذي وعد أصحابه بالمغفرة، كما جاء في قوله، صلى الله عليه وسلم: (**من قام رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ**).[3]

فرحتا الصائم

عطفاً على تبشير الصائم المحتسب بالغفران، فإن له فرحتين، حيث قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (**...لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا؛ إذا أَفْطَرَ فَرِحَ، وإذا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ**).[4]

قال القرطبي: معناه فرح بزوال جوعه وعطشه، حيث أبيح له الفطر، وهذا الفرح طبيعي، وهو السابق للفهم، وقيل: إن فرحه بفطره، إنما هو من حيث إنه تمام صومه، وخاتمة عبادته،

1. تنوير الحوالك: 1/ 228.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان.
4. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم.

وتخفيف من ربه، ومعونة على مستقبل صومه، ويعقب ابن حجر العسقلاني على هذه المعاني قائلاً: ولا مانع من الحمل على ما هو أعم مما ذكر، ففرح كل أحد بحسبه لاختلاف مقامات الناس في ذلك، فمنهم من يكون فرحه مباحاً، وهو الطبيعي، ومنهم من يكون مستحباً، وهو من يكون سببه شيئاً مما ذكره. أما بالنسبة إلى فرحه بصومه إذا لقي ربه: أي بجزائه وثوابه، وقيل الفرح الذي عند لقاء ربه، إما لسروره بربه، أو بثواب ربه على الاحتمالين، ويرجح ابن حجر المعنى الثاني، إذ لا ينحصر الأول في الصوم، بل يفرح حينئذ بقبول صومه، وترتب الجزاء الوافر عليه.[1]

خلوف فم الصائم

من الأمور التي يحسن التذكير بها في معرض الحديث عن خيرات الصيام، تهيئة النفوس لقبول ما ينتج عن الصيام من آثار على بدن الصائم، وإفرازاته، فالامتناع عن الطعام والشراب، ليس بالأمر السهل، وقد تترتب عليه آثار من الهزل، والإعياء، وجفاف الحلق والفم، وربما قد تنبعث روائح من الفم؛ بسبب فراغ المعدة من الطعام، أو ما شابه ذلك، وقد نبه صلى الله عليه وسلم إلى هذه الجوانب، لكنه عمل على إقناع الصائمين بقبولها على اعتبار ما سيتبعها من ثواب، كون الصيام لله تعالى، والمعاناة بسببه تُجزى من معين الكرم الإلهي الفياض، ففي الحديث الصحيح: (... **وَالَّذِي نَفْسِي بيده؛ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى من رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ، وَشَرَابَهُ، وَشَهْوَتَهُ من أَجْلِي، الصِّيَامُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا**)[2]، فالرائحة التي تنبعث من فم الصائم قد تزعج صاحبها، أو من يخالطه، لكنها تنقلب يوم القيامة إلى جائزة مميزة، حين تعبق برائحة المسك، بل أطيب منها، ولا يبعد عن هذا الوعد ما بشر به الشهيد أو المصاب بجراح في سبيل الله تعالى من أنه يأتي يوم القيامة، وجراحه تشخب بلون الدم، لكن الروائح المنبعثة، روائح مسك.

1. فتح الباري: 4/ 118.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم.

باب الريان في الجنة للصائمين

ومن خيرات رمضان أن للصائمين باباً خاصاً في الجنة، اسمه الريان، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا، يُقَالُ له الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ منه الصَّائِمُونَ يوم الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ لَا يَدْخُلُ منه أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فإذا دَخَلُوا أُغْلِقَ، فلم يَدْخُلْ منه أَحَدٌ).[1]

قيل: إنما قال في الجنة، ولم يقل للجنة، ليشعر بأن في الباب المذكور من النعيم والراحة ما في الجنة، فيكون أبلغ في التشويق إليه، أو لبيان أن باب الريان، غير الأبواب الثمانية التي للجنة، وفي الجنة أيضاً أبواب أُخر، غير الثمانية، منها: باب الصلاة، وباب الجهاد، وباب الصدقة.[2]

الصَّلاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ مكفرات

على درب مغفرة ذنوب الصائمين والقائمين، فإن الصيام يكفر الذنوب والخطايا، متضافراً بذلك مع الصلاة والصدقة، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ، وَمَالِهِ، وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالصَّدَقَةُ...).[3]

فالسيئات تكفرها الحسنات، التي تتصدرها العبادات الكبرى، ومنها الصيام الذي هو جُنّة؛ أي وقاية وسترة من المعاصي.

وفي المقابل؛ فإن الذي يقصر في الصيام، فيفطر دون عذر، فإن خيراً وافراً يفوته، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ: (من أَفْطَرَ يَوْمًا من رَمَضَانَ من غَيْرِ عُذْرٍ، ولا مَرَضٍ، لم يَقْضِهِ صِيَامُ الدَّهْرِ، وَإِنْ صَامَهُ).[4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.
2. عمدة القاري: 10 /262.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم كفارة.
4. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان.

فهذه بعض خيرات رمضان الثابتة التي يجدر التذكير بها مع قرب حلوله ضيفاً عزيزاً مكرماً في رحاب أهل الإيمان ومساجدهم، وبيوتهم، وأكنافهم كلها، فهنيئاً للصائمين جزاؤهم، مع الذين أنعم الله عليهم من الذين استقاموا على دينهم، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، مصداقاً لقوله جلّ شأنه: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}.(*)

سائلين الله العلي القدير أن يبلّغنا رمضان، وأن يعيننا على حسن صيامه وقيامه، لنفوز بالغفران المبين، كما وعدنا الله جلّ في علاه، ورسوله الأمين، صلى الله عليه، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* البقرة: 112.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يربط ثواب الصائم بحسن سلوكه

قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: قال الله عز وجل: (كُلُّ عَمَلِ بن آدَمَ له إلا الصِّيَامَ، فإنه لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، فإذا كان يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فلا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ، ولا يَسْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أو قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إني امْرُؤٌ صَائِمٌ ...).[1]

في هذا الحديث القدسي يروي، صلى الله عليه وسلم، عن الله تعالى ما يشير إلى الرباط الوثيق بين أداء العبادة، وهي هنا الصوم، وبين سلوك العابد، حيث بيّنَ أن الصوم جُنَّة؛ أي وقاية، وسترة، ومانع من الرفث والآثام، ومانع أيضاً من النار[2]، ثمَّ جاء النهي عن اقتراف بعض المثالب السلوكية، ذكر منها الرفث، والسخب، والسباب، وقوله: (فلا يرفث)، معناه لا يفحش، والمراد به هنا الكلام الفاحش، ويطلق على الجماع، وعلى مقدماته، وعلى ذكره مع النساء، ويحتمل أن يكون النهي عما هو أعم منها.[3]

والسخب يرد بالسين والصاد، وهو الصياح، وقيل: إن في هذه الرواية تصحيفاً، وإن كان لها معنى.[4]

والصياح والصراخ من منكرات اللسان، التي ذمها الله تعالى أشد ذم، فعلى لسان لقمان خلال وعظه ابنه يقول سبحانه: {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[5]، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يخص الصائم في حديثه أعلاه بالتحذير من الصخب، وكأن المراد أن الصخب مذموم بعامة، ومن الصائم بخاصة، وكذلك السباب،

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 8/ 30 - 31.
3. عمدة القاري: 10/ 258.
4. صحيح مسلم بشرح النووي: 31/8.
5. لقمان: 19.

وهو الشتم، فصدوره من الناس بعامة مذموم، ومن الصائم أشد ذماً.

وقد أمر الله تعالى الصائم أن يقول: (إني امْرُؤٌ صَائِمٌ) بدلاً من الرد على الشتائم، أو المخاصمة بمثليهما، وفي عمدة القاري أن العلماء اختلفوا في طريقة هذا الرد من الصائم على ثلاثة أقوال، أحدهما أن يقول ذلك بلسانه، إني صائم؛ حتى يعلم من يجهل أنه معتصم بالصيام عن اللغو والرفث والجهل.

والثاني: أن يقول ذلك لنفسه؛ أي وإذا كنت صائماً، فلا ينبغي أن أخدش صومي بالجهل ونحوه، فيزجر نفسه بذلك.

والقول الثالث: التفرقة بين صيام الفرض والنفل، فيقول ذلك بلسانه في الفرض، ويقوله لنفسه في التطوع.

وقوله: (فليقل) قال الكرماني: أي كلاماً لسانياً ليسمعه الشاتم والمقاتل، فينزجر غالباً، أو كلاماً نفسانياً، أي يحدث به نفسه ليمنعها من مشاتمته، وعند الشافعي يجب الحمل على كلا المعنيين.

وفيه أيضاً أن كلَّ أحد منهي عن الرفث والجهل والمخاصمة، لكن النهي في الصائم آكد، قال الأوزاعي: يفطر السب والغيبة، فقيل: معناه أنه يصير في حكم المفطر في سقوط الأجر، لا أنه يفطر حقيقة، انتهى كلامه، فإن قيل قاتله أو شاتمه من باب المفاعلة، وهي للمشاركة بين الاثنين، والصائم مأمور بالكف عن ذلك، فالرد أنه لا يمكن حمله على أصل الباب، ولكنه قد يجيء بمعنى فعل يعني لنسبة الفعل إلى الفاعل، لا غير.(*)

صيام المزَوِر

من مثالب السلوك الذي ينبغي للصائم التحرز عنه، الزور والبهتان، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (من لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ

* عمدة القاري: 10 /258.

وَشَرَابَهُ).[1]

فالزور والبهتان من الأمور السلوكية التي حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، الصائم من اقترافها، فبالزور يختلط الحابل بالنابل، وتضيع الحقوق والحقائق، ويعيش الناس في متاهة فقدان الثقة ببعض، حين يعم أمورهم الزور، فلا يدرون الصدق من الكذب، ولا الحق من الباطل، فالمزور كاذب، دربه معبد بالفسق والفجور، مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتى يَكُونَ صِدّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابا).[2]

فالصيام يتنافى مع الزور والكذب، ويتوافق مع سلوك الصدق، فالذي يمسك عن تناول الطعام والشراب في نهار الصيام، وهما من المباحات أصلاً في غيره من الأيام، ينبغي له أن يروض نفسه على الإمساك الدائم عن المحرمات السلوكية، فيكف عن الكذب، والزور، والبهتان، وما شابه ذلك.

الجود والكرم في رمضان

لا ينحصر نهي الصائم عن سوء السلوك، والعمل بالشتم والسب والصخب وقول الزور وعمله، وإنما يشمل النهي كل ما يندرج تحت مفهوم الأخلاق الذميمة، والقيم السلوكية، كالكذب، والغش، والخيانة، وفي المقابل، فإن سلوكات أخرى فاضلة وكريمة، برز التشجيع على التحلي بها خلال شهر رمضان، ومن ذلك الجود والكرم، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، كان الأسوة في منح الجود مزيداً من العناية في رمضان، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، أَجْوَدَ الناس بِالْخَيْرِ، وكان أَجْوَدُ ما يَكُونُ

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.

2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} (التوبة: 119)، وما ينهى عن الكذب.

في رَمَضَانَ حين يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكان جِبْرِيلُ، عليه السَّلام، يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ في رَمَضَانَ حتى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، الْقُرْآنَ، فإذا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ، عليه السَّلام، كان أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ).[1]

ومما لا شك فيه أن الفقراء والمحتاجين يدركون عمق الحاجة إلى عون الميسورين من إخوانهم في رمضان، وهذا ما يكون فعلاً، حيث يتجلى تطبيق صور البذل والعطاء والعون في رمضان في أبهى الصور، وبخاصة أن ديننا الحنيف خص رمضان بفرض صدقة فريدة من نوعها، إذ إن صدقة الفطر تجب على النفوس، وليس على الأموال، وتجب على رب العائلة عن نفسه وعمن يعول، وتلك من المعززات الحميدة لربط الصيام بسلوك الصائم، الذي يعبر من خلال جوده وكرمه عن تحليه بقيم الجود والإحسان، والشعور مع بؤس الآخرين وفاقتهم.

وبشكل عام، فإن الصيام يهذب السلوك بمناحيه المختلفة، حتى إن السلوك الجنسي يؤدي الصيام دوراً في تهذيبه، فعن عبد اللهِ، رضي الله عنه، قال: كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: (من اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فإنه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لم يَسْتَطِعْ، فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فإنه له وِجَاءٌ)[2]، كما أن المسلم الصائم يتودد إلى أهل بيته ويلاطفهم، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (إن كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لَيُقَبِّلُ بَعْضَ أَزْوَاجِهِ، وهو صَائِمٌ، ثُمَّ ضَحِكَتْ)[3]، وليس كما يسلك بعض الصائمين مع أهلهم ومخالطيهم من صور العنف والقسوة بحجة توتر الأعصاب بسبب الصيام، وهو من ذلك براء.

فهذه عينة مما تيسر الوقوف عندها من أدلة وشواهد الربط بين عبادة الصيام، وسلوك مؤديها. فالصائم ينبغي له أن يراعي المحافظة على الانضباط بحسن السلوك، ليستفيد من

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يكون في رمضان.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب القبلة للصائم.

مدرسة الصيام في تهذيب سلوكه، ولينال أجر صيامه غير منقوص، كما أنه بهذا يعطي صورة مشرقة وحسنة عن الإسلام والمسلمين، وكم من الناس الذين يبنون مواقفهم واتجاهاتهم تجاه الأفكار والعقائد جراء التأثر بما يلمسون من حامليها ومعتنقيها، وخير مثال على ذلك دخول أعداد وافرة من الناس في الإسلام بعد انطباعاتهم الحسنة التي أخذوها عن الإسلام، من خلال ما لمسوه من أخلاق المسلمين، وحسن سلوكهم ولطف تعاملهم، وعلى العكس تماماً، فإن التنفير من الإسلام، يحصل تبعاً لسوء سلوك بعض المسلمين، كما يحصل الآن حين يجسد هؤلاء المنفرات البشعة من الإسلام في سلوكهم المنحرف عن جادة الحق والصواب والسماحة والرحمة، وغير ذلك من القيم التي جاء بها الإسلام، أو أكد عليها.

أعاننا الله تعالى على حسن عبادته، والعمل بهداه وسنة نبينا المختار، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يرشد الصائمين إلى سننه في الصيام وبعض آدابه وأحكامه ـ الحلقة الأولى

يكلف الله تعالى المؤمنين بالاقتداء بالرسول، صلى الله عليه وسلم، فقال جل شأنه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً}[1]، وهذا التكليف الرباني يعم أمورهم جميعها، فيشمل معاملاتهم، وعباداتهم، وعلاقاتهم، وقد أمر الله المؤمنين بالأخذ عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم {... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.[2]

ومن الأمور التعبدية التي ينبغي للمؤمنين العابدين الأخذ بها عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، الصوم، فهو الذي أكد أمر الله به، وبين تفاصيل أدائه، وأحكامه، وآدابه، ومن خلال مراجعة كتب السنة النبوية الصحيحة، يمكن الوقوف عند تفاصيل ذلك، التي منها:

بدء الصيام والانتهاء منه برؤية الهلال

قد يكون من خير البدء في مثل هذا الموضوع التذكير بكيفية الشروع بالصوم، والوقت المشروع لذلك، فقد ثبت أن البدء بالصوم يكون بعد ثبوت رؤية هلال شهر رمضان، فعن عبد اللهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، ذَكَرَ رَمَضَانَ، فقال: (لا تَصُومُوا حتى تَرَوْا الْهِلالَ، ولا تُفْطِرُوا حتى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ، فَاقْدُرُوا له).[3]

ولا يخالف أحد من المسلمين السالفين واللاحقين في اعتماد هذا المعيار لبداية شهر الصوم وانتهائه، وإنما يمكن أن يقع الاختلاف حول آليات إثبات رؤية الهلال، بين معتبر

---

1. الأحزاب: 21.
2. الحشر: 7.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا).

للرؤية البصرية بالعين المجردة فحسب، وبين من يستعين بتقنيات مساعدة مثل المناظير والتلسكوب، وبين معتمد على الحساب الفلكي، أو المستأنس به مع الرؤية. لكن المسلمين قاطبة يجمعون على اعتماد معيار تولد هلال الشهر، كبداية للشهر في أوله، ونهاية له في آخره، حين يثبت تولد هلال الشهر الذي يليه، وهذا المعيار أكد على اعتماده الرسول، صلى الله عليه وسلم، في أحاديثه الصحيحة المتعلقة بهذه المسألة، والتي منها قوله، صلى الله عليه وسلم: (الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً، فلا تَصُومُوا حتى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ، فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ). [1]

الحث على السحور وتأخيره

من السنن اليومية التي يراعي الصائم العمل بها تناوله وجبة السحور، فعن أَنَسَ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (**تَسَحَّرُوا؛ فإن في السَّحُورِ بَرَكَةً**).[2]

والمراد بالسحور هنا هو ما يتناوله من يريد الصوم من طعام وشراب وقت السحر، الذي يسبق فترة الفجر، والرسول، صلى الله عليه وسلم، حث على تناول السحور، معللاً هذا الحث بأن السحور بركة، أي أن الله تعالى يبارك للمتسحر بما يتناوله، فيعينه على تحمل معاناة الإمساك عن تناول المفطرات خلال نهار الصوم، وقد أشارت كثير من الإرشادات الصحية إلى فوائد السحور، الذي لا يلزم أن يكون متخماً بأنواع الطعام والشراب، بل قد تقوم بسد حاجته بعض تمرات وكأس من ماء، والذين يتخلون عن تناول السحور، يفقدون بركته الموعودة.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، حث على تأخير السحور، ليكون قريباً من وقت أذان الفجر، فعن زَيْدِ بن ثَابِتٍ، رضي الله عنه، قال: (**تَسَحَّرْنَا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قام**

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا).

2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب.

إلى الصَّلاةِ، قلت: كَمْ كان بين الْأَذَانِ وَالسَّحُورِ؟ قال: قَدْرُ خَمْسِينَ آيَةً).[1]

وعن سَهْلِ بن سَعْدٍ، رضي الله عنه، قال: (كنت أَتَسَحَّرُ في أَهْلِي، ثُمَّ تَكُونُ سُرْعَتِي أَنْ أُدْرِكَ السُّجُودَ، مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم).[2]

وفي هذا توجيه للصائمين بعامة، وللذين يسهرون على اللهو، ثم يتناولون طعاماً، ثم ينامون، ولا يقومون لتناول السحور في وقته المفضل، بل إن بعضهم يفوته أداء صلاة الفجر في موعدها الشرعي، بسبب الاستغراق في النوم على إثر طول السهر الذي يقضونه في متابعة اللهو أو فعله، ولا شك أن الذين يقعون بمثل هذا الخطأ يفوتهم خير كثير، ومن ذلك بركة السحور، وثواب صلاة الفجر جماعة.

الوقت بين آذاني الفجر والإمساك

في ظل الحديث عن تأخير السحور، وانتقاد تبكيره، تحسن الإشارة إلى الفترة الزمنية التي يسن أن تكون بين أذاني الفجر الأول والثاني، ومعلوم أن الأذان الأول يطلق عليه أيضاً الإمساك، لكن من يريد الصيام، يباح له الأكل والشرب بعده، إلى أن يرفع أذان الفجر، الذي قصده الرسول، صلى الله عليه وسلم، بأذان ابن أم مكتوم، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها: أَنَّ بِلالاً كان يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (كُلُوا وَاشْرَبُوا، حتى يُؤَذِّنَ ابن أُمِّ مَكْتُومٍ؛ فإنه لَا يُؤَذِّنُ حتى يَطْلُعَ الْفَجْرُ، قال الْقَاسِمُ: ولم يَكُنْ بين أَذَانِهِمَا إلا أَنْ يَرْقَى ذَا، وَيَنْزِلَ ذَا).[3]

وهذا المراد من أذان الإمساك، الذي تثبت مواعيده في التقاويم الرمضانية التي يسميها كثير من الناس إمساكيات، لكن بعض الناس يظن أن المراد بذلك تحريم تناول المفطرات بعد أذان الإمساك، والحقيقة ليست كذلك، إنما المنع يكون مع بدء أذان الفجر الذي يليه،

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قدر كم بين السحور وصلاة الفجر.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب تأخير السحور.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا يمنعنكم من سحوركم أذان بلال).

وفترة الإمساك عادة ما تكون تهيئة للإمساك، مع التنبيه هنا إلى أن الامتناع عن تناول المفطرات يبدأ سريان مفعوله بمجرد البدء بأذان الفجر، لا حتى ينتهي المؤذن منه، تماماً كما يحصل عند الإفطار حيث يبدأ الصائمون بالفطر بعد النطق بلفظ التكبير الأول في أذان المغرب، ولا ينتظرون حتى ينتهي المؤذن من الأذان.

تعجيل الفطر

بخلاف السحور الذي يسن للصائم أن يؤخره إلى قبيل أذان الفجر، فإن الفطور يسن تعجيله، فرسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ).(*)

وليس المراد بذلك تناول وجبة الإفطار كاملة، بل يحصل الفطر بتناول أقل شيء من المفطرات، فيمكن أن يتم ذلك بأكل تمرة، أو شرب كأس من الماء، وبذلك يحصل الإفطار، والمفضل صحياً ودينياً أن يتناول الصائم بعد البدء بأذان المغرب تمرة أو أكثر، ويشرب كأساً من ماء، ثم يذهب إلى أداء صلاة المغرب، ثم يعود لتناول وجبة الإفطار الرئيسة؛ لأنه بذلك يكون قد عاد عن صيامه تلك الساعات الطويلة، رويداً رويداً، فيعطي جسمه ومعدته فرصة لامتصاص الغذاء السريع المتمثل في التمر والماء؛ تمهيداً للعودة المتدرجة والمتأنية إلى حال الإفطار، وهذا مجمع على فوائده الصحية للجسم، وتتلاشى به سلبيات العودة الفورية لتناول ما هب ودب من الطعام والشراب، دون تهيئة الجسم لذلك، مع التنبيه أيضاً إلى ضرورة الاعتدال في تناول الطعام والشراب بعد الإفطار، حتى لا يثقل الجسم به، ويصاب بالتخمة، وغير ذلك من المضار الصحية التي تؤثر في نشاط الإنسان، وقدرته على الحركة، وبخاصة أن بانتظاره قيام ليل رمضان، وأداء صلاة التراويح، وذلك يتطلب همة ونشاطاً، وليس خمولاً وتخمة، تحد من القدرة على الحركة، وتحمل أعباء الصلاة والقيام والاستيعاب، من هنا تجد المتخمين يتأففون من صلاة التراويح، وينتقدون إمامها إن لم يسرع في قراءته

* صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب تعجيل الإفطار.

وركوعه وسجوده، حتى إن خللاً يقع في السكينة والطمأنينة والخشوع جراء الإسراع، وكأن وراء المصلين وإمامهم من يطاردهم بعصا أو وحش.

فهذه بعض الإرشادات المستوحاة من التوجيهات القرآنية والنبوية فيما يتعلق ببعض سنن الصيام وآدابه وأحكامه، آملين أن يوفق الله جل شأنه إلى متابعة الوقوف عند المزيد منها في الحلقة القادمة، وسائلين الله العلي القدير أن يعيننا على أداء الصيام إرضاءً لله تعالى، واحتساباً لوجهه الكريم، ووفق منهج نبينا الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

تعرضت الحلقة السابقة لبعض أحكام الصيام وآدابه في ضوء القرآن الكريم وسنة النبي، صلى الله عليه وسلم، فبينت أن بدء الصيام والانتهاء منه يكونان برؤية الهلال، وأشارت إلى حث النبي، صلى الله عليه وسلم، على تناول السحور وبيان فضل تأخيره، والوقت بين أذاني الفجر والإمساك، كما تعرضت إلى بيان فضل تعجيل الفطر، وتتابع هذه الحلقة الوقوف عند قضايا ومسائل أخرى على هذا الصعيد، وبخاصة فيما يتعلق بالمعاشرة بين الزوجين في رمضان، والمراد بالخيطين الأبيض والأسود، والكفارة التي تلزم الذي يجامع امرأته في نهار رمضان.

المعاشرة الزوجية في رمضان

بداية لا بد من التأكيد على أن الله تعالى أباح المعاشرة الجنسية بين الزوجين في ليالي رمضان، ومنعها خلال نهار الصيام، وذلك تخفيفاً على الصائمين، حيث كان تحريم المعاشرة يشمل ساعات الليل والنهار، فلما شق ذلك على الناس، نزل التشريع الرباني المخفف، والذي سمح بموجبه بها في الليل دون النهار، وفي هذا يقول جل شأنه: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}.(*)

فواضح أن الآية الكريمة تتحدث عن وضعين أحدهما أُبطل، وأُقر الآخر، وفي الحديث

* البقرة: 187.

الصحيح ما يبين ذلك، فعن الْبَرَاءَ، رضي الله عنه، قال: (لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ، كَانُوا لَا يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ، رَمَضَانَ كُلَّهُ، وكان رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ الله: {عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ}).[1]

فمن الصعوبات التي كانت في بداية العهد بالصيام، والتي يسرت فيما بعد، تلك التي يحدث عنها مفصلاً الصحابي الْبَرَاءِ، رضي الله عنه، حيث قال: (كان أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ، صلى الله عليه وسلم، إذا كان الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الْإِفْطَارُ، فَنَامَ قبل أَنْ يُفْطِرَ، لم يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ، ولا يَوْمَهُ حتى يُمْسِيَ، وَإِنَّ قَيْسَ بن صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيَّ، كان صَائِمًا، فلما حَضَرَ الْإِفْطَارُ، أتى امْرَأَتَهُ، فقال لها: أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قالت: لَا، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ، فَأَطْلُبُ لك، وكان يَوْمَهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فلما رَأَتْهُ، قالت: خَيْبَةً لك، فلما انْتَصَفَ النَّهَارُ، غُشِيَ عليه، فَذُكِرَ ذلك لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، فَنَزَلَتْ هذه الْآيَةُ: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ} فَفَرِحُوا بها فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ من الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ}).[2]

ومما يستفاد من هذا الحديث الشريف أن الصحابة، رضي الله عنهم، تعبر مواقفهم وتصرفاتهم عن تساوق مع الطبيعة البشرية، والفطرة التي خلق الله الناس عليها، فهم يحتاجون إلى المعاشرة الجنسية، كما يحتاجون إلى الطعام والشراب، لكنهم يمتنعون عن ذلك، حين يتطلب الحكم الشرعي ذلك، ويمارسون المعاشرة، ويتناولون الطعام والشراب عندما يشرع لهم بذلك.

ففي البداية كان الامتناع عن المعاشرة الجنسية بين الأزواج في ليالي رمضان ونهاره، لكن

---

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ ...} (البقرة:187)

2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول الله جل ذكره: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... }(البقرة:187)

ذلك شق عليهم، حتى إن بعضهم كان يلجأ إليها مخالفاً، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة بلفظ {تَخْتانُونَ} وفي تفسير الآية الكريمة أعلاه جاء أن قوله تعالى: {تَخْتانُونَ} أي تأكلون وتجامعون بعد النوم في رمضان. {فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنكُمْ}؛ أي غفر ما وقعتم فيه من ذلك، وقيل رفع عنكم ذلك الحكم، وقوله: {بَاشِرُوهُنَّ} يفيد الإباحة، وليس الوجوب والإلزام، وقوله: {مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ} قيل: الولد يبتغى بالجماع، وقيل: الرخصة في الأكل والجماع لمن نام في ليل رمضان بعد منعه. {مِنَ الْفَجْرِ} بيان للخيط الأبيض لا للأسود؛ لأن الفجر ليس له سواد، والخيط هنا استعارة، يراد بالخيط الأبيض بياض الفجر، وبالخيط الأسود سواد الليل. وروي أن قوله {مِنَ الْفَجْرِ} نزل بعد ذلك بياناً لهذا المعنى؛ لأن بعضهم جعل خيطاً أبيضَ وخيطاً أسودَ تحت وسادته، وأكل حتى تبين له. [1]

الخيطان الأبيض والأسود

ورد في تحديد المراد بالخيطين الأسود والأبيض أحاديث صحيحة تبين مفهومهما، فعن سَهْلِ بن سَعْدٍ، رضي الله عنه، قال: (أُنْزِلَتْ: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ من الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ} ولم يَنْزِلْ: {من الْفَجْرِ} فَكَانَ رِجَالٌ إذا أَرَادُوا الصَّوْمَ، رَبَطَ أَحَدُهُمْ في رِجْلِهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ، وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ، ولم يَزَلْ يَأْكُلُ حتى يَتَبَيَّنَ له رُؤْيَتُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ بَعْدُ: {من الْفَجْرِ} فَعَلِمُوا أَنَّهُ إنما يَعْنِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ).[2]

وعن عَدِيٍّ، رضي الله عنه، قال: (أَخَذَ عَدِيٌّ عِقَالًا أَبْيَضَ، وَعِقَالًا أَسْوَدَ، حتى كان بَعْضُ اللَّيْلِ، نَظَرَ فلم يَسْتَبِينَا، فلما أَصْبَحَ قال: يا رَسُولَ اللهِ؛ جَعَلْتُ تَحْتَ وِسَادِي عقالين، قال: إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 1 /72.

2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول الله تعالى: {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}(البقرة: 187).

لَعَرِيضٌ، أَنْ كان الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ تَحْتَ وِسَادَتِكَ).[1] وفي رواية أنه سأله عنهما، فقال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا، إن أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ، ثُمَّ قال: لَا بَلْ هو سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ).[2]

والوساد والوسادة المخدة، والجمع وسائد ووسد، وعريض القفا، كناية عن السمن، وقيل: أراد من أكل مع الصبح في صومه أصبح عريض القفا؛ لأن الصوم لا يؤثر فيه، ويقال: يكنى عن الأبله بعريض القفا.[3]

كفارة الجماع للصائم

قد تضعف إرادة الصائم كإنسان خلق ضعيفاً، فيرتكب ما حرم الله عليه، وقد يحصل هذا في المعاشرة الجنسية بين الزوجين، كما حصل لأحد الصحابة وزوجه، فعن عَبَّادِ بن عبد الله ابن الزُّبَيْرِ، أخبره أَنَّهُ سمع عَائِشَةَ، رضي الله عنها، تَقُولُ: (إِنَّ رَجُلًا أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: إنه احْتَرَقَ، قال: ما لك؟ قال: أَصَبْتُ أَهْلِي في رَمَضَانَ، فَأُتِيَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِمِكْتَلٍ يُدْعَى الْعَرَقَ، فقال: أَيْنَ الْمُحْتَرِقُ؟ قال: أنا، قال: تَصَدَّقْ بِهذا).[4]

وفي رواية عن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ، فقال: يا رَسُولَ الله؛ هَلَكْتُ، قال: ما لك؟ قال: وَقَعْتُ على امْرَأَتِي، وأنا صَائِمٌ، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: هل تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟ قال: لَا، قال: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟ قال: لَا ، فقال: فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟ قال: لا، قال: فَمَكَثَ

---

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ}(البقرة: 187).
2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، {وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ}(البقرة: 187).
3. عمدة القاري: 10/ 293.
4. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان.

النبي، صلى الله عليه وسلم، فَبَيْنَا نَحْنُ على ذلك، أُتِيَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِعَرَقٍ فيها تَمْرٌ، وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ، قال: أَيْنَ السَّائِلُ؟ فقال: أنا، قال: خذها، فَتَصَدَّقْ بِهِ، فقال الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يا رَسُولَ الله، فَوَاللهِ ما بين لَابَتَيْهَا يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ، أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ من أَهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قال: أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ).(*)

فالمخرج في حالة وقوع جرم انتهاك حرمة الصيام في نهار رمضان بالجماع، هو الاستغفار، والتوبة، وإخراج الكفارة، التي بينها الحديث الشريف بوضوح، وهي كفارة مشددة حددها الشرع، فلا ينبغي التهاون فيها.

فهذه إرشادات وأحكام أخرى مستوحاة من التوجيهات القرآنية والنبوية فيما يتعلق ببعض أحكام الصيام وآدابه وسننه، آملين أن يوفق الله جل شأنه إلى متابعة الوقوف عند المزيد منها في الحلقة القادمة، وسائلين الله العلي القدير أن يعيننا على أداء الصيام إرضاء لله تعالى، واحتساباً لوجهه الكريم، ووفق منهج نبينا الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر.

تعرضت الحلقة السابقة لبعض أحكام الصيام وآدابه في ضوء القرآن الكريم وسنة النبي، صلى الله عليه وسلم، فبينت حكم المعاشرة الزوجية في رمضان، وأنها مباحة في الليل محرمة في النهار، ووضحت الكفارة التي تلزم الصائم الذي يجامع امرأته في رمضان، وبينت معنى الخيطين الأبيض والأسود، وتواصل هذه الحلقة الوقوف عند مزيد من الأحكام والسنن الرمضانية، وذلك في ضوء أسئلة بعض الناس عنها، والتي منها حكم الْمُبَاشَرَةِ لِلصَّائِمَ والقبلة، وتأثير الجنابة على صحة الصيام، وعن مدى حاجة المرأة التي تصوم رمضان إلى استئذان زوجها لصيامها.

الْمُبَاشَرَةِ لِلصَّائِمِ والقبلة

من الأحكام الشرعية التي روعي فيها حال المكلف، المُبَاشَرَةِ لِلصَّائِمَ والقبلة، فمن تأكد أن تقبيل امرأته ومداعبتها لن يقوداه إلى إفساد صومه بمعاشرتها وجماعها أو نزول المني منه، فلا بأس له أن يصنع ذلك، ومن خاف أن لا يضبط نفسه، وأنه معرض لاحتمال أن يضعف فيفعل المحظور، فلا يحل له التقبيل المباح أصلاً لولا هذا المانع، من هنا قرن حكم التقبيل والمباشرة للصائم بمدى القدرة على التحكم في ضبط النفس، ومارس صلى الله عليه وسلم، التقبيل وهو صائم؛ لما كان لديه من قوة، وملكة لضبط نفسه، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (**كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يُقَبِّلُ وَيُبَاشِرُ وهو صَائِمٌ، وكان أَمْلَكَكُمْ لِإِرْبِهِ، وقال: قال ابن عَبَّاسٍ: {مَآرِبُ}**(طه:18) حاجة، **قال طَاوُسٌ: {غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ}**(النور:31)، **الأَحْمَقُ لَا حَاجَةَ له في النِّسَاءِ**).(*)

* صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب المباشرة للصائم.

فإذا قبَّل الصائم امرأته أو داعبها خلال نهار الصيام، ولم ينزل منهما مني، فصيامهما صحيح، أما إذا نزل المني، فإنه يفسد الصيام، ويلزم من حصل له ذلك قضاء يوم مكانه، مع التوبة والاستغفار؛ كونه انتهك حرمة الصيام بفعل لولا تماديه فيه، ما حصل المحظور، أما المجامعة في نهار رمضان فقد بينت كفارتها في الحلقة السابقة.

الصَّائِم يُصْبِحُ جُنُبًا

من أصبح جنباً، في رمضان، ولم يتمكن من الاغتسال قبل الفجر؛ أي دخل عليه وقت الصيام، وهو على غير طهارة، فصيامه صحيح؛ لأن الطهارة ليست شرطاً لصحة الصيام، وإنما هي مشروطة لصحة الصلاة، فعن عَائِشَةَ، وَأُمَّ سَلَمَةَ، رضي الله عنهما، (**أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، كان يُدْرِكُهُ الْفَجْرُ، وهو جُنُبٌ من أَهْلِهِ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ، وَيَصُومُ**).[1]

وينسحب هذا الحكم كذلك على من طهرت من نفاس، أو حيض، قبل الفجر، ولم تغتسل إلا بعده، فصيامها صحيح، والذي يفسد الصيام، هو حدوث الحيض، أو النفاس، أو الجنابة المفتعلة بالإرادة في نهار الصوم، أما الجنابة التي يمكن أن تحدث بسبب احتلام صائم، وهو نائم، فلا تفسد صومه، وفي الأحوال جميعها ينبغي للمسلم والمسلمة الحرص على الطهارة البدنية لمصلحة صلاته، التي لا تصح إلا بها، والتراخي في التطهر، قد يفوت أداء الصلاة في وقتها، والله تعالى أمر بأداء الصلاة على وقتها، فقال تعالى: {...**إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً**}.[2]

وأداء الصلاة على وقتها من أحب الأعمال إلى الله تعالى، فقد سُئِل النبي، صلى الله عليه وسلم: (**أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إلى الله؟ قال: الصَّلاةُ على وَقْتِهَا، قال: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، قال: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال: الْجِهَادُ في سَبِيلِ الله**).[3]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصائم يصبح جنباً.
2. النساء: 103.
3. صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها.

المرأة تصوم رمضان دون حاجة إلى استئذان زوجها

لما كانت المرأة مكلفة بصيام الفرض مثل الرجل، فإنه لا يلزمها استئذان زوجها في أدائه، لكن صيام النافلة والتطوع يلزمها فيه استئذان الزوج، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رَسُول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ، وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إلا بِإِذْنِهِ...).[1]

وعن النووي أن هذا الحكم محمول على صوم التطوع والمندوب، الذي ليس له زمن معين، وهذا النهي للتحريم، وسببه أن الزوج له حق الاستمتاع بها في الأيام كلها، وحقه فيه واجب على الفور، فلا يفوته بتطوع، ولا بواجب على التراخي، فإن قيل فينبغي أن يجوز لها الصوم بغير إذنه، فإن أراد الاستمتاع بها، كان له ذلك، ويفسد صومها، فالجواب أن صومها يمنعه من الاستمتاع في العادة؛ لأنه يهاب انتهاك الصوم بالإفساد وقوله، صلى الله عليه وسلم: (وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ)؛ أي مقيم في البلد، أما إذا كان مسافراً، فلها الصوم؛ لأنه لا يتأتى منه الاستمتاع، إذا لم تكن معه.[2]

وهذا الحكم الشرعي يدل على مراعاة متطلبات الحاجات البشرية، ومقتضيات الغرائز الفطرية، في إطار المباحات الشرعية، من غير خضوع للعنت والمشقة، التي يفرضها بعض الناس عليهم، وعلى نسائهم، أو العكس، تفرضها بعض النساء على أزواجهن دون حق، والرسول، صلى الله عليه وسلم، توعد التي يطلبها زوجها إلى فراشه فتمتنع وترفض، فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إلى فِرَاشِهِ، فَأَبَتْ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عليها، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حتى تُصْبِحَ).[3]

---

1. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لا تأذن المرأة في بيتها لأحد إلا بإذنه.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 7/ 115.
3. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه.

السواك وفرشاة الأسنان للصائم

يجوز للصائم استخدام السواك خلال صيامه، فعن عَامِرِ بن رَبِيعَةَ قال: (رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، يَسْتَاكُ وهو صَائِمٌ، ما لَا أُحْصِي، أو أَعُدُّ).[1]

ويقاس على استخدام السواك فرشاة الأسنان، شريطة التحرز التام من بلع شيء من معجون الأسنان، أو الماء المستخدم خلال عملية تنظيف الأسنان بالفرشاة. وإن كان الأولى أن يكون هذا الاستخدام قبل أذان الفجر، من باب الاحتياط.

صيام المسافر أو فطره

أباح الله للمسافر أن يفطر في رمضان، على أن يقضي الأيام التي أفطر فيها بسبب السفر فيما بعد، وليس الإفطار واجباً على المسافر، وإنما هي رخصة شرعت للتخفيف والتيسير، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، (أَنَّ حَمْزَةَ بن عَمْرٍو الْأَسْلَمِيَّ، قال لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم: أَأَصُومُ في السَّفَرِ؟ وكان كَثِيرَ الصِّيَامِ، فقال: إن شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ).[2]

وعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، قال: (كنا نُسَافِرُ مع النبي، صلى الله عليه وسلم، فلم يَعِبْ الصَّائِمُ على الْمُفْطِرِ، ولا الْمُفْطِرُ على الصَّائِمِ).[3]

فالمسألة تتعلق بالعزيمة والرخصة، والله يحب أن تؤتى رخصه،كما يحب أن تؤتى عزائمه، مع الإشارة إلى أن بعض الفقهاء يفضلون الأخذ بالعزيمة بالنسبة إلى الإفطار بسبب السفر. والرسول، صلى الله عليه وسلم، أخذ برخصة الفطر في رمضان، بسبب السفر، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (خَرَجَ إلى مَكَّةَ في رَمَضَانَ، فَصَامَ

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب سواك الرطب واليابس للصائم.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم في السفر والإفطار.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب لم يعب أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، بعضهم بعضاً في الصوم والإفطار.

حتى بَلَغَ الْكَدِيدَ، أَفْطَرَ، فَأَفْطَرَ الناس، قال أبو عَبْد الله: وَالْكَدِيدُ مَاءٌ بين عُسْفَانَ وَقُدَيْدٍ).[1]

وعن أبي الدَّرْدَاءِ، رضي الله عنه، قال: (خَرَجْنَا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في بَعْضِ أَسْفَارِهِ في يَوْمٍ حَارٍّ، حتى يَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ على رَأْسِهِ من شِدَّةِ الْحَرِّ، وما فِينَا صَائِمٌ، إلا ما كان من النبي، صلى الله عليه وسلم، وابن رَوَاحَةَ).[2]

والتخيير بين الأخذ برخصة الإفطار، أو عزيمة الصيام، إنما يكون في الأحوال العادية، أما في حال العسر الشديد، والمشقة المهلكة، فالإفطار يقدم، فقد كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في سَفَرٍ، فَرَأَى زِحَامًا، وَرَجُلًا قد ظُلِّلَ عليه، فقال: (ما هذا؟ فَقَالُوا: صَائِمٌ، فقال: ليس من الْبِرِّ الصَّوْمُ في السَّفَرِ).[3]

فهذه إرشادات وأحكام أخرى مستوحاة من التوجيهات النبوية والقرآنية فيما يتعلق ببعض سنن الصيام وآدابه وأحكامه، سائلين الله العلي القدير أن يتقبل صيامنا، مع الذين أنعم عليهم بصحبة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا صام أياماً من رمضان ثم سافر.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب منه.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم، لمن ظلل عليه واشتد الحر: (ليس من البر الصوم في السفر)

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يعظم الشعائر والحرمات

خَرَجَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ، حتى كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ خَالِدَ بن الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ، فَوَاللهِ ما شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ، حتى إذا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان بِالثَّنِيَّةِ، التي يُهْبَطُ عليهم منها بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فقال الناس: حَلْ حَلْ، فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ، خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: ما خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ، وما ذَاكَ لها بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قال: وَالَّذِي نَفْسِي بيده، لا يسألوني خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيها حُرُمَاتِ الله، إلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا ...).[1]

يؤكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث الشريف على عمق تقديره وتعظيمه لحرمات الله، قال الخطابي: معنى تعظيم حرمات الله في هذه القصة ترك القتال في الحرم، والجنوح إلى المسالمة، والكف عن إراقة الدماء.[2]

وورد في شرح هذا الحديث أن كلمة (حَلْ) تقال للناقة إذا تركت السير، وقوله: (فَأَلَحَّتْ) بتشديد الحاء؛ أي تمادت على عدم القيام، وهو من الإلحاح، وقوله: (خَلأَتْ الْقَصْوَاءُ)؛ أي بركت وما وقفت.

و(القصواء) بفتح القاف، اسم ناقة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقيل: كان طرف أذنها مقطوعاً، والقصو قطع طرف الأذن، يقال: بعير أقصى، وناقة قصوى، وزعم الداودي أنها كانت لا تسبق، فقيل لها القصواء؛ لأنها بلغت من السبق أقصاه.

وقوله: (وما ذَاكَ لها بِخُلُقٍ) أي بعادة.[3]

1. صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.
2. فتح الباري: 5 /336.
3. فتح الباري: 5/ 335.

وقوله: (لا يسألوني خُطَّةً) بضم الخاء أي خصلة، وقوله: (يُعَظِّمُونَ فيها حُرُمَاتِ اللهِ)؛ أي من ترك القتال في الحرم، ووقع في رواية ابن إسحاق (يسألوني فيها صلة الرحم)، وهي من جملة حرمات الله، وقيل: المراد بالحرمات حرمة الحرم، والشهر، والإحرام، وردَّ ابن حجر على الإحرام، وقال: وفي الثالث نظر؛ لأنهم لو عظموا الإحرام ما صدوه، وقوله: (إلا أعطيتهم إياها)؛ أي أجبتهم إليها.[1]

مواطن ذكر لفظ الحرمات في القرآن الكريم

كلمة حرمات لم تذكر في القرآن الكريم سوى مرتين، إحداهما في الآية 194 من سورة البقرة، والأخرى في الآية 30 من سورة الحج.

يقول الله تعالى: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[2]، ومعنى الحرمات هنا جمع حرمة، والحرمة ما منع من انتهاكه.[3]

وفي تفسير الكشاف أنه لما قاتل المشركون المسلمين عام الحديبية في الشهر الحرام، وهو ذو القعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء، وكراهتهم القتال، وذلك في ذي القعدة {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ}؛ أي هذا الشهر بذلك الشهر، وهتكه بهتكه، يعني تهتكون حرمته عليهم، كما هتكوا حرمته عليكم.

{وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}؛ أي وكل حرمة يجري فيها القصاص من هتك حرمة؛ أي حرمة كانت اقتص منه بأن تهتك له حرمة، فحين هتكوا حرمة شهركم، فافعلوا بهم نحو ذلك، ولا تبالوا.[4]

وعن ابن شهاب أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى عمرة القضاء، مستعداً بالسلاح

1. فتح الباري: 5/ 335 - 336، وعمدة القاري: 14/ 7.
2. البقرة: 194.
3. التفسير الكبير: 5/ 115.
4. الكشاف: 1 /263.

والمقاتلة؛ خشية أن يقع من قريش غدر، فبلغهم ذلك، ففزعوا، فلقيه مكرز، فأخبره أنه باق على شرطه، وأن لا يدخل مكة بسلاح إلا السيوف في أغمادها، وإنما خرج في تلك الهيئة احتياطاً، فوثق بذلك، وأخر النبي، صلى الله عليه وسلم، السلاح مع طائفة من أصحابه خارج الحرم حتى رجع.[1]

ويقول تعالى: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ}[2]، {ذلك} أي الأمر ذلك، يعني ما ذكر من أعمال الحج.

وقوله تعالى: {وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ}؛ أي معاصي الله، وما نهى عنه، وتعظيمها ترك ملابستها، قال الليث: حرمات الله ما لا يحل انتهاكها، وقال الزجاج: الحرمة ما وجب القيام به، وحرم التفريط فيه، وذهب قوم إلى أن معنى الحرمات ها هنا المناسك، بدليل ما يتصل بها من الآيات، وقوله: {فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ}، أي تعظيم الحرمات خير له عند الله في الآخرة.[3]

مواطن ذكر لفظ شعائر في القرآن الكريم

كلمة شعائر وردت في القرآن الكريم في أربعة مواضع، وذلك في الآية 158 من سورة البقرة. وفي الآية الثانية من سورة المائدة، وفي الآية 32 من سورة الحج، وفي الآية 36 منها. يقول الله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}.[4]

وفي الآية الثانية من سورة المائدة، نهى الله تعالى المؤمنين عن استباحة حرمة شعائر الله تعالى، فقال جلَّ شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا...}.[5]

---

1. فتح الباري: 7/ 499 - 500.
2. الحج: 30.
3. تفسير البغوي: 3/ 285 - 286.
4. البقرة: 158.
5. المائدة: 2.

ويقول عز وجل: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ}.[1]

ويقول رب العزة: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ...}.[2]

وقد اختلف أهل التأويل في تفسير المراد بالشعائر في قوله تعالى: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ} فجاء في تفسير الطبري أنها شعائر الحج، وهي الأماكن التي ينسك عندها لله.[3]

جريمة انتهاك حرمات الله وشعائره

توعد الله الذين ينتهكون حرمات الله ومنها حرمات البيت الحرام بالعذاب الأليم، فقال عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}.[4]

المؤمنون وعلى رأسهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، يحفظون حرمات الله، ويحذرون من تجاوزها، وقد أكد الرسول، صلى الله عليه وسلم، حرصه على تعظيم حرمات الله، في موقفه يوم الحديبية، حيث قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بيده لَا يسألونني خُطَّةً، يُعَظِّمُونَ فيها حُرُمَاتِ الله، إلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا)، والسلف الصالح حرصوا على حفظ حرمة بيت الله الحرام، فعن عبد الله ابن عمر أنه كان له فسطاطان؛ أحدهما في الحل، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، فذكر له ذلك فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: لا والله، وبلى والله.[5]

هذا هو حال الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم من الصالحين، تجاه تعظيم حرمات الله وشعائره، بينما المشركون حالهم مختلف، فهم الذين كانوا

1. الحج: 32.
2. الحج: 36.
3. تفسير الطبري: 17/ 158 - 159.
4. الحج: 25.
5. الكشاف: 3/ 152.

يغيرون مواقع الأشهر الحرم؛ ليستبيحوا القتال خلالها، وقد أطلق الله على فعلهم هذا مسمى (النسيء) الذي وصف بالكفر بنص آي القرآن الكريم، حيث قال تعالى: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلّونَهُ عَاماً وَيُحَرّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ الله زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}.(*)

من هنا؛ يتبين مقام المؤمنين حيال حفظ حرمات الله وشعائره وحدوده، بينما المشركون والكافرون والفاسقون ينتهكون تلك الحرمات والحدود والشعائر، على مر الزمان، وفي مختلف المواقع والمواقف، سائلين الله العلي القدير أن يوفقنا لنكون من الحافظين حدوده وشعائره، على درب رسولنا، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* التوبة: 37.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

وشعيرة الطواف بالصفا والمروة ـ الحلقة الأولى

عن عُرْوَة، قال: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، رضي الله عنها، فقلت لها: (أَرَأَيْتِ قَوْلَ الله تَعَالَى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أو اعْتَمَرَ فلا جُنَاحَ عليه أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} فَوَ الله ما على أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لا يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، قالت: بِئْسَ ما قُلْتَ يا ابن أُخْتِي، إِنَّ هذه لو كانت كما أَوَّلْتَهَا عليه، كانت لا جُنَاحَ عليه أَنْ لا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا، وَلَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ في الأَنْصَارِ، كَانُوا قبل أَنْ يُسْلِمُوا، يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ، التي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ، فَكَانَ من أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فلما أَسْلَمُوا سَأَلُوا رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، عن ذلك، قالوا: يا رَسُولَ الله؛ إِنَّا كنا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بين الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ الله} الْآيَةَ. قالت عَائِشَةُ، رضي الله عنها، وقد سَنَّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا.

ثُمَّ أَخْبَرْتُ أَبَا بَكْرِ بن عبد الرحمن، فقال: إِنَّ هذا لَعِلْمٌ ما كنت سَمِعْتُهُ، وَلَقَدْ سمعت رِجَالاً من أَهْلِ الْعِلْمِ، يَذْكُرُونَ أَنَّ الناس إلا من ذَكَرَتْ عَائِشَةُ، مِمَّنْ كان يُهِلُّ بِمَنَاةَ، كَانُوا يَطُوفُونَ كلهم بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فلما ذَكَرَ الله تَعَالَى الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ، ولم يذكر الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ في الْقُرْآنِ، قالوا: يا رَسُولَ الله؛ كنا نَطُوفُ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَإِنَّ الله أَنْزَلَ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ، فلم يذكر الصَّفَا، فَهَلْ عَلَيْنَا من حَرَجٍ أَنْ نَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ الله} الْآيَةَ، قال أبو بَكْرٍ: فَأَسْمَعُ هذه الْآيَةَ نَزَلَتْ في الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا في الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بِالْجَاهِلِيَّةِ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالَّذِينَ يَطُوفُونَ، ثُمَّ تَحَرَّجُوا أَنْ يَطُوفُوا بِهِمَا في الْإِسْلَامِ، من أَجْلِ أَنَّ الله تَعَالَى أَمَرَ بِالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ، ولم يذكر الصَّفَا، حتى ذَكَرَ ذلك بَعْدَ ما ذَكَرَ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ).(*)

يتضح من هذه الرواية الصحيحة أن للطواف بالصفا والمروة قصة ونظرة في الإسلام، تختلفان عنهما في الجاهلية قبل مجيء الإسلام، حتى إن بعض الناس كعروة بن الزبير،

* صحيح البخاري، كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله.

التبس عليه الأمر، فظن أن النص القرآني الخاص برفع الحرج عن الطائفين بالصفا والمروة من المعتمرين والحجاج، يعني أن الطواف بهما ليس بواجب، لكن خالته عائشة، رضي الله عنها، صححت له هذا الفهم ببيان أن المراد برفع الحرج عن الطائفين بهما، يرتبط بسبب نزول قوله تعالى:{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}[1]، وهي الآية القرآنية الوحيدة التي ذكرت الصفا والمروة، وقد أُنْزِلَتْ كما جاء في حديث عروة المثبت أعلاه في الْأَنْصَارِ، كَانُوا قبل أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ التي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ، فَكَانَ من أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فلما أَسْلَمُوا، سَأَلُوا رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، عن ذلك، قالوا: يا رَسُولَ الله، إِنَّا كنا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بين الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ الله}.

ومن الروايات الصحيحة التي تؤكد ما ذهبت إليه عائشة، رضي الله عنها، من تأويل للمراد برفع الحرج عن الطائفين بالصفا والمروة، ما روي عن عَاصِمٌ، قال: قلت لِأَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه: (أَكُنْتُمْ تَكْرَهُونَ السَّعْيَ بين الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؟ قال: نعم؛ لِأَنَّهَا كانت من شَعَائِرِ الْجَاهِلِيَّةِ، حتى أَنْزَلَ الله: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ اللَّهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أو اعْتَمَرَ، فلا جُنَاحَ عليه أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}).[2]

وبالإضافة إلى هذا التوضيح للفرق بين السعي بينهما في الجاهلية وبينه في الإسلام، فقد بيّن الرسول، صلى الله عليه وسلم، غاية مهمة من غايات تشريع السعي بين الصفا والمروة، وتتمثل في ممارسة نوع من الحرب النفسية ضد المشركين، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (إنما سَعَى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بِالْبَيْتِ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؛ لِيُرِيَ الْمُشْرِكِينَ قُوَّتَهُ)[3]

1. البقرة: 158.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب ما جاء في السعي بين الصفا والمروة.
3. التخريج نفسه.

الصفا والمروة والمسافة بينهما

أصل الصفا في اللغة الحجر الأملس، وهو هنا جبل بمكة معروف، وكذلك المروة جبل أيضاً ولذلك أخرجهما بلفظ التعريف، وقال الشعبي: كان على الصفا صنم يسمى إسافاً وعلى المروة صنم يدعى نائلة، وذلك زمن الجاهلية.[1]

والمسافة بين الصفا والمروة تبلغ 395 متراً،[2] وبين الميلين الأخضرين 70 متراً.

طائفة من أحكام السعي بين الصفا والمروة

من أحكام السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة في ضوء ما ورد بشأنه في السنة النبوية، ما يأتي:

حكمه

السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة، عند جمهور العلماء، ومن الأدلة التي يستندون إليها في ذلك، ما ورد على لسان عائشة، رضي الله عنها، في حديث عروة، رضي الله عنه، سالف الذكر، حيث قالت: (وقد سَنَّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا).[3]

وهو واجب عند الحنفية ورأي للحنابلة، يجبر تركه بدم.

كيف يسعى الحجاج والمعتمرون بين الصفا والمروة؟

يبدأ الساعي بين الصفا والمروة من الصفا باتجاه المروة، فإذا وصلها يكون قد أتم شوطاً، ثم يعود من المروة إلى الصفا، فإذا وصل يكون قد أتم شوطاً ثانياً، ويسير على هذا النحو حتى ينهي الشوط السابع، وتكون النهاية عند المروة بعكس البدء الذي كان من الصفا، وفي صفة السعي الواردة عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، جاء أنه (خَرَجَ من الْبَابِ إلى الصَّفَا، فلما دَنَا من الصَّفَا، قَرَأَ: (إِنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ الله)، أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ الله بِهِ، فَبَدَأَ

1. تفسير القرطبي: 2/ 179.
2. هشام دهيش، حدود الصفا والمروة، 1429هـ.
3. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله.

بِالصَّفَا، فَرَقِيَ عليه، حتى رَأَى الْبَيْتَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَوَحَّدَ الله وَكَبَّرَهُ، وقال: لَا إِلَهَ إلا الله، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، له الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وهو على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، ثُمَّ دَعَا بين ذلك، قال: مِثْلَ هذا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ نَزَلَ إلى الْمَرْوَةِ، حتى إذا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ في بَطْنِ الْوَادِي، سَعَى حتى إذا صَعِدَتَا مَشَى، حتى أتى الْمَرْوَةَ، فَفَعَلَ على الْمَرْوَةِ، كما فَعَلَ على الصَّفَا).[1]

لا تشترط الطهارة له

بخلاف الطواف حول البيت الذي تشترط لصحته الطهارة الكاملة، فإنها لا تشترط للسعي بين الصفا والمروة، فهو كان خارج المسجد، ثم ضم إليه لاحقاً، وفي صحيح البخاري، بَاب تَقْضِي الْحَائِضُ الْمَنَاسِكَ كُلَّهَا، إلا الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ، وإذا سَعَى على غَيْرِ وُضُوءٍ بين الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وفيه عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أنها قالت: (**قَدِمْتُ مَكَّةَ وأنا حَائِضٌ، ولم أَطُفْ بِالْبَيْتِ، ولا بين الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، قالت: فَشَكَوْتُ ذلك إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: افْعَلِي كما يَفْعَلُ الْحَاجُّ، غير أَنْ لا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حتى تَطْهُرِي**)[2]، ومع ذلك؛ فإن السعي على طهارة كاملة يبقى أفضل من دونها.

فهذه تأملات في بعض نواحي السعي بين الصفا والمروة، آملين متابعة الوقوف عند المزيد منها في الحلقة القادمة، ونسأل الله العلي القدير أن يفقهنا وحجاج بيته الحرام في دينه حتى نعبده على الوجه الذي يرضيه، ويوافق سنة نبينا، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي، صلى الله عليه وسلم.
2. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت، وإذا سعى على غير وضوء بين الصفا والمروة.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

وشعيرة الطواف بالصفا والمروة الحلقة الثانية والأخيرة

تعرضت الحلقة السابقة إلى ذكر سبب نزول الآية القرآنية الوحيدة التي ذكرت الصفا والمروة، وبينت خلفية تسميتهما، والمسافة بينهما، ووقفت عند طائفة من أحكام السعي بين الصفا والمروة في ضوء ما ورد بشأنه في السنة النبوية، وظهر أنه ركن من أركان الحج والعمرة، عند جمهور العلماء، وهو واجب عند الحنفية ورأي للحنابلة، يجبر تركه بدم. ثم وضحت الحلقة كيف يسعى الحجاج والمعتمرون بين الصفا والمروة؟ وتتابع هذه الحلقة الوقوف عند بعض متعلقات السعي بين الصفا والمروة، وخلفيته.

ربط التحلل من إحرام العمرة به

أعمال العمرة وأركانها محدودة، والسعي بين الصفا والمروة من أركانها، وقد ربط جمهور الفقهاء التحلل منها بأدائه، فعن عَمْرِو بن دِينَارٍ، قال: (**سَأَلْنَا ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، عن رَجُلٍ طَافَ بِالْبَيْتِ فِي عُمْرَةٍ، ولم يَطُفْ بين الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ: أَيَأْتِي امْرَأَتَهُ؟ فقال: قَدِمَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ، فَطَافَ بين الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ سَبْعًا، {لقد كان لَكُمْ فِي رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، وَسَأَلْنَا جَابِرَ بن عبد الله، رضي الله عنهما، فقال: لَا يَقْرَبَنَّهَا حتى يَطُوفَ بين الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ**).(*)

الركض هرولة بين الميلين

يمشي الساعي بين الصفا والمروة مشياً عادياً، إلا أنه يسن له أن يسرع المشي، ليصبح أشبه بالركض ـ هرولة ـ بين الميلين الأخضرين المنارين باللون الأخضر في الجهة العلوية من المسعى في الجانبين.

---

* صحيح البخاري، كتاب الحج، باب ما جاء في السعي بين الصفا والمروة.

مع التنبيه إلى أن حكم الهرولة هنا سنة، وليست واجبة، وهي خاصة بالرجال القادرين، دون الضعفاء والنساء.

سعي العمرة والحج

للعمرة سعي بعد الطواف، وللحج سعي واحد لمن حج مفرداً أو قارناً إن أداه بعد طواف القدوم، لا يلزمه سعي آخر بعد طواف الإفاضة-الزيارة- وعند الحنفية يجب على القارن أن يسعى سعين، أحدهما للعمرة والآخر للحج، أما بالنسبة إلى المتمتع، فيسعى سعيين، أحدهما للعمرة بعد طوافها، والآخر للحج، بعد طواف الإفاضة.

فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: (أَنَّهُ سُئِلَ عن مُتْعَةِ الْحَجِّ، فقال: أَهَلَّ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَأَزْوَاجُ النبي، صلى الله عليه وسلم، في حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَأَهْلَلْنَا، فلما قَدِمْنَا مَكَّةَ، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: اجْعَلُوا إِهْلَالَكُمْ بِالْحَجِّ عُمْرَةً، إلا من قَلَّدَ الْهَدْيَ، فطفنا بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَأَتَيْنَا النِّسَاءَ، وَلَبِسْنَا الثِّيَابَ، وقال: من قَلَّدَ الْهَدْيَ، فإنه لَا يَحِلُّ له حتى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ، ثُمَّ أَمَرَنَا عَشِيَّةَ التَّرْوِيَةِ، أَنْ نُهِلَّ بِالْحَجِّ، فإذا فَرَغْنَا من الْمَنَاسِكِ، جِئْنَا فَطُفْنَا بِالْبَيْتِ والصفا وَالْمَرْوَةِ، فَقَدْ تَمَّ حَجُّنَا، وَعَلَيْنَا الْهَدْيُ، كما قال الله تَعَالَى: {فما اسْتَيْسَرَ من الْهَدْيِ فَمَنْ لم يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ في الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إذا رَجَعْتُمْ} إلى أَمْصَارِكُمْ، الشَّاةُ تَجْزِي، فَجَمَعُوا نُسُكَيْنِ في عَامٍ بين الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فإن الله تَعَالَى أَنْزَلَهُ في كِتَابِهِ وَسَنَّهُ نَبِيُّهُ، صلى الله عليه وسلم، وَأَبَاحَهُ لِلنَّاسِ غير أَهْلِ مَكَّةَ، قال الله: (ذلك لِمَنْ لم يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَأَشْهُرُ الْحَجِّ التي ذَكَرَ الله تَعَالَى: شَوَّالٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحَجَّةِ، فَمَنْ تَمَتَّعَ في هذه الْأَشْهُرِ، فَعَلَيْهِ دَمٌ، أو صَوْمٌ، وَالرَّفَثُ الْجِمَاعُ، وَالْفُسُوقُ الْمَعَاصِي، وَالْجِدَالُ الْمِرَاءُ)(*).

سعي أم إسماعيل عليهما السلام

روى البخاري في صحيحه عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: أن (أَوَّلَ ما اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ

* صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: {ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام}(البقرة:196).

من قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا على سَارَةَ، ثُمَّ جاء بها إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حتى وضعهما عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بها مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فيه تَمْرٌ وَسِقَاءً فيه مَاءٌ، ثُمَّ قفى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فقالت: يا إِبْرَاهِيمُ؛ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهذا الْوَادِي الذي ليس فيه إِنْسٌ ولا شَيْءٌ؟ فقالت له ذلك مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فقالت له: آللهُ الذي أَمَرَكَ بِهذا؟ قال: نعم، قالت: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ.

فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حتى إذا كان عِنْدَ الثَّنِيَّةِ، حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فقال: {ربي إني أَسْكَنْتُ من ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عند بيتك المحرم} حتى بَلَغَ {يَشْكُرُونَ}، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ من ذلك الْمَاءِ، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقَاءِ، عَطِشَتْ، وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إليه يَتَلَوَّى، أو قال: يَتَلَبَّطُ.

فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إليه، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ في الأرض يَلِيهَا، فَقَامَتْ عليه، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ، تَنْظُرُ، هل تَرَى أَحَدًا، فلم تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ من الصَّفَا، حتى إذا بَلَغَتْ الْوَادِيَ، رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ، حتى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عليها، وَنَظَرَتْ هل تَرَى أَحَدًا، فلم تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذلك سَبْعَ مَرَّاتٍ، قال ابن عَبَّاسٍ: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: فَذَلِكَ سَعْيُ الناس بَيْنَهُمَا.

فلما أَشْرَفَتْ على الْمَرْوَةِ، سَمِعَتْ صَوْتًا، فقالت: صَهٍ تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فقالت: قد أَسْمَعْتَ إن كان عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فإذا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بعقبة، أو قال بِجَنَاحِهِ: حتى إذا ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ، وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ من الْمَاءِ في سِقَائِهَا، وهو يَفُورُ بَعْدَ ما تَغْرِفُ، قال ابن عَبَّاسٍ: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لو تَرَكَتْ زَمْزَمَ، أو قال: لو لم تَغْرِفْ من الْمَاءِ، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا، قال: فَشَرِبَتْ،

وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فقال لها الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فإن هَا هُنَا بَيْتَ الله يَبْنِي هذا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ الله لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ.

وكان الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا من الأرض كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عن يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حتى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ من جُرْهُمَ، أو أَهْلُ بَيْتٍ من جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ من طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا في أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هذا الطَّائِرَ لَيَدُورُ على مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهذا الْوَادِي، وما فيه مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أو جَرِيَّيْنِ، فإذا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا، فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ، فَأَقْبَلُوا، قال وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لنا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فقالت: نعم، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ في الْمَاءِ، قالوا: نعم، قال ابن عَبَّاسٍ: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: فَأَلْفَى ذلك أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الأنس، فَنَزَلُوا، وَأَرْسَلُوا إلى أَهْلِيهِمْ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حتى إذا كان بها أَهْلُ أَبْيَاتٍ منهم، وَشَبَّ الْغُلَامُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ منهم، وَأَنْفَسَهُمْ، وَأَعْجَبَهُمْ حين شَبَّ، فلما أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً منهم، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ).(*)

فللسعي بين الصفا والمروة الذي أضحى من أبرز شعائر الحج والعمرة ومناسكهما قصة معبرة، تجلت فيها آيات دالة على عظمة الخالق سبحانه وقدرته، فهو يحيي العظام وهي رميم، وجعل من الماء كل شيء حي، وهو سبحانه الذي أخرج في تلك البقعة الصحراوية القاحلة ماء بعد أن كانت قبله بلا زرع، وتلطف به إكراماً لأم إسماعيل وابنها وإنقاذاً لهما، بعد أن بلغ بهما من العطش إليه ما بلغهما، فيجدر بالذين يسعون بين الصفا والمروة أن يذكروا هذه الآية الربانية العظيمة، ويعززوا إيمانهم بيقين أن الله لن يضيعهم، وسيجعل لهم من الضيق مخرجاً، كما لم يضيع أم إسماعيل وابنها، وأوجد لهما مخرجاً باقية آثاره آية للعالمين، ونعمة لأهل مكة، ومن أتاها حاجاً ومعتمراً إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وصلى الله على رسوله محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب حديث الأنبياء، باب منه.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

وسنته في العيد والأضحية

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قال: (كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يَخْرُجُ يوم الْفِطْرِ وَالأَضْحَى إلى الْمُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ الناس، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ على صُفُوفِهِمْ، فَيَعِظُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كان يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قَطَعَهُ، أو يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ).[1]

من حكمة تشريع عيد الأضحى أنه يأتي بعد الوقوف بعرفة، وأداء معظم مناسك عبادة الحج، ومن مواعظه صلى الله عليه وسلم للناس يوم عيد الأضحى المبارك، بيانه أن الأضحية لا بدَّ أن تُذبح بعد صلاة العيد، فإن ذُبحت قبلها فهي لحم، لا نسك، فقد جاء في الحديث الصحيح المذكور آنفاً أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، خطب يوم الأَضْحَى بَعْدَ الصَّلاةِ، فقال: (من صلى صَلاتَنَا، وَنَسَكَ نُسُكَنَا، فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ، وَمَنْ نَسَكَ قبل الصَّلاةِ، فإنه قبل الصَّلاةِ، ولا نُسُكَ له)[2]، فمن الالتزام بأحكام الأضحية، التقيد بمواعيد الذبح، فقال عليه الصلاة والسلام: (فَمَنْ فَعَلَ ذلك، فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا)، ونبه من لا يتقيد بذلك إلى أن الذبيحة التي ذبحها يوم العيد قبل الصلاة، لا تقبل أضحية، فقال: (شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ)، وقال: (... وَمَنْ نَحَرَ قبل الصَّلاةِ، فَإِنَّمَا هو لَحْمٌ قَدَّمَهُ لأَهْلِهِ، ليس من النُّسُكِ في شَيْءٍ).[3] ويمتد وقت الذبح إلى آخر أيام التشريق، وهو اليوم الرابع بعد يوم الأضحى، ولا فرق بين من ذبح في ليل أو نهار.

ويلاحظ أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أجاب خلال خطبته للعيد عن أسئلة

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.
2. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم النحر.
3. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب الخطبة بعد العيد.

المستفسر حول أضحيته، فسمع أسئلته واستيضاحاته، وأجابه عن ذلك، ورد في بعض الروايات الصحيحة، ووضع الإمام البخاري في صحيحه باباً بعنوان، بَاب كَلامِ الإِمَامِ وَالنَّاسِ فِي خُطْبَةِ الْعِيدِ وإذا سُئِلَ الإِمَامُ عن شَيْءٍ، وهو يَخْطُبُ.

خروج النساء والصبيان لصلاة العيد ووعظهن فيه

لم يقتصر الرسول، صلى الله عليه وسلم، على وعظ الرجال في العيد، بل كان يخص النساء بمواعظه فيه، فعن أُمِّ عَطِيَّةَ، قالت: (كنا نُؤْمَرُ أَنْ نَخْرُجَ يوم الْعِيدِ، حتى نُخْرِجَ الْبِكْرَ من خِدْرِهَا، حتى نُخْرِجَ الْحُيَّضَ، فيَكُنَّ خَلْف الناس، فيُكَبِّرْنَ بِتَكْبِيرِهِمْ، وَيَدْعُونَ بِدُعَائِهِمْ، يَرْجُونَ بَرَكَةَ ذلك الْيَوْمِ وَطُهْرَتَهُ).[1]

وفي صحيح البخاري، بَاب خُرُوجِ النِّسَاءِ وَالْحُيَّضِ إلى الْمُصَلَّى، وفيه عن أُمِّ عَطِيَّةَ، قالت: (أَمَرَنَا نبينا، صلى الله عليه وسلم، بأن نُخْرِجَ الْعَوَاتِقَ، وَذَوَاتِ الْخُدُورِ، وَعَنْ أَيُّوبَ عن حَفْصَةَ بِنَحْوِهِ، وزاد في حديث حَفْصَةَ قال أو قالت: الْعَوَاتِقَ، وَذَوَاتِ الْخُدُورِ، ويعتزل الْحُيَّضُ المصلى). [2]

والمقصود بـ (الْعَوَاتِقَ) جمع عاتق وهي الجارية البالغة، أو التي قاربت البلوغ.[3]

ولعل الحكمة من حضور الرجال والنساء إلى مصلى العيد، هو اجتماع المسلمين، والاستماع إلى هدي النبي، عليه الصلاة والسلام، وهو عليه السلام الحريص على هداية الأمة، وتعليمها أحكام دينها.

وفي بَاب خُرُوجِ الصِّبْيَانِ إلى الْمُصَلَّى، عن عبد الرحمن بن عابس، قال: سمعت ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (خَرَجْتُ مع النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم فِطْرٍ أو أَضْحَى، فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ، ثُمَّ أتى النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُنَّ، وَذَكَّرَهُنَّ، وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ).[4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب التكبير أيام منى وإذا غدا إلى عرفة.
2. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى.
3. صحيح مسلم بشرح النووي: 6 /178.
4. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب خروج الصبيان إلى المصلى.

صلاة العيد والتطيب والابتهاج والأضحية فيه

الاغتسال والتطيب من سنن يوم العيد، وهما يعبران عن استشعار نعمة الله وشكره على التوفيق للطاعة، وإظهار الفرح بأداء العبادة، ولا شك أن المسلم يجب أن يحرص على حسن مظهره، ونقاء سريرته، وطهر طويته، كما كان من هديه عليه الصلاة والسلام أن يخرج لصلاة العيد ماشياً، ويعود إلى بيته ماشياً، وكان يخالف الطريق، فعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: (كان رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَخْرُجُ إِلَى الْعِيدِ مَاشِيًا، وَيَرْجِعُ مَاشِيًا).[1]

وكان عليه الصلاة والسلام إذا وصل إلى المصلى شرع في الصلاة من غير أذان ولا إقامة، وكان لا يصلي في مصلى العيد غير صلاة العيد، فإذا فرغ من الصلاة قام مقابل الناس، والناس جلوس على صفوفهم، يعظهم، ويوجههم، ويأمرهم، وينهاهم، وإن كان يريد بعثاً بعثه، أو يأمرهم بشيء أمر به، فإذا رجع إلى بيته صلى ركعتين.

وصلاة العيد كما صلاها النبي، صلى الله عليه وسلم، ركعتان يجهر فيهما بالقراءة، وكان يقرأ فيهما سورتي الأعلى والغاشية، أو يقرأ بقاف والقمر، كما أنه صلى الله عليه وسلم، كان يكبر في الركعة الأولى سبع تكبيرات، وفي الثانية خمس تكبيرات، وذلك قبل القراءة في الركعتين، لما روي عن عائشة، رضي الله عنها، (أَنَّ رَسُول الله، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يُكَبِّرُ فِي الْفِطْرِ وَالأَضْحَى فِي الأُولَى سَبْعَ تَكْبِيرَاتٍ، وَفِي الثَّانِيَةِ خَمْسًا).[2]

وفي هيئة أخرى للصلاة؛ كان يكبر ثلاثاً في الركعة الأولى قبل القراءة، وثلاثاً في الركعة الثانية بعد القراءة، إذ صلاة العيد لا تزيد عن ركعتين، وهي سنة مؤكدة واظب عليها النبي، صلى الله عليه وسلم، ولم يتركها.

يقول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: (صَلاَةُ الأَضْحَى رَكْعَتَانِ، وَصَلاَةُ الْفِطْرِ رَكْعَتَانِ، وَصَلاَةُ

1. سنن ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الخروج إلى العيد ماشياً، وحسنه الألباني.
2. سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب التكبير في العيدين، وصححه الألباني.

الْمُسَافِرِ رَكْعَتَانِ وصلاة الجمعة ركعتان تَمَامٌ ليس بقصرٍ عَلَى لِسَانِ النبي، صلى الله عليه وسلم).[1]

وبعد إتمام الصلاة؛ يقبل الإمام بوجهه على الناس، ويخطب خطبتين، يبدأهما بالحمد أو التكبير، لما روي عن البراء قال: (خَرَجَ النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ أَضْحَى إِلَى الْبَقِيعِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، وَقَالَ: إِنَّ أَوَّلَ نُسُكِنَا فِي يَوْمِنَا هَذَا، أَنْ نَبْدَأَ بِالصَّلاةِ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ وَافَقَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا هُوَ شيءٌ عَجَّلَهُ لأَهْلِهِ، لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ).[2]

والأضحية تنحصر في الأنعام من الإبل والبقر والغنم، فالشاة تكفي عن أهل بيت واحد، والبقر والإبل تكفي لسبعة بيوت، ويشترط في الأضحية السلامة من العيوب؛ كالعرج، والمرض، والعور، والهزال، وكذلك السن الشرعية، فإذا تعذر ذلك؛ فيجوز التضحية بالجذع، بحيث إذا خلط مع الكبار خفي، وينطبق هذا على الأنعام المسمنة من الغنم والبقر، إذ فيها وفرة اللحم، وهو من الحكم المشروعة في الأضحية التي هي شعيرة من شعائر الله، قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}[3]، وقال سبحانه: {لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ}.[4]

التهاني بالعيد

الرسول، صلى الله عليه وسلم، أراد للعيد أن يكون مُبْهِجَاً، وأَذِن فيه بالغناء المشروع، وبممارسة الألعاب الرياضية المشروعة ومشاهدتها فيه، ولم يوجه الناس للأحزان في العيد، ولا لتجديد ذكراها.

ويتبادل المسلمون التهاني بالعيد سواء عند لقائهم في المساجد والأماكن العامة، أم عند

1. سنن النسائي، كتاب صلاة العيدين، باب عدد صلاة العيدين، وصححه الألباني.
2. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب استقبال الإمام الناس في خطبة العيد.
3. الحج: 32.
4. الحج: 37.

القيام بالزيارات البيتية، وتلك عادة تتفق مع أهداف العيد وسنته، وورد في بعض كتب السنة النبوية أن أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، كانوا إذا التقوا يوم العيد يقول بعضهم لبعض: (تقبل الله منا ومنك)(*)، ولا يمنع هذا من التهنئة بالعيد بصيغ أخرى تتضمن الدعاء بالخير والبركة وما شابه.

ومن الخير صلة الأرحام في العيد، ذكوراً وإناثاً، وكذلك صلة ذوي الشهداء والأسرى، ومواساتهم في يوم العيد، لإشعارهم أنهم ليسوا وحدهم، وإنما لهم مساندون ومؤازرون من أبناء أمتهم.

تقبل الله طاعات عباده الصالحين، وجزاهم الجنة مع النبيين والصديقين، وأعاد الله هذا العيد على المسلمين وقد صلح حالهم، وتحرر مسرى نبيهم، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صححه الألباني في تمام المنة : 1 / 354.

الفصل الثالث
السيرة النبوية

الرسول الأسوة محمد صلى اللّه عليه وسلم		
.1	يذكر يوم مولده	126
.2	الصادق الأمين – الحلقة الأولى	131
.3	الصادق الأمين – الحلقة الثانية والأخيرة	136
.4	يبين فضل مدينته المنورة – الحلقة الأولى	141
.5	يبين فضل مدينته المنورة – الحلقة الثانية	146
.6	يبين فضل مدينته المنورة – الحلقة الثالثة	150
.7	يبين فضل مدينته المنورة – الحلقة الرابعة والأخيرة	155

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يذكر يوم مولده

عن أبي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، سُئِلَ عن صَوْمِ يَوْمِ الإثنين، قال: ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فيه، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ، أو أُنْزِلَ عَلَيَّ فيه ...).[1] يرد هذا الحديث الشريف على الذين يستنكرون استذكار يوم المولد النبوي، فهذا الاستذكار ليس بدعة، كما يزعم بعضهم، ما دام المصطفى، صلى الله عليه وسلم، ذكره، فصرح لما سن صوم يوم الإثنين بأنه يوم مولده، ولا فرق بين استذكار اليوم الأسبوعي للذكرى عن اليوم السنوي لها، ما دامت المنكرات المرافقة مستبعدة ومتجنبة.

ويستدل الصنعاني بهذا الحديث الشريف على أنه ينبغي تعظيم اليوم الذي أحدث الله فيه على عبده نعمة بصومه والتقرب فيه.[2]

ومن خيرات استذكار يوم مولده، صلى الله عليه وسلم، التذكير بسيرته وشمائله، حتى تبقى في عقول أبناء الأمة ووجدانهم دون أن يطويها النسيان، ويطغى عليها الانشغال بمجريات الحياة ومشاغلها، ويحسن بمناسبة ذكرى المولد النبوي التذكير ببعض صفاته، صلى الله عليه وسلم، كما جاءت في القرآن الكريم، وبعض الكتب السماوية السابقة، عسى أن يجد هذا التذكير متدبرين ينتفعون بخيره.

بعض صفاته في القرآن الكريم

ورد في القرآن الكريم ذكْر عدد من صفات النبي، صلى الله عليه وسلم، فهو الشاهد

---

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس.
2. سبل السلام: 2 /166.

والبشير والنذير، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشّراً وَنَذِيراً}.[1]

فالله تعالى بين أنه سيبعث النبي محمداً، صلى الله عليه وسلم، يوم القيامة شاهداً على أمته، وأنه مبشر للمؤمنين، ومنذر للكافرين، وفي شهادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على أمته، يقول تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً}.[2] ويقول عز وجل: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}.[3]

فهاتان الآيتان تدلان على شهادته، صلى الله عليه وسلم، يوم القيامة على أمته، وتبينان آية الفتح السالف ذكرها، التي أجملت ذكر وصف الشاهد وما ذكر من أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، مبشر للمؤمنين، ونذير للكافرين أوضحه الله تعالى في آيات أخرى، منها قوله جل شأنه: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّا}[4].[5]

وورد التأكيد في سورة الأحزاب على كون النبي، صلى الله عليه وسلم: شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، متبوعاً بوصفه داعياً إلى الله وسراجاً منيراً، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً* وَدَاعِياً إِلَى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً}[6]

أي أن الله تعالى أرسل رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، يدعو الخلق إلى ربهم ويشوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه؛ بتعريفهم بربهم وبصفاته الحسنى، وتنزيهه عما لا يليق

---

1. الفتح: 8.
2. النساء: 41.
3. النحل: 89.
4. مريم: 97
5. أضواء البيان: 7 /395.
6. الأحزاب: 45 – 46.

بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، وذلك كله بإذنه تعالى له في الدعوة، وأمره وإرادته وقدره.

وكونه {سراجاً منيراً} يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يُهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهاتها، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وهدى به ضُلالاً إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام، وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة.[1]

فهذه بعض صفات النبي، صلى الله عليه وسلم، كما جاءت في القرآن الكريم، وهي ذات صلة وثيقة بمهمته الدعوية، التي كلفه الله جل شأنه بها، لتتحقق من ورائها رحمته بالعالمين، والتي هي من أسمى غايات ابتعاثه، مصداقاً لقوله عز وجل: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}.[2]

صفته في التوراة والإنجيل

جاء في القرآن الكريم إشارة إلى مجيء النبي، صلى الله عليه وسلم، على لسان عيسى، عليه السلام، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}[3]، وحفلت الكتب السماوية السابقة بذكر بعض صفات النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وخصائصه، ومن ذلك ما جاء في حديث عَطَاءِ بن يَسَارٍ، قال: (لَقِيتُ عَبْدَ الله بن عَمْرِو بن الْعَاصِ، رضي الله عنهما، قلت: أَخْبِرْنِي عن صِفَةِ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في التَّوْرَاةِ؟ قال: أَجَلْ والله، إنه لَمَوْصُوفٌ في التَّوْرَاةِ

1. تفسير السعدي: 1/ 667 - 668.
2. الأنبياء: 107.
3. الصف: 6.

بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ، {يا أَيُّهَا النبي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ أنت عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتوكّلَ، ليس بِفَظٍّ ولا غَلِيظٍ، ولا سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، ولا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حتى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا لا إِلَهَ إلا الله، وَيَفْتَحُ بها أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، تَابَعَهُ عبد الْعَزِيزِ بن أبي سَلَمَةَ عن هِلَالٍ، وقال سَعِيدٌ عن هِلَالٍ، عن عَطَاءٍ، عن ابن سَلامٍ: غُلْفٌ كُلُّ شَيْءٍ فِي غِلافٍ، سَيْفٌ أَغْلَفُ، وَقَوْسٌ غَلْفَاءُ، وَرَجُلٌ أَغْلَفُ، إذا لم يَكُنْ مَخْتُونا).(*)

وقوله: (وحِرزاً) بكسر الحاء؛ أي حافظاً، والحرز في الأصل الموضع الحصين، فاستعير لغيره، وسمى التعويذ أيضاً حرزاً، والمعنى حافظاً لدين الأميين، يقال: حرزت الشيء أحرزه حرزاً إذا حفظته وضممته إليك، وصنته عن الأخذ، (والأميُّون) العرب؛ لأن الكتابة كانت عندهم قليلة، وقوله:(سميتك المتوكل) يعني لقناعته باليسير من الرزق، واعتماده على الله تعالى في الرزق، والنصر، والصبر على انتظار الفرج، والأخذ بمحاسن الأخلاق، واليقين بتمام وعد الله، فتوكل عليه، فسمي المتوكل، وقوله: (ليس بفظ)؛ أي ليس بسيء الخلق، (ولا غليظ)؛ أي ولا شديد في القول، وقوله: (ولا سخاب) السخاب على وزن فعال بالتشديد، من السخب، وهو من الصخب، واللغط.

وقوله: (ولا يدفع بالسيئة السيئة)؛ أي لا يسيء إلى من أساء إليه على سبيل المجازاة المباحة، ما لم تنتهك حرمة الله تعالى، لكن يأخذ بالفضل، وقوله: (حتى يقيم به) أي حتى ينقى به الشرك، ويثبت التوحيد، وقوله: (الملة العوجاء) وصفها بالعوج لما دخل فيها من عبادة الأصنام، وتغييرهم ملة إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، عن استقامتها، وإمالتها بعد قوامها، والمراد من إقامتها إخراجها من الكفر إلى الإيمان. وقوله: (أعيناً عمياً) الأعين جمع

* صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق.

عين، والعمي بضم العين، جمع عمياء، وعمي على هذه الرواية جمع أعمى، وقوله: (وآذاناً صماً) كذلك بالروايتين إحداهما يكون الصم، جمع صماء، صفة للآذان، والأخرى يكون (وآذان صم) بالإضافة، فعلى هذا يكون الصم جمع أصم. وقوله في غلاف يعني أنه مستور عن الفهم والتمييز.[1]

يذكر لإخوانه الأنبياء ميزاتهم

الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يستأثر بصفات الحسن والتميز، بل كان يذكر لإخوانه الأنبياء، عليهم السلام، ميزاتهم، فلما تحدث عن استهلال المواليد صارخين، نبه إلى أن نبي الله تعالى عيسى، عليه السلام، هو الوحيد الذي ولد دون أن يتمكن الشيطان من أن يطعنه في جنبيه، كما يفعل مع سائر المواليد، فعن أبي هُرَيْرَة، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (**كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبَيْهِ بِإِصْبَعِهِ حين يُولَدُ، غير عِيسَى بن مَرْيَمَ، ذَهَبَ يَطْعُنُ، فَطَعَنَ فِي الحِجَابِ**).[2]

فهذا غيض من فيض الصفات التي اتسم بها صاحب هذه الذكرى العزيزة، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، عسى الله أن يهدينا لتدبرها وفقه مراميها.

1. عمدة القاري: 11/ 243 - 244.
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
الصادق الأمين ـ الحلقة الأولى

ورد في أخبار السيرة النبوية الشريفة: (أنه قبل بعثة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بنت قريش الكعبة، وتقاسمتها أرباعاً، فلما انتهوا إلى موضع الحجر الأسود، تنازعت القبائل أيها يضعه موضعه، حتى كادوا يقتتلون، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل عليهم من بني هاشم، فكان صلى الله عليه وسلم هو أول داخل، فقالوا: هذا محمد، هذا الصادق الأمين، رضينا به، فحكموه، فبسط صلى الله عليه وسلم رداءه، ووضع الحجر فيه، وأمر أربعة من رؤساء القبائل الأربع، أن يأخذوا بأرباع الثوب، فرفعوه إلى موضعه، فتناوله صلى الله عليه وسلم، بيده المباركة، فوضعه في موضعه.[1]

فالنبي، صلى الله عليه وسلم، عرف بين قومه ومعارفه بالصادق الأمين، قبل أن يبعث نبياً، والرواية التاريخية المذكورة أعلاه تشير إلى اختلاف زعماء قريش حول من سيضع الحجر الأسود مكانه، ومن ثم اتفاقهم على تحكيم أول داخل عليهم بذلك، وحين كان الداخل محمداً، صلى الله عليه وسلم، استبشروا بذلك خيراً، كونه معروفاً لديهم بالصدق والأمانة، إذن لن يحيف في حكمه بينهم، والفصل في خلافهم، فَرَضوْا بحكمه، واطمأنوا إلى صدقه وأمانته.

حسن مقام الصادقين

الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي اشتهر بالصدق منذ نشأته الأولى، حافظ بعد بعثته ونبوته على إعلاء شأن الصدق وبيان فضائله، ففي صحيح البخاري، بَاب قَوْلِ الله تَعَالَى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وكُونُوا مع الصَّادِقِينَ}[2]، وما يُنْهَى عن الْكَذِبِ، وفيه عن النبي،

1. سيرة النبي المختار: 1/ 119.
2. التوبة: 119.

صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابا).[1]

فما أحوج العالمين اليوم، وكل يوم إلى الصادقين، الذين إليهم يطمئنون حكاماً ومحكومين، وبهم يثقون، بخلاف الكاذبين الذين يهدون إلى الفجور والجحيم، وما أدراك ما الجحيم! فهي نار تلظى، لا يصلاها إلا الأشقى، الذي كذب وتولى، وسيجنبها الأتقى، ومن التقى الصدق، الذي يتسم أهله بالصلاح، ويحظون بخير مقام، مع النبيين والشهداء والصديقين والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً}.[2]

والحشر مع هؤلاء الأخيار أمنية الأبرار، وعلى رأسهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث جاء في الرواية الصحيحة عن عَائِشَةَ، قالت: (كنت أَسْمَعُ أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ نَبِيٌّ حتى يُخَيَّرَ بين الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قالت: فَسَمِعْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، في مَرَضِهِ الذي مَاتَ فيه، وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ، يقول: مع الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عليهم من النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، قالت: فَظَنَنْتُهُ خُيِّرَ حِينَئِذٍ).[3]

ومن كرم الله على المؤمنين أنه منحهم وسام الصديقين والشهداء، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}.[4]

ومن معاني الصدّيق أنه المبالغ في الصدق، والذي تكون عادته الصدق.

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}(التوبة: 119).
2. النساء: 69.
3. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل عائشة، رضي الله تعالى عنها.
4. الحديد: 19.

فضل التزام منهج الصدق

أثنى الله تعالى على ملتزمي منهج الصدق في أقوالهم وأعمالهم وعهودهم، فقال جل شأنه:{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}.[1]

ولهذه الآية الكريمة سبب نزول دال على التزام الأخيار منهج الصدق في عهودهم ووعودهم، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (غَابَ عَمِّي أَنَسُ بن النَّضْرِ، عن قِتَالِ بَدْرٍ، فقال: يا رَسُولَ اللهِ؛ غِبْتُ عن أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنْ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ، لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أَصْنَعُ، فلما كان يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قال: اللهم إني أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ –يَعْنِي أَصْحَابَهُ– وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ –يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ– ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بن مُعَاذٍ، فقال: يا سَعْدُ بن مُعَاذٍ؛ الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إني أَجِدُ رِيحَهَا من دُونِ أُحُدٍ، قال سَعْدٌ: فما اسْتَطَعْتُ يا رَسُولَ اللهِ ما صَنَعَ، قال أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أو طعنة بِرُمْحٍ، أو رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قد قُتِلَ، وقد مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فما عرفه أَحَدٌ إلا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قال أَنَسٌ: كنا نُرَى أو نَظُنُّ أَنَّ هذه الْآيَةَ نَزَلَتْ فيه، وفي أَشْبَاهِهِ {من الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللهَ عليه}، إلى آخِرِ الْآيَةِ، وقال: إِنَّ أُخْتَهُ وَهِيَ تُسَمَّى الرُّبَيِّعَ، كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ امْرَأَةٍ، فَأَمَرَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بِالْقِصَاصِ، فقال أَنَسٌ: يا رَسُولَ اللهِ؛ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فَرَضُوا بِالْأَرْشِ، وَتَرَكُوا الْقِصَاصَ، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ من عِبَادِ اللهِ من لو أَقْسَمَ على اللهِ لَأَبَرَّهُ).[2]

وعدد رب العزة أعمالاً للصادقين المتقين، فقال سبحانه وتعالى: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ

1. الأحزاب: 23.

2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: {من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا }(الأحزاب: 23).

وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}.[1]

المباركة للبائع والمشتري الصادقين

الصدق مطلوب للعاقلين في الظروف والأحوال كلها، فهو مطلوب من الحاكم والمحكوم، ومن الوزير والغفير، ومن الأزواج، والآباء والأبناء، ومن المعلم والمتعلم، ومن البائع والمشتري، وفيهما جاء في الحديث الصحيح أن رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ، ما لم يَتَفَرَّقَا، أو قال: حتى يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا، بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا، مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا).[2]

فالمعادلة واضحة، صدق تقابله مباركة، أو كذب يقابله محق، والعياذ بالله تعالى. من هنا كان الوعد الموعود للتاجر الصادق الأمين، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء).[3]

وفي المقابل ذم الرسول، صلى الله عليه وسلم، التاجر المدلس، الذي يخفي عيوب بضاعته؛ ليوهم المشتري بحسنها الزائف، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، مَرَّ على صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فيها، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فقال: ما هذا يا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قال: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يا رَسُولَ الله، قال: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ الناس؟ من غَشَّ فَلَيْسَ مِنِي).[4]

وعن عُقْبَة بن عَامِرٍ، قال: (لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يَبِيعُ سِلْعَةً، يَعْلَمُ أَنَّ بها دَاءً، إلا أخبره).[5]

---

1. البقرة: 177.
2. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا.
3. المستدرك على الصحيحين: 2/ 7، وقال الألباني: صحيح لغيره.
4. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم: (من غشنا فليس منا).
5. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا.

فالصدق في التجارة من أهم أنواع الصدق؛ كون أصحاب النفوس المريضة يسعون إلى جني ما يستطيعون من المنافع المادية خلال عملهم التجاري، غير آبهين بالحلال والحرام، مما يجعل أيديهم في كثير من الأحيان تطال ما ليس حلالاً من المال، فيوردوا أنفسهم المهالك، والله تعالى ينهى عن أكل أموال الناس بغير حق، فيقول جل شأنه: {وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}.(*)

فهذه معطيات دالة على اهتمام الإسلام بالصدق، والإشادة بأهله، راجين الله العلي القدير أن يعين على مواصلة الوقوف في الحلقة القادمة عند مزيد من جوانب هذه المسألة الأخلاقية، التي ظهرت معالمها جلية في سلوك الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* البقرة: 188.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
الصادق الأمين ـ الحلقة الثانية والأخيرة

ورد في الحديث الصحيح عن أبي سفيان أنه كان بالشام في رِجَالٍ من قُرَيْشٍ، قبل أن يسلم، فقال: (وَجَدَنَا رسول قَيْصَرَ بِبَعْضِ الشأم، فانطلق بِي وَبِأَصْحَابِي حتى قَدِمْنَا إِيلِيَاءَ، فَأُدْخِلْنَا عليه، فإذا هو جَالِسٌ في مَجْلِسِ مُلْكِهِ، وَعَلَيْهِ التَّاجُ، وإذا حَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، فقال لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُمْ: أَيُّهُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا إلى هذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ قال أبو سُفْيَانَ: فقلت: أنا أَقْرَبُهُمْ إليه نَسَبًا، قال: ما قَرَابَةُ ما بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؟ فقلت: هو ابن عَمِّي، وَلَيْسَ في الرَّكْبِ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ من بَنِي عبد مَنَافٍ غَيْرِي، فقال قَيْصَرُ: أَدْنُوهُ، وَأَمَرَ بِأَصْحَابِي، فَجُعِلُوا خَلْفَ ظَهْرِي عِنْدَ كَتِفِي، ثُمَّ قال لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لِأَصْحَابِهِ: إني سَائِلٌ هذا الرَّجُلَ عن الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَبَ فَكَذِّبُوهُ، قال أبو سُفْيَانَ: والله لَوْلَا الْحَيَاءُ يَوْمَئِذٍ من أَنْ يَأْثُرَ أَصْحَابِي عَنِّي الْكَذِبَ، لَكَذَبْتُهُ حين سَأَلَنِي عنه، وَلَكِنِّي اسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَأْثُرُوا الْكَذِبَ عَنِّي، فَصَدَقْتُهُ، ثُمَّ قال لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ له: كَيْفَ نَسَبُ هذا الرَّجُلِ فِيكُمْ؟ قلت: هو فِينَا ذُو نَسَبٍ، قال: فَهَلْ قال هذا الْقَوْلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ قَبْلَهُ؟ قلت: لَا، فقال: كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ على الْكَذِبِ قبل أَنْ يَقُولَ ما قال؟ قلت: لَا ... فقال لِتَرْجُمَانِهِ حين قلت ذلك له: قُلْ له إني سَأَلْتُكَ عن نَسَبِهِ فِيكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ في نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هل قال أَحَدٌ مِنْكُمْ هذا الْقَوْلَ قَبْلَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فقلت: لو كان أَحَدٌ مِنْكُمْ قال هذا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، قلت: رَجُلٌ يَأْتَمُّ بِقَوْلٍ قد قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ: هل كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قبل أَنْ يَقُولَ ما قال؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا فَعَرَفْتُ، أَنَّهُ لم يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ على الناس، وَيَكْذِبَ على الله...).(*)

فالنبي، صلى الله عليه وسلم، عرف بين قومه ومعارفه بالصادق الأمين، قبل أن يبعث

* صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

نبياً، وشهد خصومه بصدقه، كما فعل أبو سفيان بن حرب قبل أن يسلم، فرد قيصر الروم: أَنَّهُ لم يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ على الناس، وَيَكْذِبَ على الله، يأتي التذكير بهذا الخبر التاريخي كشاهد على الاعتراف للرسول، صلى الله عليه وسلم، من خصومه بالصدق، وذلك تواصلاً مع ما عرضته الحلقة السابقة من بيان لحسن مقام الصادقين، وفضل التزام منهج الصدق، والمباركة للبائع والمشتري الصادقيْن، وفي سياق تلك الحلقة أشير إلى أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي اشتهر بالصدق منذ نشأته الأولى، حافظ بعد بعثته ونبوته على إعلاء شأن الصدق وبيان فضائله.

والعرض الآتي يبرز مزيداً من جوانب هذه المسألة الأخلاقية، التي ظهرت معالمها جلية في سلوك الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم.

الحث على الصدق

أمر الله المؤمنين بالصدق في آية محدودة الألفاظ، تضمنت بالإضافة إلى وصفهم بالإيمان، أمرهم بالتقوى، ومن ثم بالصدق، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}[1]، والملاحظ أن الآية الكريمة جمعت ذكر الصدق مع التقوى، والإيمان ليشكل معهما ثالثة الأثافي، مما يدل على أهمية الصدق في الإسلام، كيف لا؟! وهو علامة فارقة، لا يتحلى بنقيضها مؤمن، بمعنى أن الكذب يتناقض مع سلامة الإيمان، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فإن الصِّدْقَ يهدي إلى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يهدي إلى الْجَنَّةِ، وما يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فإن الْكَذِبَ يهدي إلى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يهدي إلى النَّارِ، وما يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابا).[2]

---

1. التوبة: 119.

2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.

جزاء الصادقين في ضوء آيات القرآن الكريم

تعدد ذكر الثناء على الصادقين في مواضع قرآنية عديدة، فالله أعد مغفرته لأصحاب الصفات السوية، التي منها الصدق، فقال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}.[1]

ووعد الله تعالى الصادقين بجنات تجري من تحتها الأنهار، فقال جل شأنه: {قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.[2]

فالصدق من خير الأعمال التي ينال أهلها خير الجزاء، مصداقاً لقوله عز وجل: {لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً}.[3]

وغير ذلك كثير مما تضمنته آيات الذكر الحكيم من بيان لجزاء الصدق، مع لفت الأنظار إلى يوم ينفع الصادقين صدقهم، فيدخلون جنة ربهم بسلام آمنين.

اختبار الصدق

لو ترك الناس مزاعمهم، لادعى بعضهم ما ليس فيه من المكارم والأخلاق، ومن ذلك الصدق، فلا بد إذن من اختبار يقاس من خلاله مستوى الصدق المزعوم من قبل صاحبه، وقد حث الله تعالى على إجراء هذا الاختبار، فقال سبحانه: {عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى

1. الأحزاب: 35.
2. المائدة: 119.
3. الأحزاب: 24.

يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}.[1]

فالصدق لا يترك للزعم فحسب، وإنما له دلالات وقرائن تشير إلى وجوده من عدمه، وتظهر مستواه إن وجد، فما أسهل زعمه، لكن المحكات تظهر الصادق من الكاذب، حتى إن الناس اليوم صاروا يلجأون إلى أجهزة يختبرون بواسطتها الصدق من الكذب، فيعرضون الممتحن على جهاز فحص الكذب، ثم يخرجون بنتيجة تفيد أنه صدق في أقواله أو كذب. وقد سبق القرآن الكريم إلى هذا المنحى، حين تحدث عن اختبار صدق المزاعم من خلال امتحانات معينة، تفرز الصدق عن الكذب، أو العكس، {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ} {فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}.[2]

التحذير من الكذب

مثلما للصدق من أهمية ومكانة علية، فإن للكذب وأهله مكانة دنية هابطة، ليس أدل على ذلك من اعتباره من أبرز صفات المنافقين وخصائصهم، فعن عبد اللهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (أَرْبَعٌ من كُنَّ فيه، كان مُنَافِقًا، أو كانت فيه خَصْلَةٌ من أَرْبَعَةٍ، كانت فيه خَصْلَةٌ من النِّفَاقِ، حتى يَدَعَهَا، إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذا خَاصَمَ فَجَرَ).[3]

فالمنافق صاحب الوجوه المتعددة، يظهر ما لا يبطن، يمتطي ظهر الكذب لترويج بضائعه الفاسدة، فيا ويله حين تفضح السرائر، يوم التلاقي، وبخاصة إذا كان ممن يكذب على الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث جاء التحذير الأشد من اقتراف هذه الخطيئة العظيمة. فعن الْمُغِيرَةِ، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ ليس

1. التوبة: 43.
2. العنكبوت:3.
3. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب إذا خاصم فجر.

كَكَذِبٍ على أَحَدٍ، من كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ...).[*]

فليحذر أصحاب الأهواء من إسناد أقوال أو أفعال للرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو منها براء، كما وقع من أصحاب الأهواء والمذاهب الضالة، عبر تاريخ الإسلام العظيم، وفي هذا المقام يحسن الدعاء بالخير للذين تجندوا بعلمهم وجهودهم الخلاقة للذب عن سنة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وتنقيتها من الأحاديث المكذوبة، حتى تمكنوا من تصنيف صحاح السنة، فبارك الله فيهم، وجزاهم عن الإسلام ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وسنته، خير الجزاء.

فهذه معطيات أخرى دالة على اهتمام الإسلام بالصدق، والإشادة بأهله، راجين الله العلي القدير أن يعيننا على البعد عن الكذب، الذي هو من سمات المنافقين، الذين هم في الدرك الأسفل من النار، والتزام الصدق، والتحلي به في القول والعمل، تأسياً بالرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبين فضل مدينته المنورة ـ الحلقة الأولى

عن أَبي هُرَيْرَة، رضي الله عنه، يقول: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى، يَقُولُونَ: يَثْرِبُ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ، تَنْفِي الناس كما يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ).(*)

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه هذا بعض سمات المدينة المنورة وخصائصها، فيشير إلى أنه لجأ إليها بأمر، أي أن هجرته إليها لم تكن عفوية ولا اجتهادية، وإنما كانت بأمر رباني، وقد جاء في فتح الباري في شرح صحيح البخاري، أن قوله: (أمرت بقرية) أي أمرني ربي بالهجرة إليها أو سكناها، فالأول محمول على أنه قاله بمكة، والثاني على أنه قاله بالمدينة. وقوله: (تأكل القرى) أي تغلبهم، وكنى بالأكل عن الغلبة؛ لأن الآكل غالب على المأكول، وعن ابن بطال قال: معناه يفتح أهلها القرى، فيأكلون أموالهم، ويسبون ذراريهم، قال: وهذا من فصيح الكلام، تقول العرب:أكلنا بلد كذا إذا ظهروا عليها، وقال النووي: ذكروا في معناه وجهين؛ أحدهما هذا، والآخر أن أكلها وميرتها من القرى المفتتحة، وإليها تساق غنائمها.

وقال ابن المنير في الحاشية: يحتمل أن يكون المراد بأكلها القرى غلبة فضلها على فضل غيرها، ومعناه أن الفضائل تضمحل في جنب عظيم فضلها، حتى تكاد تكون عدماً.

وقوله: (يَقُولُونَ: يَثْرِبُ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ) وهي المدينة، أي أن بعض المنافقين يسميها يثرب، واسمها الذي يليق بها المدينة، وفهم بعض العلماء من هذا كراهة تسمية المدينة يثرب، وإنما هي المدينة أو طابة. وذكر الزجاج في مختصره وأبو عبيد البكري في معجم ما استعجم أنها سميت يثرب باسم يثرب بن قانية بن مهلايل بن عيل بن عيص بن إرم بن سام بن نوح؛

* صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس.

لأنه أول من سكنها بعد العرب.

وقوله: (تنفى الناس) قال عياض: وكأن هذا مختص بزمنه؛ لأنه لم يكن يصبر على الهجرة والمقام معه بها إلا من ثبت إيمانه، وقال النووي: ليس هذا بظاهر؛ لأن عند مسلم لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد، وهذا والله أعلم زمن الدجال.

ويحتمل أن يكون المراد كلاً من الزمنين، وكان الأمر في حياته صلى الله عليه وسلم كذلك للسبب المذكور. ويؤيده قصة الأعرابي الآتية، عن جَابِرِ بن عبد اللهِ: (**أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَايَعَ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، على الإِسْلامِ، فَأَصَابَ الأَعْرَابِيَّ وَعْكٌ بِالْمَدِينَةِ، فأتى الأَعْرَابِيُّ إلى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللهِ، أَقِلْنِي بَيْعَتِي، فَأَبَى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ جَاءَهُ، فقال: أَقِلْنِي بَيْعَتِي، فَأَبَى، ثُمَّ جَاءَهُ فقال: أَقِلْنِي بَيْعَتِي، فَأَبَى، فَخَرَجَ الأَعْرَابِيُّ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: إنما الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وتنصع طِيبُهَا**).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، ذكر هذا الحديث معللاً به خروج الأعرابي، وسؤاله الإقالة عن البيعة، ثم يكون ذلك أيضاً في آخر الزمان عندما ينزل بها الدجال، فترجف بأهلها، فلا يبقى منافق ولا كافر إلا خرج إليه.

وقوله: (كما ينفى الكِير) بكسر الكاف، والمشهور بين الناس أنه الزق الذي ينفخ فيه، لكن أكثر أهل اللغة على أن المراد بالكير حانوت الحداد والصائغ، و(الخَبَثَ) بفتح الخاء والباء، أي وسخه الذي تخرجه النار، والمراد أن المدينة لا تترك فيها من في قلبه دغل، بل تميزه عن القلوب الصادقة، وتخرجه كما يميز الحداد رديء الحديد من جيده، ونسبه التمييز للكير؛ لكونه السبب الأكبر في اشتعال النار التي يقع التمييز بها.[2]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من بايع ثم استقال البيعة.
2. فتح الباري: 4/ 87 - 88.

وعن زَيْدَ بن ثَابِتٍ، رضي الله عنه، قال: (لَمَّا خَرَجَ النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى أُحُدٍ رَجَعَ نَاسٌ من أَصْحَابِهِ، فقالت فِرْقَةٌ: نَقْتُلُهُمْ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لا نَقْتُلُهُمْ، فَنَزَلَتْ {فما لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ}، وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: إِنَّهَا تَنْفِي الرِّجَالَ كما تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْحَدِيدِ).[1]

أفضل البلاد

ذكر ابن حجر العسقلاني الاستدلال بهذا الحديث على أن المدينة أفضل البلاد، قال المهلب: لأن المدينة هي التي أدخلت مكة وغيرها من القرى في الإسلام، فصار الجميع في صحائف أهلها، ولأنها تنفي الخبث.

وأجيب عن الأول بأن أهل المدينة الذين فتحوا مكة معظمهم من أهل مكة، فالفضل ثابت للفريقين، ولا يلزم من ذلك تفضيل إحدى البقعتين، وعن الثاني بأن ذلك إنما هو في خاص من الناس، ومن الزمان، بدليل قوله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}.[2]

والمنافق خبيث بلا شك، وقد خرج من المدينة بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، معاذ وأبو عبيدة وابن مسعود وطائفة ثم علي وطلحة والزبير وعمار وآخرون، وهم من أطيب الخلق، فدل على أن المراد بالحديث تخصيص ناس دون ناس، ووقت دون وقت، قال ابن حزم لو فتحت بلد من بلد، فثبت بذلك الفضل للأولى للزم أن تكون البصرة أفضل من خراسان وسجستان وغيرهما مما فتح من جهة البصرة، وليس كذلك.[3]

أسماء المدينة المنورة وتسميتها بطابة

جاء في صحيح البخاري باب الْمَدِينَةُ طَابَةٌ، وفيه عن أبي حُمَيْدٍ، رضي الله عنه، (أَقْبَلْنَا مع

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث.
2. التوبة: 101.
3. فتح الباري: 4/ 87 - 88.

النبي، صلى الله عليه وسلم، من تَبُوكَ حتى أَشْرَفْنَا على الْمَدِينَةِ، فقال: هذه طَابَةٌ).[1] ومعنى طابة الطيبة، وسماها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بهذا الاسم، وكان اسمها يثرب.[2]

وفي فتح الباري أن قوله باب المدينة طابة؛ أي من أسمائها، إذ ليس في الحديث أنها لا تسمى بغير ذلك، والطاب والطيب لغتان بمعنى، واشتقاقهما من الشيء الطيب، وقيل: لطهارة تربتها، وقيل: لطيبها لساكنها، وقيل: من طيب العيش بها، وقال بعض أهل العلم: وفي طيب ترابها وهوائها دليل شاهد على صحة هذه التسمية؛ لأن من أقام بها يجد من تربتها وحيطانها رائحة طيبة لا تكاد توجد في غيرها، قال الحافظ: أمر المدينة في طيب ترابها وهوائها يجده من أقام بها، ويجد لطيبها أقوى رائحة، ويتضاعف طيبها فيها عن غيرها من البلاد، وكذلك العود وسائر أنواع الطيب.

وروي أن للمدينة عشرة أسماء، هي: المدينة، وطابة، وطيبة، والمطيبة، والمسكينة، والدار، وجابرة، ومجبورة، ومنيرة، ويثرب.[3]

الدعاء للمدينة بالبركة

الرسول، صلى الله عليه وسلم، أحب المدينة حباً جماً، ومن دلائل هذه المحبة سؤاله الله تعالى أن يضاعف للمدينة البركة التي جعلها لمكة المكرمة، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (اللهم اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ ما جَعَلْتَ بِمَكَّةَ من الْبَرَكَةِ).[4]

ورد في شرح هذا الحديث، أن قوله: (ضِعْفَيْ ما جَعَلْتَ) تثنية ضعف بالكسر، قال الجوهري: ضعف الشيء مثله، وضعفاه مثلاه، وقال الفقهاء: ضعفه مثلاه، وضعفاه ثلاثة أمثاله.

---

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب المدينة طابة.
2. عمدة القاري: 9 /67.
3. فتح الباري: 4/ 88.
4. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث.

وقوله: (من الْبَرَكَةِ) أي كثرة الخير، والمراد بركة الدنيا، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم بَارِكْ لنا في مَدِينَتِنَا، اللهم بَارِكْ لنا في صَاعِنَا، اللهم بَارِكْ لنا في مُدِّنَا، اللهم بَارِكْ لنا في صَاعِنَا، اللهم بَارِكْ لنا في مُدِّنَا، اللهم بَارِكْ لنا في مَدِينَتِنَا، اللهم اجْعَلْ مع الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بيده ما من الْمَدِينَةِ شِعْبٌ ولا نَقْبٌ إلا عليه مَلَكَانِ يَحْرُسَانِهَا، حتى تَقْدَمُوا إِلَيْهَا، ثُمَّ قال لِلنَّاسِ: ارْتَحِلُوا فَارْتَحَلْنَا، فَأَقْبَلْنَا إلى الْمَدِينَةِ، فَوَالَّذِي نَحْلِفُ بِهِ، أو يُحْلَفُ بِهِ الشَّكُّ من حَمَّادٍ، ما وَضَعْنَا رِحَالَنَا حين دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ حتى أَغَارَ عَلَيْنَا بَنُو عبد الله بن غَطَفَانَ، وما يَهِيجُهُمْ قبل ذلك شَيْءٌ).(*)

سائلين الله العلي القدير أن يوفق للوقوف عند مزيد من التفصيل الخاص بهذه المعاني في الحلقة القادمة من حلقات الرسول الأسوة، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبين فضل مدينته المنورة ـ الحلقة الثانية

عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (اللهم اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ ما جَعَلْتَ بِمَكَّةَ من الْبَرَكَةِ).[1]

تعرضت الحلقة السابقة إلى بعض سمات المدينة المنورة وخصائصها، في ضوء ما ورد عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، من بيان بشأنها، فهجرة النبي، صلى الله عليه وسلم، إليها كانت بأمر من الله تعالى، وهي أكمل القرى والمدن، والغلبة لها، واسمها بعد الهجرة أصبح المدينة المنورة، وليس يثرباً كما كان قبلها، وهي تنفي شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد، وذكر في الحلقة السابقة أسماء للمدينة المنورة ومن بينها طابة، والرسول، صلى الله عليه وسلم، دعا أن يضاعف الله للمدينة البركة التي جعلها لمكة المكرمة، كما في الحديث المثبت أعلاه، وبالنسبة إلى المراد بالبركة ذكر أنها كثرة الخير في الدنيا، وأجاب العيني عن الاعتراض على اعتبار المقصود بالبركة هنا بركة الدنيا، حيث اللفظ أعم من ذلك، فيقتضي أن تكون الصلاة بالمدينة ضعفي ثواب الصلاة بمكة، فقال: ولئن سلمنا عموم اللفظ لكنه مجمل، فبينه صلى الله عليه وسلم بقوله: (اللهم بَارِكْ لنا في مَدِينَتِنَا، اللهم بَارِكْ لنا في صَاعِنَا، اللهم بَارِكْ لنا في مُدِّنَا، اللهم بَارِكْ لنا في صَاعِنَا، اللهم بَارِكْ لنا في مُدِّنَا، اللهم بَارِكْ لنا في مَدِينَتِنَا، اللهم اجْعَلْ مع الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ)[2]، فهذه أمور تخص شأن الدنيا، وخص الصلاة ونحوها بالدليل الخارجي.[3]

المدينة حرم

حرم الله تعالى مكة، فجعلها حرماً آمناً، مصداقاً لقوله جل شأنه: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ}[4]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث.
2. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها.
3. عمدة القاري: 10/ 247 - 248.
4. العنكبوت: 67.

اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ، لا يُعْضَدُ شَوكُهُ، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلا مَنْ عَرَّفَهَا).[1]

وحرم الرسول، صلى الله عليه وسلم، المدينة، فقد جاء في صحيح البخاري، بَاب حَرَمِ الْمَدِينَةِ، وفيه عن أَنَسٍ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْمَدِينَةُ حَرَمٌ من كَذَا إلى كَذَا، لا يُقْطَعُ شَجَرُهَا، ولا يُحْدَثُ فيها حَدَثٌ، من أَحْدَثَ فيها حَدَثًا؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ).[2]

وعن عَلِي، رضي الله عنه، قال: (ما عِنْدَنَا كِتَابٌ نَقْرَؤُهُ إلا كِتَابُ اللهِ غير هذه الصَّحِيفَةِ، قال: فَأَخْرَجَهَا، فإذا فيها أَشْيَاءُ من الْجِرَاحَاتِ، وَأَسْنَانِ الإِبِلِ، قال: وَفِيهَا الْمَدِينَةُ حَرَمٌ ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فيها حَدَثًا، أو آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يُقْبَلُ منه يوم الْقِيَامَةِ صَرْفٌ ولا عَدْلٌ...).[3]

جاء في شرح هذين الحديثين أن قوله: (المدينة حرم) أي محرمة، لا تنتهك حرمتها، وقوله: (من كذا إلى كذا)، هكذا جاء من غير بيان، وقد جاء في الطريق الآخر عن علي، رضي الله عنه: (ما بين عير إلى ثور)، والظاهر أن البخاري أسقطها في الرواية الأولى عمداً، لأن أهل المدينة ينكرون أن يكون بها جبل يسمى ثوراً، وإنما ثور بمكة، وقال عياض: لا معنى لإنكار عير بالمدينة، فإنه معروف، وهو اسم جبل بقرب المدينة معروف، وقال المحب الطبري في الأحكام: قد أخبرني الثقة العالم أبو محمد عبد السلام البصري أن حذاء أحد عن يساره جانحاً إلى ورائه جبل صغير، يقال له ثور، وأخبر أنه تكرر سؤاله عنه لطوائف من العرب العارفين بتلك الأرض، وما فيها من الجبال، فكل أخبر أن ذلك الجبل اسمه ثور، وتواردوا على ذلك، قال: فعلمنا أن ذكر ثور في الحديث صحيح، وأن عدم علم أكابر العلماء به لعدم شهرته، وعدم بحثهم عنه، وقال ابن قدامة: يحتمل أن يكون مراد النبي، صلى الله عليه وسلم،

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحرم.
2. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة.
3. صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب إثم من تبرأ من مواليه.

مقدار ما بين عير وثور، لا أنهما بعينهما في المدينة، أو سمى النبي، صلى الله عليه وسلم، الجبلين اللذين نظر في المدينة عيراً وثوراً، تحوزاً وارتجالاً.[1]

وقوله: (**لا يقطع شجرها**) وفي رواية (**لا يختلى خلاها**) وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: (**إن إبراهيم حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ ما بين لابَتَيْهَا، لا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا، ولا يُصَادُ صَيْدُهَا**).[2]

وقوله: (**ولا يحدث**) بلفظ المعلوم والمجهول، أي لا يُعمل فيها عمل مخالف للكتاب والسنة، وقوله (**حدثاً**) هو الأمر الحادث المنكر الذي ليس بمعتاد ولا معروف في السنة، قوله: (**فعليه لعنة الله**) إلى آخره، هذا وعيد شديد لمن ارتكب هذا، قالوا: المراد باللعن هنا العذاب الذي يستحقه على ذنبه، والطرد عن الجنة؛ لأن اللعن في اللغة هو الطرق والإبعاد، وليس هي كلعنة الكفار الذين يبعدون من رحمة الله تعالى كل الإبعاد.[3]

آراء الفقهاء في حكم تحريم المدينة

احتج بحديث تحريم المدينة محمد بن أبي ذئب والزهري والشافعي ومالك وأحمد وإسحاق، وقالوا: المدينة لها حرم، فلا يجوز قطع شجرها، ولا أخذ صيدها، ولكنه لا يجب الجزاء فيه عندهم، خلافاً لابن أبي ذئب، فإنه قال: يجب الجزاء، وكذلك لا يحل سلب من يفعل ذلك عندهم إلاَّ الشافعي، وقال في القديم: من اصطاد في المدينة صيداً أخذ سلب، وقال في الجديد بخلافه، وقال ابن نافع: سئل مالك عن قطع سدر المدينة، وما جاء فيه من النهي، فقال: إنما نهى عن قطع سدر المدينة لئلا توحش، وليبقى فيها شجرها، ويستأنس بذلك، ويستظل به من هاجر إليها.

وقال ابن حزم: من احتطب في حرم المدينة، فحلال سلبه كل ما معه في حاله تلك، وتجريده إلاَّ ما يستر عورته فقط، لما روي (**أَنَّ سَعْدًا رَكِبَ إِلَى قَصْرِهِ بِالْعَقِيقِ، فَوَجَدَ عَبْدًا يَقْطَعُ شَجَرًا، أو**

---

1. عمدة القاري: 10 /228.

2. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها.

3. عمدة القاري: 10 /228 - 229.

يَخْبِطُهُ، فَسَلَبَهُ، فلما رَجَعَ سَعْدٌ جَاءَهُ أَهْلُ الْعَبْدِ، فَكَلَّمُوهُ أَنْ يَرُدَّ على غُلامِهِمْ أو عليهم ما أَخَذَ من غُلامِهِمْ، فقال: مَعَاذَ اللهِ أَنْ أَرُدَّ شيئاً نَفَّلَنِيهِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وَأَبَى أَنْ يَرُدَّ عليهم).[1]

وقال الثوري وعبد الله بن المبارك وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد: ليس للمدينة حرم كما كان لمكة، فلا يمنع أحد من أخذ صيدها وقطع شجرها، وأجابوا عن الحديث المذكور، بأنه صلى الله عليه وسلم إنما قال ذلك لا لأنه لما ذكروه من تحريم صيد المدينة وشجرها؛ بل إنما أراد بذلك بقاء زينة المدينة ليستطيبوها ويألفوها، وذكر الطحاوي دليلاً على ذلك، من حديث أَنَسٍ قال: (... كان لِي أَخٌ يُقَالُ له أبو عُمَيْرٍ، قال: أَحْسِبُهُ فطيماً، وكان إذا جاء قال: يا أَبَا عُمَيْرٍ ما فَعَلَ النُّغَيْرُ، نُغَرٌ كان يَلْعَبُ بِهِ).[2]

ونغير بضم النون وفتح الغين وسكون الياء، مصغر نغر وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار، ويجمع على نغران، قال الطحاوي: فهذا قد كان بالمدينة، ولو كان حكم صيدها كحكم صيد مكة إذاً لما أطلق له رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حبس النغير، ولا اللعب به، كما لا يطلق ذلك بمكة، وأجيب باحتمال أن يكون من صيد الحل، انتهى، قلت: لا تقوم الحجة بالاحتمال الذي لا ينشأ عن دليل، واعترضوا أيضاً بأنه يجوز أن يكون من صيد الحل، ثم أدخله المدينة، وردَّ بأن صيد الحل إذا أدخل الحرم يجب عليه إرساله، فلا يرد علينا، ثم قال الطحاوي: فقال قائل: فقد يجوز أن يكون هذا الحديث بقناة، وذلك الموضع غير موضع الحرم، فلا حجة لكم في هذا الحديث.[3]

سائلين الله العلي القدير أن يوفق لاحقاً للوقوف عند مزيد من فضائل المدينة في ضوء بيان الرسول الأسوة، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل.
3. عمدة القاري: 10 /228 - 229.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبين فضل مدينته المنورة ـ الحلقة الثالثة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إلى الْمَدِينَةِ كما تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إلى جُحْرِهَا).[1]

تعرضت الحلقة السابقة إلى بيان أن المدينة حرم، وأنه كما حرم الله تعالى مكة، فجعلها حرماً آمناً، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، حرم المدينة، مع بيان آراء الفقهاء في حكم تحريم المدينة، وفي الحديث أعلاه يشير الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى فضل آخر من فضائل المدينة، وهذا الفضل ذو صلة بالعقيدة، فالإيمان يسوق أهله إلى المدينة، وفي عمدة القاري عن المهلب قال: إن المدينة لا يأتيها إلاَّ مؤمن، وإنما يسوقه إليها إيمانه ومحبته في النبي، صلى الله عليه وسلم، فكان الإيمان يرجع إليها كما خرج منها أولاً، ومنها ينتشر كانتشار الحية من جحرها، ثم إذا راعها شيء رجعت إلى جحرها.

وعن الداودي، قال: كان هذا في حياة النبي، صلى الله عليه وسلم، والقرن الذي كان منهم، والذين يلونهم خاصة، لأنه كان الأمر مستقيماً. وقال القرطبي: وفيه تنبيه على صحة مذهبهم وسلامتهم من البدع، وأن عملهم حجة. فبعض العلماء يرون أن هذا إنما كان في زمن النبي، صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين إلى انقضاء القرون الثلاثة، وهي تسعون سنة، وأما بعد ذلك فقد تغيرت الأحوال، وكثرت البدع خصوصاً في زماننا هذا على ما لا يخفى.[2]

والذي قاله هؤلاء العلماء لا يقوى على تخصيص هذه الفضيلة بزمن دون آخر، صحيح

---

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة.
2. عمدة القاري: 10 /240.

أن ظاهر هذا الخير قد يتفاوت لمسه من زمن لآخر، لكنه والله تعالى أعلم يبقى لصيقًا بالمدينة المنورة، وخير الشواهد على ذلك ما يلمسه زائروها من راحة، وما يشعرون به من حب لها، وتعلق بها، رغم ما قيل عن أحوال زمانهم.

حب المدينة المنورة

الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، رضي الله عنهم، أحبوا المدينة المنورة، وعبروا عن هذا الحب بمواقف وأقوال عديدة، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، (**أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، كان إذا قَدِمَ من سَفَرٍ، فَنَظَرَ إلى جُدُرَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ، وَإِنْ كان على دَابَّةٍ حَرَّكَهَا من حُبِّهَا**).[1]

و(**الْجُدُرَات**) بضمتين، جمع الجدر، وهو جمع الجدار. وقوله: (أوضع) أي حملها على السير السريع.[2] والمعنى سار سيراً سهلاً سريعاً، ووضع البعير يضع في سيره وضعاً، ومنه قوله تعالى: {**وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ**}[3]، وقيل الإيضاع سير مثل الخبب.[4]

والإيضاع مخصوص بالبعير والراحلة النجيب والنجيبة من الإبل، (وإن كان على دابة) كالبغل والفرس، (حركها) من حبها، تنازع فيه الفعلان؛ أي من أجل حبه إياها، أو أهلها، أو من أجل حبها له.[5]

وعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (**لَمَّا قَدِمَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الْمَدِينَةَ وُعِكَ أبو بَكْرٍ وَبِلالٌ، فَكَانَ أبو بَكْرٍ إذا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يقول: كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ في أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَى من شِرَاكِ نَعْلِهِ، وكان بِلالٌ إذا أُقْلِعَ عنه الْحُمَّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ يقول: ألا لَيْتَ شِعْرِي هل أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ، وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وَهَلْ يَبْدُوَنْ لي شَامَةٌ وَطَفِيلُ، وقال: اللهم الْعَنْ**

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث.
2. عمدة القاري: 10 /248.
3. التوبة: 47.
4. كشف المشكل: 3/ 286.
5. مرقاة المفاتيح: 5/ 633.

شَيْبَةَ بن رَبِيعَةَ وَعُتْبَةَ بن رَبِيعَةَ وَأُمَيَّةَ بن خَلَفٍ كما أَخْرَجُونَا من أَرْضِنَا إلى أَرْضِ الْوَبَاءِ، ثُمَّ قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: اللهم حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أو أَشَدَّ، اللهم بَارِكْ لنا في صَاعِنَا، وفي مُدِّنَا، وَصَحِّحْهَا لنا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إلى الْجُحْفَةِ، قالت: وَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، وَهِيَ أَوْبَأُ أَرْضِ الله، قالت: فَكَانَ بُطْحَانُ يَجْرِي نَجْلاً؛ تَعْنِي مَاءً آجِنًا).[1]

ومن فرط حب كبار الصحابة، رضي الله عنهم، للمدينة المنورة، أنهم تمنوا الموت فيها، فعن عُمَرَ، رضي الله عنه، قال: (اللهم ارْزُقْنِي شَهَادَةً في سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي في بَلَدِ رَسُولِكَ، صلى الله عليه وسلم).[2]

إثْم من كَادَ أَهْلَ الْمَدِينَة

في مقابل فضل حب المدينة، يأتي قبح الكيد لها ولأهلها، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: سمعت سَعْدًا، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (لا يَكِيدُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَحَدٌ إلا انْمَاعَ كما يَنْمَاعُ الْمِلْحُ في الْمَاءِ).[3]

قوله: (لا يَكِيدُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ) الكيد المكر والحيلة والاجتهاد في المساءة، والمدينة دار الهجرة.[4]

وقوله: (إلا انْمَاعَ كما يَنْمَاعُ الْمِلْحُ في الْمَاءِ) أي إلا انذاب كما يذاب الملح في الماء.[5]

كَرَاهِيَة أَنْ تُعْرَى الْمَدِينَة

الذي يحب المدينة يحرص على الإقامة فيها، والرسول، صلى الله عليه وسلم، كره هجر المدينة، وحبب إلى المسلمين من حوله ومن بعده الحرص على الإقامة فيها، فعن أَنَسٍ، رضي الله عنه، قال: (أَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَتَحَوَّلُوا إلى قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فَكَرِهَ رسول الله، صلى الله

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي، صلى الله عليه وسلم، أن تعرى المدينة.
2. التخريج نفسه.
3. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب إثم من كاد أهل المدينة.
4. كشف المشكل: 1/ 243.
5. سيرة النبي المختار: 1 /85.

عليه وسلم، أَنْ تُعْرَى الْمَدِينَةُ، وقال: يا بَنِي سَلِمَةَ ألا تَحْتَسِبُونَ آثارَكُمْ، فَأَقَامُوا).[1] قوله: (تُعْرَى الْمَدِينَةُ) أي تصير خالية.[2] أي تخلو فتترك عراء، والعراء الفضاء من الأرض.[3]

ومعنى قوله: (ألا تَحْتَسِبُونَ) أي تعدون الأجر في خطاكم إلى المسجد، فإن لكل خطوة أجراً[4]، وعلل ذلك لئلا تخلو ناحيتهم من حراستها.[5]

ويبدو أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قصد بعداً ديموغرافياً من خلال التشجيع على عمارة المدينة بالساكنين، والتشجيع على الإقامة فيها.

من رَغِبَ عن الْمَدِينَة

عن أَبي هُرَيْرَة، رضي الله عنه، قال: سمعت رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: (يَتْرُكُونَ الْمَدِينَةَ على خَيْرِ ما كانت لا يَغْشَاهَا إلا الْعَوَافِ، يُرِيدُ عَوَافِيَ السِّبَاعِ وَالطَّيْرِ، وَآخِرُ من يُحْشَرُ رَاعِيَانِ من مُزَيْنَةَ، يُرِيدَانِ الْمَدِينَةَ، يَنْعِقَانِ بِغَنَمِهِمَا، فَيَجِدَانِهَا وَحْشًا، حتى إذا بَلَغَا ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ خَرَّا على وُجُوهِهِمَا).[6]

قوله: (على خَيْرِ ما كانت) أي على أحسن حالة كانت عليه من قبل، يعني أعمرها وأكثرها ثماراً.

وقوله: (لا يَغْشَاهَا إلا الْعَوَافِ) أي لا يقربها ولا يأتيها، إلاَّ طلاب الرزق من الدواب والطير، وقال ابن سيده: العافية والعفاة والعفاء الأضياف وطلاب المعروف، وقيل: هم الذين يعفونك؛ أي يأتونك يطلبون ما عندك، والعافي أيضاً الرائد والوارد؛ لأن ذلك كله طلب، قوله: (يُرِيدُ عَوَافِيَ السِّبَاعِ وَالطَّيْرِ) تفسير لقوله العواف، وقال ابن الجوزي: اجتمع

1. صحيح البخاري، كتاب أبواب فضائل المدينة، باب كراهية النبي، صلى الله عليه وسلم، أن تعرى المدينة.
2. فتح الباري: 4/ 100.
3. مقدمة فتح الباري: 1 /156.
4. عمدة القاري: 10 /248.
5. الموافقات: 2/ 131.
6. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة.

في العوافي شيئان: أحدهما أنها طالبة لأقواتها، من قولك: عفوت فلاناً أعفوه، فأنا عافٍ، والجمع عفاة، أي أتيت أطلب معروفة.

والثاني من العفاء، وهو الموضع الخالي الذي لا أنيس به، فإن الطير والوحش تقصده لأمنها على نفسها فيه. وقال عياض: وقد وجد ذلك حيث صارت - أي المدينة - معدن الخلافة، ومقصد الناس وملجأهم، وحملت إليها خيرات الأرض، وصارت من أعمر البلاد، فلما انتقلت الخلافة منها إلى الشام، ثم إلى العراق، وتغلبت عليها الأعراب، وتعاورتها الفتن، وخلت من أهلها؛ فقصدتها عوافي الطير والسباع، وذكر الإخباريون أنها خلت من أهلها في بعض الفتن التي جرت بالمدينة، وبقيت ثمارها للعوافي، كما قال، صلى الله عليه وسلم، وخلت مدة، ثم تراجع الناس إليها.

وقال عياض: هذا مما جرى في العصر الأول وانقضى، وهذا من معجزاته، صلى الله عليه وسلم، وقال النووي: المختار أن هذا الترك يكون في آخر الزمان عند قيام الساعة.

وقال المهلب: في هذا الحديث أن المدينة تُسْكن إلى يوم القيامة، وإن خلت في بعض الأوقات.(*)

سائلين الله العلي القدير أن يوفق لختم الحديث في الحلقة القادمة عن فضائل المدينة في ضوء بيان الرسول الأسوة، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* عمدة القاري: 10/ 237.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبين فضل مدينته المنورة ـ الحلقة الرابعة والأخيرة

عن سُفْيَانَ بن أبي زُهَيْرٍ، رضي الله عنه، أَنَّهُ قال: (**سمعت رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: تُفْتَحُ الْيَمَنُ؛ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بأهلهم وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لهم لو كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ الشام؛ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لهم لو كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ الْعِرَاقُ؛ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لهم لو كَانُوا يَعْلَمُونَ**).(*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى بيان أن الإيمان يسوق أهله إلى المدينة، انطلاقاً من حبهم للنبي، صلى الله عليه وسلم، الذي أحب المدينة، ومن آيات ذلك أنه كان إذا قَدِمَ من سَفَرٍ فَنَظَرَ إلى جُدُرَاتِ الْمَدِينَةِ أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ، وَإِنْ كان على دَابَّةٍ حَرَّكَهَا من حُبِّهَا، ومن فرط حب كبار الصحابة، رضي الله عنهم، للمدينة المنورة، أنهم تمنوا الموت فيها، وفي مقابل فضل حب المدينة، تم التطرق إلى قبح الكيد لها ولأهلها، والذي يحب المدينة يحرص على الإقامة فيها، والرسول، صلى الله عليه وسلم، كره هجر المدينة، وحبب إلى المسلمين من حوله ومن بعده الحرص على الإقامة فيها، وحذر من الرَغِب عنها، وقال: يَتْرُكُونَ الْمَدِينَةَ على خَيْرِ ما كانت لا يَغْشَاهَا إلا الْعَوَافِ.

والحديث أعلاه يظهر أن المدينة خير من بلاد الخصب المفتوحة كاليمن والشام والعراق، فيكفيها أنها مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم، المنورة، التي نصر أهلها الإسلام وقت أن ضاقت به وبأهله كثير من البلاد.

---

* صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة.

شرح الحديث

جاء في عمدة القاري، في قوله: (تفتح اليمن) قال ابن عبد البر وغيره: افتتحت اليمن في أيام النبي، صلى الله عليه وسلم، وفي أيام أبي بكر، رضي الله تعالى عنه، وافتتحت الشام بعدها، والعراق بعدها. وقوله: (يبُسُّون) بفتح الياء وضم الباء وتشديد السين، من بس يبس بساً، والبس سوق الإبل، تقول بس يبس، عند السوق وإرادة السرعة، قال الحربي: ومعناه يتحملون بأهليهم، وقيل: معناه يدعون الناس إلى بلاد الخصب، وقيل: معنى يبسون، يسألون عن البلاد وتستقر لأهلهم البلاد التي تفتح، ويدعونهم إلى سكناها، فيتحملون بسبب ذلك من المدينة، راحلين إليها، وقال النووي: الصواب أن معناه الإخبار عمن خرج من المدينة، متحملاً بأهله بأساً في سيره، مسرعاً إلى الرخاء والأمصار المفتتحة.

قوله: (لو كانوا يعلمون) أي بفضلها من الصلاة في المسجد النبوي وثواب الإقامة فيها، لأنها حرم الرسول، ومهبط الوحي، ومنزل البركات، أي لو كانوا من أهل العلم لعرفوا ذلك، ولما فارقوا المدينة، وفيه تجهيل لمن فارقها لتفويته على نفسه خيراً عظيماً.

وفيه معجزات للنبي، صلى الله عليه وسلم، لأنه أخبر بفتح هذه الأقاليم، وأن الناس يتحملون بأهاليهم، ويفارقون المدينة، وأن هذه الأقاليم تفتح على هذا الترتيب المذكور في الحديث. ووجد جميع ذلك، قوله: (ومن أطاعهم) أي ويتحملون بمن أطاع أهليهم من الناس.

قوله: (والمدينة خير لهم) الواو فيه للحال، وقال الطيبي: نكر قوماً لتحقيرهم وتوهين أمرهم، ثم وصفهم بقوله: (يبسون) إشعاراً بركاكة عقولهم، وأنهم ممن ركنوا إلى حطام الدنيا الفانية العاجلة، وأعرضوا عن الإقامة في جوار الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومهبط الوحي، ولذلك كرر (قوماً)، ووصفه في كل قرينة بقوله: (يَبُسُّون) استحضاراً لتلك الهيئة البهيمية.

وقال الطيبي أيضاً: الذي يقتضي هذا المقام أن ينزل (يعلمون) منزلة اللازم لينتفي عنهم العلم والمعرفة بالكلية، ولو ذهب مع ذلك إلى معنى التمني لكان أبلغ؛ لأن التمني طلب ما لا يمكن حصوله؛ أي ليتهم كانوا من أهل العلم، تغليظاً وتشديداً. وقالوا: المراد به الخارجون من المدينة رغبة عنها، كارهين لها، وأما من خرج لحاجة أو تجارة أو جهاد، أو نحو ذلك، فليس بداخل في معنى الحديث.[1]

لا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ الدَّجَّالُ ولا الطاعونُ

معلوم أن خروج الدجال من أمارات الساعة الكبرى، ومن صفاته أنه أعور، قال ابن عُمَرَ: (ثُمَّ قام النبي، صلى الله عليه وسلم، في الناس، فَأَثْنَى على الله بِمَا هو أَهْلُهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ، فقال: إني أُنْذِرُكُمُوهُ، وما من نَبِيٍّ إلا قد أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ، لقد أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ، وَلَكِنْ سَأَقُولُ لَكُمْ فيه قَوْلاً لم يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ؛ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَأَنَّ الله ليس بِأَعْوَرَ).[2]

ومع الدجال فتنة عظيمة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ألا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا عن الدَّجَّالِ ما حَدَّثَ بِهِ نَبِيٌّ قَوْمَهُ، إنه أَعْوَرُ، وَإِنَّهُ يجيء معه بِمِثَالِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَالَّتِي يقول إِنَّهَا الْجَنَّةُ هِيَ النَّارُ، وَإِنِّي أُنْذِرُكُمْ كما أَنْذَرَ بِهِ نُوحٌ قَوْمَهُ)[3]، وما تلك إلا فتنة واختبار لإيمان الناس، وإلا فالدجال وما معه ليس بشيء عند الله، فعن الْمُغِيرَةَ بن شُعْبَةَ، قال: (ما سَأَلَ أَحَدٌ النبي، صلى الله عليه وسلم، عن الدَّجَّالِ ما سَأَلْتُهُ، وأنه قال لي: ما يَضُرُّكَ منه؟ قلت: لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ معه جَبَلَ خُبْزٍ وَنَهَرَ مَاءٍ، قال: هو أَهْوَنُ على الله من ذلك).[4]

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يستعيذ بالله من فتنة الدجال، فعن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، كان يَدْعُو: أَعُوذُ بِكَ من الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ،

1. عمدة القاري: 10 /239.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي.
3. صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: { إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم }(نوح: 1) إلى آخر السورة.
4. صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال.

وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ).[1]

ومن فضائل المدينة المنورة أن الله تعالى أكرمها بأن حصنها من الطاعون والدجال، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (على أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلائِكَةٌ لا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ ولا الدَّجَّالُ).[2]

وجاء في الأحاديث الصحيحة تفصيل لحصانة المدينة المنورة من الدجال، ومن تلك الأحاديث، ما رواه أبو بَكْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ رُعْبُ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، لها يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، على كل بَابٍ مَلَكَانِ)[3].

وعن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ليس من بَلَدٍ إلا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إلا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، ليس له من نِقَابِهَا نَقْبٌ إلا عليه الْمَلائِكَةُ صَافِّينَ، يَحْرُسُونَهَا، ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاثَ رَجَفَاتٍ، فَيُخْرِجُ اللهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ)[4].

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حَدِيثًا طَوِيلاً عن الدَّجَّالِ، فَكَانَ فِيمَا حدثنا بِهِ أَنْ قال: (يَأْتِي الدَّجَّالُ وهو مُحَرَّمٌ عليه أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ الْمَدِينَةِ، ينزل بَعْضَ السِّبَاخِ التي بِالْمَدِينَةِ، فَيَخْرُجُ إليه يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هو خَيْرُ الناس، أو من خَيْرِ الناس، فيقول: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الذي حدثنا عَنْكَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حَدِيثَهُ، فيقول الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتَ إن قَتَلْتُ هذا، ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ، هل تَشُكُّونَ في الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لا، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فيقول حين يُحْيِيهِ: والله ما كنت قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ، فيقول الدَّجَّالُ: أَقْتُلُهُ، فلا أُسَلَّطُ عليه).[5]

---

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة النحل، باب قوله: {وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ}(النحل:70).
2. التخريج نفسه.
3. التخريج نفسه.
4. التخريج نفسه.
5. التخريج نفسه.

روضة من رياض الجنة في المسجد النبوي

ومن فضائل المدينة المنورة الجليلة، أن الله سبحانه جعل المسجد النبوي المقام على ثراها الطاهر، خير مساجد الدنيا بعد المسجد الحرام في مكة المكرمة، وأخبر عن روضة من رياض الجنة في جنباته، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (**ما بين بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ من رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي على حَوْضِي**).(*)

فنحمد الله تعالى أن يسر في هذه الحلقة والثلاث اللواتي سبقنها عرض بعض فضائل المدينة المنورة، حسب ما تثبته الأحاديث الصحيحة عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي، صلى الله عليه وسلم، أن تعرى المدينة.

الفصل الرابع
جهاد وأسرى

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم		
.1	يبين فضل الرباط في سبيل الله تعالى	161
.2	يبين ثواب الأم المحتسبة	165

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم
يبين فضل الرباط في سبيل الله تعالى

عن سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ من الْجَنَّةِ، خَيْرٌ من الدُّنْيَا وما عليها، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، أو الْغَدْوَةُ خَيْرٌ من الدُّنْيَا، وما عليها).(*)

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه الشريف هذا، فضل الرباط في سبيل الله تعالى، فرباط يوم في سبيل الله تعالى، خير من الدنيا وما عليها، فالله أكبر ما أعظمه من ثواب! وما أجزله من أجر! يوم يعدل الدنيا وما عليها، والناس يلهثون وراء جزء من الدنيا، فيحصلون يسيراً من الجزء، ويفوتهم كثيره، ثم ينتهي بهم المطاف إلى رحيل عن الدنيا وما عليها بموت، كل الخلق ذائقه، وكم من أيام تضيع من العمر بأحزان ومشاق ومصاعب وآلام؟ ولو أيقن أصحاب حسابات الربح والخسارة بهذا الوعد، لركضوا إلى استثمار أيامهم بالرباط في سبيل الله؛ جنياً لأرباح طائلة، وثروات عظيمة، لا حصر لها ولا عدد، الدنيا وما عليها ليوم مرابطة، فكيف إذا كانت أياماً وأسابيعَ وشهوراً وأعواماً؟

وفي كتاب أحكام القرآن، جاء أن قوله عليه السلام: (خير من الدنيا وما عليها)، فيه وجهان؛ أحدهما: أن يكون من باب تنزيل المغيب منزلة المحسوس؛ تحقيقاً له وتثبيتاً في النفوس، فإن ملك الدنيا ونعيمها ولذاتها محسوسة مستعظمة في طباع النفوس، فحقق عندها أن ثواب اليوم الواحد في الرباط، وهو من المغيبات خير من المحسوسات التي عهدتموها من لذات الدنيا، والثاني: أنه قد استبعد بعضهم أن يوازن شيء من نعيم الآخرة بالدنيا كلها، فحمل الحديث أو ما هو معناه على أن هذا الذي رتب عليه الثواب خير من الدنيا كلها، لو أنفقت في طاعة الله تعالى، وكأنه قصد بهذا أن تحصل الموازنة بين ثوابين أخرويين لاستحقاره الدنيا

* صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله.

في مقابلة شيء من الأخرى، ولو على سبيل التفضيل، والأول عندي أوجه وأظهر، والغَدْوة السير في الوقت الذي من أول النهار إلى الزوال، والروحة من الزوال إلى الليل، واللفظ مشعر بأنها تكون فعلاً واحداً، ولا شك أنه قد يقع على اليسير والكثير من الفعل الواقع في هذين الوقتين، ففيه زيادة ترغيب، وفضل عظيم.[1]

وفي حديث آخر وعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، بجزاء من نوع آخر للمرابط في سبيل الله تعالى، فوعده أن يفوق أجره ثواب الذي يصوم شهراً ويقومه، فعن سَلْمَانَ قال: سمعت رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: (**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، خَيْرٌ من صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عليه عَمَلُهُ الذي كان يَعْمَلُهُ، وأجرى عليه رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**)[2].

ومعلوم أن الذي يصوم شهر رمضان موعود بأن يغفر له الله ما تقدم من ذنبه، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (**من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ**).[3]

فيا لله ما أعظمه من أجر! وما أجزله من ثواب خص به المرابط في سبيل الله! فطوبى للمرابطين والمرابطات على ثغور أمة الإسلام، سائلين العلي القدير أن يجعلنا منهم.

مفهوم الرباط في سبيل الله تعالى وأهميته

قد يسأل بعض الناس عن المقصود بالرباط في سبيل الله، أو قد يتردد بعضهم في تحديد مفهومه، ومن المفيد هنا ذكر ما ورد في تحديد مفهوم الرباط، وفي كثير من المراجع والمواقع الإلكترونية، جاء أن الرباط هو: مراقبة العدو في الثغور المتاخمة لبلاده، وفي بعضها أنه الإقامة في الثغور، وهي: الأماكن التي يخاف على أهلها أعداء الإسلام، والمرابط هو: المقيم فيها المعد نفسه للجهاد في سبيل الله، والدفاع عن دينه وإخوانه المسلمين.[4]

1. إحكام الأحكام: 4/ 225.
2. صحيح مسلم، كتاب الأمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان.
4. ملتقى أهل الحديث http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=349318.

وحسب مفهوم الرباط، فإن أهل فلسطين يرابطون على ثغور الأمة، صغارهم وكبارهم، رجالهم ونساءهم، فهم مرابطون حتى وهم يقيمون في بيوتهم، ويعملون في أشغالهم، ويزرعون أرضهم؛ لأنهم في وجودهم على هذه الأرض المباركة يدفعون شراً كبيراً عن أمتهم، فيحولون بمرابطتهم دون استفحال الطامعين في وضع أيديهم على مزيد من أراضي المسلمين، والسيطرة على أملاكهم، واسترقاق أبنائهم، وتدنيس مقدساتهم الأخرى.

وقد فصل النبي، صلى الله عليه وسلم، في فضل القيام بمستلزمات الرباط في سبيل الله تعالى، ومن ذلك إعداد لوازم حماية الثغور، فعن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، يقول: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (من احْتَبَسَ فَرَسًا في سَبِيلِ اللهِ؛ إِيمَانًا بِاللهِ، وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ، فإن شِبَعَهُ، وَرِيَّهُ، وَرَوْثَهُ، وَبَوْلَهُ، في مِيزَانِهِ يوم الْقِيَامَةِ)[1]، ففي هذا الحديث جواز وقف الخيل للمدافعة عن المسلمين.[2]

الحث القرآني على المرابطة

ختمت سورة آل عمران بآية كلماتها محدودة، غير أنها تحوي موضوعات عديدة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[3]، فالله تعالى يأمر المؤمنين في هذه الآية الكريمة بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى، وليست مصادفة أن ترد المرابطة مقترنة بالصبر، فهي تحتاج إليه، وأهلها إن لم يتحلوا بالصبر فلن يتمكنوا من أداء واجب المرابطة، ورد في تفسير البحر المحيط، أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الوصايا التي جمعت الظهور في الدنيا على العدو، والفوز بنعيم الآخرة، فأمره تعالى بالصبر والمصابرة والرباط، فقيل: اصبروا وصابروا بمعنى واحد؛ للتأكيد، وقال الحسن وقتادة والضحاك وابن جريج: اصبروا على طاعة الله في تكاليفه، وصابروا أعداء الله في الجهاد، ورابطوا في الثغور

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من احتبس فرساً في سبيل الله.
2. فتح الباري: 6 /57.
3. آل عمران: 200.

في سبيل الله؛ أي ارتبطوا الخيل كما يرتبطها أعداؤكم، وقال أبي ومحمد بن كعب القرظي: هي مصابرة، وعد الله بالنصر؛ أي لا تسأموا، وانتظروا الفرج، وقيل: رابطوا استعدوا للجهاد، كما قال تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ...}.[1]

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمن الرسول، صلى الله عليه وسلم، غزو مرابط فيه، واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم: (ألا أَدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ، قالوا: بَلَى يا رَسُولَ الله، قال: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ على الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إلى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ).[2]

فعلى هذا؛ لا يكون رابطوا من باب المفاعلة، قال ابن عطية والقول الصحيح: هو أن الرباط هو الملازمة في سبيل الله، أصلها من ربط الخيل، ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور الإسلام مرابطاً فارساً، كان أو راجلاً.

وقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (فذلكم الرباط) إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله، إذ انتظار الصلاة إنما هو سبيل من السبل المنجية، والرباط اللغوي هو الأول، والمرابط في سبيل الله عند الفقهاء هو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما.[3]

فهذا هو الرباط وأهميته وفضله في ديننا الحنيف، حيث يجد المرابطون على أرضنا الطهور في ذلك مؤنسهم وما يقوي عزيمتهم، ويبث في نفوسهم الأمل، فمهما طال ظلام الليل، لا بد للفجر أن يبزغ ليوم مضيء جديد، ولا يقنط من روح الله إلا الضالون، نعوذ بالله أن نكون منهم، راجين أن نكون مع الذين اصطفاهم الله لخيرة خلقه، وعلى رأسهم رسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الأنفال: 60.
2. صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره.
3. تفسير البحر المحيط: 3/ 156.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يبين ثواب الأم المحتسبة

عن أبي سَعِيدٍ، جَاءَتْ امْرَأَةٌ إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت: (يا رَسُولَ الله؛ ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لنا من نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فيه، تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ الله، فقال: اجْتَمِعْنَ في يَوْمِ كَذَا وكَذَا، في مَكَانِ كَذَا وكَذَا، فَاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ الله، ثُمَّ قال: ما مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بين يَدَيْهَا من وَلَدِهَا ثَلَاثَةً، إلا كان لها حِجَابًا من النَّارِ، فقالت امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يا رَسُولَ الله؛ أو اثْنَيْنِ؟ قال: فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قال: وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ).[1]

يبشر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه هذا الأمهات المحتسبات الصابرات بحصانة مانعة من نار جهنم، وما أدراكم ما تلك النار؟! هي التي تلظى، ووقودها الناس والحجارة، نار السعير، وأقل أهلها عذاباً من يغلي دماغه من جمرة تحت قدمه، كما جاء في الحديث الصحيح عن النُّعْمَان، سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يوم الْقِيَامَةِ، لَرَجُلٌ تُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ، يَغْلِي منها دِمَاغُهُ).[2]

نار الجحيم تُحجب عن أمهات الشهداء اللواتي احتسبن أولادهن الذين ارتقوا عند الله، فهن المؤمنات الموقنات أن الدنيا ليست نهاية المطاف، والرحيل عنها ليس خسارة، ما دام الراحل لم يفرط في جنب الله، فكيف إذا كان من مقدمي الروح والدم لله، وفي سبيل الله؟! وورد في شرح الحديث أن قوله صلى الله عليه وسلم: (ما مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بين يَدَيْهَا من وَلَدِهَا ثَلَاثَةً)؛ أي من أولادها من البنين والبنات، ثلاثة، (إلا كان) أي تقدمهم وموتهم، ومعنى (لها): أي للمرأة، (حجاباً): أي ساتراً من النار. وكرر النبي، صلى الله عليه وسلم، قوله: (واثنين) ثلاث مرات للتوكيد.[3]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب تعليم النبي، صلى الله عليه وسلم، أمته من الرجال والنساء مما علمه الله ليس برأي ولا تمثيل.
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار.
3. مرقاة المفاتيح: 4 /209.

فطوبى لأمهات الشهداء هذا المقام المحمود، أن يُسترن من النار بأبنائهن الذين نالوا الحياة الحقيقية، والنعيم الخالد، بانتقالهم من الدنيا إلى الآخرة، مصداقاً لقوله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}.[1]

وبناء عليه؛ فلا عجب ما يُرى من الأم الفلسطينية الصابرة اليوم من عظيم الجلد، ورباطة الجأش، وهي تودع أولادها واحداً تلو الآخر، ممن نالت منهم آلة الغدر والعدوان، فارتقوا عند ربهم أحياء يرزقون، وما كان لهؤلاء الأمهات أن يكتسين بثياب الجلد تلك، لولا يقينهن بما أعد الله تعالى للشهداء وأهليهم من خير المنازل، وحسن الثواب، حتى إن سائر المؤمنين يرجون الله تعالى دائماً أن يحشرهم مع المنعم عليهم من الخلق يوم القيامة، إيماناً بصدق الوعد الإلهي المتضمن في قوله تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً}.[2]

جزاء الاحتساب والاسترجاع

طوبى لأم الشهيد ووالده جزاؤهما عند الله، كيف لا؟! وقد وعد سبحانه أن يهب صلاته ورحمته عموم الصابرين على البلاء ونقص الأنفس الذين يواجهون مصيبتهم بفقد الأحبة بالاسترجاع والاحتساب، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ* وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ* وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}.[3]

فهو وعد رباني، لعباده الصابرين، وقد قسم العلماء الصبر إلى أربعة أنواع، صبر على البلاء، وهو منع النفس من التسخيط والهلع والجزع، وصبر على النعم، وهو تقييدها بالشكر وعدم الطغيان، وعدم التكبر بها، وصبر على الطاعة بالمحافظة عليها، والدوام، وصبر عن المعاصي، بكف النفس عنها، وفوق الصبر التسليم، وهو ترك الاعتراض والتسخيط

1. آل عمران: 169.
2. النساء: 69.
3. البقرة: 153 - 157.

ظاهراً، وترك الكراهة باطناً، وفوق التسليم الرضا بالقضاء، وهو سرور النفس بفعل الله، وهو صادر عن المحبة، وكل ما يفعل المحبوب محبوب.[1]

ويُروى عن ابن مسعود، أنه قال: (**لأن أخر من السماء، أحب إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى ليته لم يكن**). [2]

فالصابرون الذين يسترجعون عند المصيبة، ويصبرون، وعدهم الله سبحانه بتنزل صلواته عليهم ورحمته، إضافة إلى الشهادة لهم بالهدى، وفي التفسير الكبير أن الصلاة من الله هي الثناء والمدح والتعظيم، وأما رحمته فهي النعم التي أنزلها بهم عاجلاً ثم آجلاً. ويذكر الرازي أن في قوله تعالى: {**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**} وجوهاً؛ أحدها: أنهم المهتدون لهذه الطريقة الموصلة بصاحبها إلى كل خير. وثانيها: المهتدون إلى الجنة، الفائزون بالثواب. وثالثها: المهتدون لسائر ما لزمهم، والأقرب فيه ما يصير داخلاً في الوعد.[3]

الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولى

ليس من الصبر على المصيبة شق الجيوب، ولا السخط، ولا قول ما لا يجوز، فعن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (**ليس مِنَّا من لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**).[4]

بل إن الصبر المقبول، الذي وعد الله أصحابه بجزيل المثوبة، يكون عند الفاجعة والعلم بها، فلا يغيب عن ذهن المصاب بالبلاء استحضار الإيمان بقدر الله وقضائه، بل ينطق لسانه بالاسترجاع، أي بقول: **إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ**، وروي في السنن عن أبي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (**إذا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ، قال الله لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نعم؛ فيقول: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نعم، فيقول: مَاذَا قال عَبْدِي؟**

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 1/ 65.
2. التفسير الكبير: 4 /141.
3. التفسير الكبير: 4 /141.
4. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب.

فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فيقول الله: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ).[1]

أما استقبال خبر المصيبة بالتأفف والضجر، فليس هو الحال الكريم، وفي حديث تلك المرأة التي رجعت إلى رشدها بعد الضجر عبرة، فعن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (مَرَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فقال: اتَّقِي اللهَ، وَاصْبِرِي، قالت: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لم تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، ولم تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لها: إنه النبي، صلى الله عليه وسلم، فَأَتَتْ بَابَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فلم تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فقالت: لم أَعْرِفْكَ، فقال: إنما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولى).[2]

لا يعني هذا بحال من الأحوال أن المطلوب تجرد المرء من عواطفه ومشاعره وأحزانه بالكلية، فهذا ينافي الطبيعة التي خلق الله الإنسان عليها، فهو يحزن للأسى، ويُسر للخيرات، ولكن ينبغي أن يشكر في السراء، ويصبر في الضراء، وأن لا يذهب بالأحزان إلى حال الاعتراض والسخط، عملاً بخير الهدي، كما جاء في الحديث الصحيح عن أُمِّ سَلَمَةَ، أنها قالت: (سمعت رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: (ما من مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فيقول ما أَمَرَهُ الله: {إِنَّا لله وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ} اللهم أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا منها، إلا أَخْلَفَ الله له خَيْرًا منها).[3]

فما أحوجنا إلى تلمس أبعاد هذه المعاني الإيمانية، ونحن نواجه آلة الدمار التي تزهق أرواح أبنائنا واحداً تلو الآخر، بكل استخفاف وتهاون، فلا يكاد يومٌ يمضي دون شهداء، فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فاللهمّ أجرنا وشعبنا الصابر المرابط وذوي الشهداء، وبخاصة أمهاتهم وآبائهم منا فيما يحل بنا وبهم من مصائب، وَأَخْلِفْ لنا ولهم خَيْرًا منها، وصلِّ اللهم وسلم على رسولنا الأسوة، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. سنن الترمذي، كتاب الجنائز عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب فضل المصيبة إذا احتسب، وحسنه الألباني.
2. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.
3. صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة.

الفصل الخامس
مناهج وقيم

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم		
.1	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة الأولى	171
.2	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة الثانية	175
.3	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة الثالثة	179
.4	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة الرابعة	184
.5	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة الخامسة	189
.6	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة السادسة والأخيرة	194
.7	بحث على ضبط اللسان – الحلقة الأولى	199
.8	بحث على ضبط اللسان – الحلقة الثانية	204
.9	بحث على ضبط اللسان – الحلقة الثالثة	209
.10	بحث على ضبط اللسان – الحلقة الرابعة	213
.11	بحث على ضبط اللسان – الحلقة الخامسة	218
.12	بحث على ضبط اللسان – الحلقة السادسة والأخيرة	223
.13	بحث على الكسب المشروع – الحلقة الأولى	228

.14	يحث على الكسب المشروع – الحلقة الثانية والأخيرة	232
.15	وعنايته بذوي الاحتياجات الخاصة	237
.16	ومواقفه عند الابتلاء بفقد الأحبة	242
.17	يحرم النياحة ويحذر من عواقبها الوخيمة	247
.18	يرعى المسنين ويحث على حفظ قدرهم ومراعاة حاجاتهم	252

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

حرص على أن يكون عبداً شكوراً ـ الحلقة الأولى

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (كان يَقُومُ من اللَّيْلِ حتى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فقالت عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هذا يا رَسُولَ الله، وقد غَفَرَ الله لك ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ؟ قال: أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا، فلما كَثُرَ لَحْمُهُ، صلى جَالِسًا، فإذا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ، قام فَقَرَأَ، ثُمَّ رَكَعَ).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، كان شديد الحرص على قيام الليل تعبداً لله تعالى، ولم يكن قيامه هذا مقتضباً أو سريعاً، بل كان طويلاً وشاقاً، بدليل أن قدميه الشريفتين كانتا تتفطران من طول القيام، ضارباً بذلك المثل الأعلى في الحرص على أداء العبادة التي يتقرب بها إلى الله تعالى، والمتمثلة هنا بالصلاة التي هي عمود الدين، وأحد أبرز أركان الإسلام، ومعلوم أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي كان يؤدي العبادة الليلية لله على هذا النحو، يعلم أن ربه عز وجل غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فالله تعالى خاطبه في فاتحة سورة الفتح، فقال جل شأنه: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً* وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً}.[2]

شكر الغفران

لقد لقيت نعمة غفران الذنوب التي تفضل الله بها على نبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم، كل تقدير منه واهتمام، فعن أَنَس بن مَالِكٍ، قال: (لَمَّا نَزَلَتْ: {إِنَّا فَتَحْنَا لك فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لك الله} إلى قَوْلِهِ: {فَوْزًا عَظِيمًا} مَرْجِعَهُ من الْحُدَيْبِيَةِ وَهُمْ يُخَالِطُهُمْ الْحُزْنُ وَالْكَآبَةُ وقد نَحَرَ الهديَ بِالْحُدَيْبِيَةِ، فقال: لقد أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ من الدُّنْيَا جميعاً).[3]

وما قوله صلى الله عليه وسلم عن نعمة مغفرة الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، بأنها

1. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الفتح، باب {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ...}(فتح:2).
2. الفتح: 1-3.
3. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية .

أَحَبُّ إليه من الدُّنْيَا جميعاً، إلا برهان آخر يؤكد فيه على تثمينه هذه النعمة الربانية الكبيرة، وتقديره لها، وشكر الله تعالى على تفضله بها عليه، لكنه لم يقابلها بالاسترخاء عن الاجتهاد في بذل المزيد من الطاعة، وأداء العبادة، وإنما كان منه الشكر الذي ترجمه إلى عبادة تفطرت منها قدماه من طول القيام لله، وكثرة الاستغفار، بخلاف كثير من الناس الذين يقول حالهم ومقالهم إنهم ليسوا بحاجة إلى الاستغفار والعبادة لزعمهم أنهم لا يقترفون كبائر الذنوب، ولا تقع منهم المعاصي، وهم في الأمرين مخطئون، إذ المعاصي تقع بعيون الناس وألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم، وجوارحهم كافة، ولا يكاد إنسان يخلو منها أو بعضها، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول بهذا الصدد: (كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)[1]، وخطأ أولئك الأول أنهم ينكرون وقوع الذنب منهم أو لا يستشعرونه، والثاني أنهم لا يدركون حاجتهم إلى الاستغفار، ولا يقومون بتكفير الذنوب بالطاعات، ظانين أن مقامهم عليّ، بخلاف صاحب المقام المحمود، صلى الله عليه وسلم، الذي زاده علمه بمغفرة ذنوبه السابقة والمتأخرة، حرصاً على تقديم المزيد من العبادة الليلية، وإطالة الاستغفار، عدا عن التزامه بأداء الفرائض والسنن الراتبة، وعلى نهجه سار أصحابه الميامين، من أمثال أميرهم، رضي الله عنه، الذي كان يقول: (لو أن رجلي الواحدة داخل الجنة، والأخرى خارجها، ما أمنت مكر الله).[2]

ذكر آلاء الله تعالى و شكرها

القرآن الكريم يحث المؤمنين على ذكر آلاء الله ونعمه، فيقول جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً}[3]، قال ابن عُيَيْنَةَ: {اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ} أَيَادِيَ اللهِ عِنْدَكُمْ وَأَيَّامَهُ.[4]

فنعم الله لا تعد ولا تحصى، مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ

1. سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، وحسنه الألباني.
2. طبقات الشافعية الكبرى: 4/135.
3. الأحزاب: 9.
4. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة إبراهيم.

رَّحِيمٌ}[1]، فنعمة الخلق بما فيه من سمع، وبصر، وعقل، وقدرة على الحركة، ونعمة اللطف، ونعمة النصر، والستر، والتوفيق، والإنجاب، والنجاح، والرزق، كل ذلك وغيره من أصناف النعم الجليلة التي تفضل الله تعالى بمنحها للإنسان، ينبغي له أن يشكرها بحسن التقرب إلى الله تعالى، والتذلل إليه سبحانه، واهب النعم، ورافع النقم، لا إله إلا هو، والله أمر المؤمنين بذكر نعمه عليهم، مشيراً إلى إحداها حين جاءهم جيش الأحزاب، فأرسل جلَّ وعلا عليهم ريحًا وجنودًا لم يرها المسلمون، وكرر الله التذكير بنعمة الإمداد الرباني للمؤمنين في سور قرآنية عديدة، ففي سورة التوبة يقول جل ذكره: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ* ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ}.[2]

وفي سورة الأنفال صرح الله تعالى بتسمية صنف من الجنود التي أمدهم بها، ولم يروها، فقال جل شأنه: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}[3]

وهو صنف المدد نفسه الذي تفضل به على نبينا المصطفى، صلى الله عليه وسلم، حين حاصره أعداء الله في الغار، لما كان في طريقه وصاحبه مهاجريْن إلى ربهما بالدين الذي أراده الله أن يكون هداية للعالمين ورحمة، وعن نعمة المدد هذه يقول تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.[4]

---

1. النحل: 18.
2. التوبة: 25 – 26.
3. الأنفال: 12.
4. التوبة: 40.

بالشكر تزيد النعم

ما أحوجنا ونحن نواجه استقطاب قوى المفسدين في الأرض ضدنا وديننا ومقدساتنا، إلى أن نلجأ إلى الله تعالى المؤيد بجنده وما أكثرهم وما أقواهم وأشد بأسهم! فهم الرياح، والأمطار، والملائكة، والرعب، وغير ذلك كثير مما يسلط الله على أعدائه والمشركين به أو الكافرين، فيجعلهم بجنده قاعاً صفصفاً، وتلك والله نعمة يمنها الله على أوليائه وأصفيائه، وبخاصة حين تستضعفهم قوى البغي والظلم والإفساد، ومد الأيدي إلى السماء؛ طلباً للمدد الرباني، والعون الإلهي، ليس عبثاً، ولا وهماً، ولا خرافة، وإنما هو كبد الحقيقة، وعين الصواب، فالله تعالى هو صاحب الأمر، والقادر على كل شيء، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}[1]، {...يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}[2]، وهو القائل جل ذكره: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}.[3]

فحق للنبي، صلى الله عليه وسلم، ولنا من بعده، بل يجب علينا أن نذكر آلاء الله ونعمه، ونشكرها بالطاعة، حتى يزيدنا الله من واسع فضله، ونبع نعمه، التي لا تنضب، وهو صاحب الوعد الذي سطره في كتابه الكريم، فقال جل شأنه: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}.[4]

جعلنا الله تعالى من ذاكري آلائه، وشاكري نعمه، على أمل أن يوفق الله إلى مواصلة الحديث عن جوانب أخرى من متعلقات الحرص على شكر نعم الله بالعبادة؛ فرائضها ونفلها، كما كان من قدوتنا وأسوتنا خير الأنام، وخاتم المرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى أزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. البقرة: 117.
2. آل عمران: 47.
3. النحل: 40.
4. إبراهيم: 7.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

حرص على أن يكون عبداً شكوراً ـ الحلقة الثانية

عن النبي، صلى الله عليه وسلم: (سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللهم أنت رَبِّي، لَا إِلَهَ إلا أنت، خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما صَنَعْتُ، أَبُوءُ لك بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لك بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فإنه لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنت، قال: وَمَنْ قَالَهَا من النَّهَارِ مُوقِنًا بها، فَمَاتَ من يَوْمِهِ قبل أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ من أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا من اللَّيْلِ وهو مُوقِنٌ بها، فَمَاتَ قبل أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ من أَهْلِ الْجَنَّةِ).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي كان شديد الحرص على أن يَقُومَ من اللَّيْلِ حتى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، على الرغم من أن الله تعالى غَفَرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِه وما تَأَخَّرَ، رد على السائلين عن سبب هذا الحرص والحال كذلك، فقال: (أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟!!)، وفي حديث سيد الاستغفار المثبت نصه أعلاه، يبرز صلى الله عليه وسلم اعترافه بالذنب، تواضعاً مع الله جلت عظمته، ومن ثم يرجو أن يغفر الله تعالى ذنبه، جاء ذلك بعد اعترافه بنعم الله تعالى عليه، حيث خاطب ربه عز وجل قائلاً: (أَبُوءُ لك بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ) قال الطيبي: اعترف أولاً بأن الله أنعم عليه، ولم يقيده؛ لأنه يشمل أنواع الإنعام، ثم اعترف بالتقصير، وأنه لم يقم بأداء شكرها، ثم بالغ فعده ذنباً، مبالغة في التقصير وهضم النفس. ويقول ابن حجر العسقلاني: يحتمل أن يكون قوله: (أبوء لك بذنبي) اعترف بوقوع الذنب مطلقاً ليصح الاستغفار منه، لا أنه عد ما قصر فيه من أداء شكر النعم ذنباً.[2]

وقوله: (أبوء بذنبي) إقرار بالذنب، ولهذا قال من قال من السلف: إني أصبح بين نعمة وذنب، فأريد أن أحدث للنعمة شكراً، وللذنب استغفاراً، لكن الشكر يكون بعد النعمة،

1. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار.
2. فتح الباري: 11/ 100.

والتوكل والرجاء يكونان قبلها.[1]

وهكذا الإنسان الصالح دائماً وأبداً يسعى جهده إلى شكر الله تعالى على نعمه وآلائه، بل إنه يدعو ربه أن يوفقه ليكون من الشاكرين، وفي هذا يقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.[2]

فهو يدعو الله تعالى أن يلهمه شكر نعمه، وما يوزع به نفسه أن يكفها عن كفران نعمة الله، وأصله من وزعته؛ أي دفعته، {قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ}؛ يعني أن أؤدي به شكر نعمتك.[3]

أعظم النعم وشكرها

نعم الله على الإنسان لا تعد ولا تحصى، ومن حسن الشعور بها إظهارها مقترنة بالشكر والامتنان، فيقول تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}[4]، والمراد بالنعمة هنا، كل ما أنعم الله به على العبد، من مال، وعافية، وهداية، ونصرة، والتحدث بالنعمة شكرها عملياً، وقد أرشد الله تعالى في سورة الضحى رسوله، صلى الله عليه وسلم، إلى بعض أنواع الشكر العملي على ما تفضل به عليه من النعم، وذلك بإيواء اليتيم كما آواه الله، وإعطاء السائل كما أغناه الله، وتعليم المسترشد كما علمه الله، وهذا من شكر النعمة، أي كما أنعم الله عليك، فتنعّم أنت على غيرك، تأسياً بفعل الله معك.

وقيل التحدث بنعمة الله هو التبليغ عن الله من آية وحديث، والنعمة هنا عامة؛ **لتنكيرها** وإضافتها، كما في قوله تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ}[5]؛ أي كل نعمة، ولكن الذي يظهر أنها في الوحي أظهر، أو هو أولى بها، أو

1. مجموع الفتاوى: 8/ 174.
2. الأحقاف: 15.
3. تفسير السمرقندي: 3/ 274.
4. الضحى: 11.
5. النحل: 53.

هو أعظمها، لقوله تعالى: {... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ...}[1][2]

ومن أدلة اعتبار الهداية إلى الإيمان من أكبر النعم وأعظمها، قوله تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}.[3]

فقوله تعالى هنا:{بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ} يحتمل أن يكون بمعنى ينعم عليكم، أو بمعنى يذكر إنعامه، وهذا ما استحسنه صاحب التسهيل لعلوم التنزيل؛ لأنه في مقابلة يمنون عليك.[4]

والاستقامة على الدين، والهداية إلى الصراط المستقيم، من أعظم النعم التي يتفضل الله عز وجل بها على العالمين، ففي كل ركعة يصليها المسلم تعبداً لله تعالى، يردد فاتحة الكتاب التي فيها دعاء طلب الهداية إلى طريق المنعم عليهم، وهي الصراط المستقيم، الذي يرجو المؤمن أن يوفقه الله إليه، وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، يَقُولُ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: (الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). قَالَ اللهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ). قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي – وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي – فَإِذَا قَالَ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). قَالَ هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ). قَالَ هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ).[5]

ومن النعم العظيمة التي تفضل الله بها على عباده المؤمنين، تأليف قلوبهم، فأصبحوا بنعمة الله وهدايته إخواناً بعد أن كانوا أعداء، وفي هذا يقول جل شأنه:{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً

1. المائدة: 3.
2. أضواء البيان: 8/ 570 – 571.
3. الحجرات: 17.
4. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 62.
5. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها.

وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.[1]

وما أحوجنا إلى تفضل الله تعالى علينا بنعمة الوحدة والوفاق، لنكون بنعمته إخواناً، كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى.

وتحصيل هذه النعم العظيمة وغيرها من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى يستوجب شكرها، حيث أتبع الله تعالى التذكير بنعمه أمراً بشكرها، فقال عز وجل: {فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}.[2]

سنة الأنبياء، عليهم السلام، في شكر النعم

أثنى الله تعالى على عباده الشاكرين، فقال تعالى: {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[3]، والمقصود بالشاكر هنا إبراهيم، عليه السلام، حيث جاءت هذه الآية الكريمة المادحة له تابعة لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.[4]

والرسول، صلى الله عليه وسلم، في استغفاره وشكره ربه، يسير على نهج المنعم عليهم من النبيين، الذين يعبرون عن شكر المنعم سبحانه بعبادته، والسجود له، والله تعالى يقول فيهم: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً}.[5]

والمقام لا يتسع لعرض مزيد من هذه السنة الحميدة، على أمل المتابعة لاحقاً، سائلين الله عز وجل أن يجعلنا من ذاكري آلائه، وشاكري نعمه، كما حرص قدوتنا وأسوتنا خير الأنام، وخاتم المرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى أزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. آل عمران: 103.
2. النحل: 114.
3. النحل: 121.
4. النحل:120.
5. مريم: 58.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

حرص على أن يكون عبداً شكوراً ـ الحلقة الثالثة

يأمر الله تعالى نبيه الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم، بالعبادة والشكر، فيقول جل شأنه: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ* بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ}.[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يعبر عن شكره الله تعالى على آلائه ونعمه بالحرص على التقرب إليه بالعبادة والاستغفار، كما جاء في الحلقتين السابقتين، على سنة إخوانه النبيين الذين مدح الله شكرهم، والأمر الرباني المتضمن في قوله تعالى: {فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ}، يظهر مدى الربط القرآني بين العبادة والشكر، فالله عز وجل أمر نبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم، بهما بصريح اللفظ، أي اعبد الله دون كل ما سواه من الآلهة والأوثان والأنداد، وكن من الشاكرين لله على نعمته عليك، بالهداية لعبادته، والبراءة من عبادة الأصنام والأوثان.[2]

وقد جاء هذا الأمر الإلهي تابعاً لبيان إحباط عمل المشركين وخسارتهم؛ لتنكرهم للحقائق وكفرهم النعم، فالتوجه إلى الله بالعبادة دون سواه، وشكره سبحانه على جزيل نعمه المتوجة بالهداية إلى الإيمان والرشاد، هو المنهج القويم والصراط المستقيم، بخلاف مناهج المشركين المفضية إلى الحبوط والخسران.

وأَمْرُ النبي، صلى الله عليه وسلم، بالعبادة والشكر، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يشير إلى مدى حاجة غيره من الناس إلى تنفيذ هذين الأمرين، كونهم من أهل الذنوب والخطايا.

---

1. الزمر: 65 – 66.
2. تفسير الطبري: 24/ 24 – 25.

ثناء الله على شكر أنبيائه وإنابتهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، في استغفاره ربه، وشكره، يسير على نهج المنعم عليهم من النبيين، الذين يعبرون عن شكر المنعم سبحانه بعبادته والسجود له، والله تعالى يقول فيهم: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً}.[1]

والأمر الإلهي بشكره سبحانه لم يقتصر توجيهه للنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بل شمل سائر الأنبياء والصالحين، وتجلى ذلك واضحاً في خطابه جل ذكره لكليمه موسى، عليه السلام، فقال تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ}.[2]

وأثنى الله تعالى على شكر نوح، عليه السلام، وتعبده لله تعالى، فقال جل شأنه: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً}.[3]

ومثل هذا الثناء صدر لإبراهيم، عليه السلام، فقال عز وجل: {شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[4]، حيث جاءت هذه الآية الكريمة المادحة تابعة لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[5]، فهو القانت الشاكر، والقنوت هنا هو الطاعة.

ونبي الله سليمان، عليه السلام، استشعر أهمية الشكر ومكانته عند الله، فعبر عن ذلك في موقف سجله القرآن الكريم، فقال تعالى: {... فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.[6]

---

1. مريم: 58.
2. الأعراف: 144.
3. الإسراء: 3.
4. النحل: 121.
5. النحل:120.
6. النمل: 40.

فسليمان، عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، ذكر فضل الله عليه؛ ليختبره، أيشكر، أم يكفر ويجحد؟ بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض، فإن النعم الكبار تزيدهم شراً أو بطراً، كما قال قارون لما آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، قال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي}.[1][2]

وأخبر القرآن الكريم عن تضرع سليمان، عليه السلام، إلى الله تعالى ليعينه على شكر نعمه سبحانه، فقال جل شأنه: {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}.[3]

ومن ثناء الله تعالى على سليمان، ما جاء في قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}[4]، وقوله تعالى: {إِنَّهُ أَوَّابٌ} تعليل لقوله {نِعْمَ الْعَبْدُ}، وهذا يدل على أنه إنما كان {نِعْمَ الْعَبْدُ}؛ لأنه كان أواباً، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى في أكثر الأوقات، وفي أكثر المهمات كان موصوفاً بأنه {نِعْمَ الْعَبْدُ}.[5]

ويثني الله جل ذكره على نبيه أيوب، عليه السلام، للسبب نفسه، فيقول سبحانه: {...إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}.[6]

والله عز وجل أتم نعمه على يوسف، عليه السلام، وعلى أبيه يعقوب وأجداده إسحق وإبراهيم، عليهم السلام، فقال تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.[7]

1. القصص: 78.
2. تفسير السعدي: 1/ 487.
3. النمل: 19.
4. ص: 30.
5. التفسير الكبير: 26/ 177 - 178.
6. ص: 44.
7. يوسف: 6.

وعلى إثر تكامل نعم الله على يوسف، عليه السلام، بادر إلى الإقرار بفضل الله عليه، فتوجه إلى الله سبحانه بالتضرع والدعاء، فقال تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}.[1]

فهذه نماذج لنعم الله التي منحها رسله وأنبياءه، فقابلوها عليهم السلام بالشكر والتقدير والعرفان، ليس بالقول المعبر عن ذلك والدعاء فحسب، وإنما بالطاعة المطلقة لله تعالى وعبادته سبحانه، فاستحقوا بذلك ثناء الله تعالى وشكره، وهكذا ينبغي أن تكون المواقف المحمودة من العباد تجاه ربهم، يشكرون نعمه، ويعبدونه حق العبادة، ويطيعونه حق الطاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر، فإذا تحقق ذلك منهم إضافة إلى شكر الله تعالى على نعمه وآلائه، فإنهم يكونون جديرين بإكرام المنعم سبحانه، فيسبغ عليهم المزيد من نعمه التي نسأله تعالى أن يشملنا بها، نحن وأمتنا وقدسنا وأقصانا.

تنوع أساليب الحث على شكر الآلاء والنعم

تنوعت أساليب الحث القرآني على ذكر آلاء الله تعالى وشكرها، ما بين الأمر الصريح بذلك، وبين إنكار الشك بها وجحودها، وبين الإشادة بذكرها وشكرها، فقد أمر الله تعالى بشكر المتفضل بالنعم على العباد، وحذر من جحودها وإنكارها، فقال تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ}[2]، وقال جل شأنه: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[3]، وقوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} تكرر ذكره في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة.

وأنكر الله تعالى على المرتابين في الاعتراف بنعم الله عليهم، فقال تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكَ تَتَمَارَى}.[4]

---

1. يوسف: 101.
2. البقرة: 152.
3. إبراهيم: 7.
4. النجم: 55.

ومعنى تتمارى: تتشكك، والخطاب لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، أو للإنسان على الإطلاق، وقد عدد نعماً ونقماً، وسماها كلها آلاء من قبيل ما في النقمة من المزاجر، والمواعظ للمعتبرين.[1]

ومن أساليب الحث القرآني على ذكر آلاء الله تعالى وشكرها، الاحتفاء ببيان فضل الشاكرين، فلما أخبر الله جل ذكره عن إهلاك قوم لوط، باستثناء آله المؤمنين، نجاهم الله من الحاصب بسحر، ذكر سبحانه وتعالى أن هذه النجاة كانت نعمة منه سبحانه، تفضل الله بها عليهم جزاء شكرهم، فقال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ* نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ}.[2]

على أمل أن تتيسر المتابعة لاحقاً للوقوف عند جوانب أخرى تتعلق بالحرص على التزام جانب العبادة والشكر، سائلين الله عز وجل أن يجعلنا من ذاكري آلائه، وشاكري نعمه، كما حرص قدوتنا وأسوتنا خير الأنام، وخاتم المرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى أزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الكشاف: 4/ 429.
2. القمر: 33 – 35.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

حرص على أن يكون عبداً شكوراً ـ الحلقة الرابعة

يُذّكر الله تعالى المسلمين بنعمة أكرم بها نبيهم محمداً، صلى الله عليه وسلم، وصحبه، رضي الله عنهم، فقال جل شأنه: {فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}[1]

تلكم النعمة تفضل الله تعالى بها عليهم، حين كتب لهم السلامة والأمن والنصر دون قتال، وتبين الآية الكريمة أنهم لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، وردَّ عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء، مما أضمر لهم عدوهم.[2] وقيل: إن المراد هنا العودة بالسلامة والظهور في اتباع العدو، إلى جانب العودة بفضل في الأجر الذي حازوه.[3]

وروي عن ابن عباس، قال: (لما انصرف المشركون عن أحد، وبلغوا الروحاء، قالوا: لا محمداً قتلتموه، ولا الكواعب أردفتم، وبئس ما صنعتم، ارجعوا، فبلغ ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فندب الناس، فانتدبوا، حتى بلغوا حمراء الأسد، وبئر أبي عتيبة، فأنزل الله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}.[4]

واللافت للانتباه قوله تعالى: {وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللهِ}، الذي جاء تابعاً لذكر الانقلاب بالنعمة

1. آل عمران: 174.
2. تفسير ابن كثير: 1 /432.
3. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 1 /543.
4. آل عمران: 172.

والفضل، حيث ألبس الله تعالى نعمة طاعتهم لله تعالى، ورسوله، صلى الله عليه وسلم، ثوب الرضوان الرباني، وتلك نعمة تكتمل بها الخيرات السالفة.

الاستبشار بالنعم

في الآية الكريمة السابقة كان الانقلاب بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ، وورد في آيات قرآنية أخرى ذكر للاستبشار بالنعمة، فقال جل شأنه: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}.[1]

والمراد بالاستبشار هنا السرور بالثواب الذي نالوه، والحديث يدور هنا عن الشهداء، حيث سبق هذه الآية الكريمة قوله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[2]، فهذه الآيات تبين فضل الشهداء وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من نعمه وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم، وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل الله، والتعرض للشهادة، فقال: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً}؛ أي لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا، والتمتع بزهرتها.[3]

وقوله تعالى: {...بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[4]، فيه بيان لحال الشهداء يتمتعون بالأرزاق مثل الذين لم تقبض أرواحهم، بخلاف الذين يموتون دون شهادة، فلم يخبر الله عن أرزاق صالحيهم بعد موتهم وقبل دخولهم الجنة.

1. آل عمران: 171.
2. آل عمران: 169 - 170.
3. تفسير السعدي: 1 /156.
4. آل عمران: 169.

وهناك استبشار آخر أشارت إليه الآية التالية، ويتعلق باستبشار الشهداء بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، أي يبشر بعضهم بعضاً بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، وأنهم سينالون ما نالوا.[1]

وتلك لعمري نعمة مميزة يستشعر فضلها أصحاب الفطرة السوية، الذين يتوقون لأن يكون أحبابهم بخير، قريبين منهم، يشاركونهم التمتع بالخيرات، فيأنسون بهم، وتقر أعينهم، من هنا يحرص المؤمن على أن يدعو الله تعالى بأن يهبه من الأزواج والذرية الذين تقر بهم عينه، كما جاء في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}.[2]

المؤمن الشاكر الصابر المحتسب

المؤمن الشاكر هو المطيع لله، المستبشر بنعمه، في الدنيا والآخرة، وهكذا ينبغي أن يكون دائماً، في أحواله كلها، لأنه مميز بشكر السراء، والصبر على الضراء، حسب الحديث الصحيح، عن صُهَيْبٍ قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إن أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا له، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا له).[3]

من هنا يتضح مفهوم الجزاء الذي أعده الله تعالى للصابرين المحتسبين، وبخاصة من ذوي الشهداء الذين يبتلون فيصبرون ويسترجعون، حيث يقول رب العزة في محكم التنزيل: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}.[4]

1. تفسير السعدي: 1 /157.
2. الفرقان: 74.
3. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.
4. البقرة: 155 – 157.

ومن حسن عزاء ذوي الشهداء، أن أحبابهم الذين قضوا نحبهم في سبيل الله بشرهم الله في قرآنه، والنبي، صلى الله عليه وسلم، في حديثه وسنته بحسن الجزاء وأرفعه، ومن ذلك ما تضمنته الرواية الصحيحة عن مَسْرُوقٍ، قال: (سَأَلْنَا عَبْدَ الله عن هذه الْآيَةِ: {ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} قال: أَمَا إِنَّا قد سَأَلْنَا عن ذلك، فقال: أَرْوَاحُهُمْ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لها قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ من الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إلى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً، فقال: هل تَشْتَهُونَ شيئاً؟ قالوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ من الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟! فَفَعَلَ ذلك بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فلما رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا من أَنْ يُسْأَلُوا، قالوا: يا رَبِّ؛ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا في أَجْسَادِنَا، حتى نُقْتَلَ في سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فلما رَأَى أَنْ ليس لهم حَاجَةٌ، تُرِكُوا).[1]

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول كذلك: (لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ في سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ).[2]

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ في سَبِيلِ اللهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ في سَبِيلِهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ).[3] ويقين المؤمن بهذه الوعود الصادقة، يعزز صبره واحتسابه، فلا يغفل عند تعرضه لفراق الأحبة واستشهادهم عن الاسترجاع الذي أرشده إليه الله تعالى، دون أن يسوف في ذلك أو يؤخر؛ لعلمه أن الصبر المعتبر إنما يكون عند الصدمة الأولى.

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله وقاب قوس أحدكم من الجنة.
3. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله عز وجل.

الصبّار الشكور

لم يقتصر القرآن الكريم على الربط ما بين النعم وشكرها بالطاعة، المعبرة عن استشعار فضل المنعم سبحانه والتعبير عن ذلك بالشكر اللساني، وما تقوم به الجوارح الأخرى من طاعة وعبادة عملية، بل ورد الربط الوثيق أيضاً بين الشكر والصبر، فإدراك فضل النعم والقيام بشكرها لسانياً وتعبدياً، يتطلب جهوداً وصبراً، من هنا وصف الله المتعظ بالآيات بالصبّار والشكور، فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[1]، والصبار كثير الصبر، والشكور كثير الشكر.[2]

والرازي في تفسيره الكبير يقول: فالحال إما أن يكون حال محنة وبلية، أو حال منحة وعطية، فإن كان الأول كان المؤمن صباراً، وإن كان الثاني كان شكوراً، وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين، فإن جرى الوقت على ما يلائم طبعه، ويوافق إرادته، كان مشغولاً بالشكر، وإن جرى ما لا يلائم طبعه، كان مشغولاً بالصبر.[3]

على أمل أن يتيسر الوقوف لاحقاً عند جوانب أخرى تتعلق بالحرص على التزام جانب العبادة والشكر، سائلين الله عز وجل أن يجعلنا من ذاكري آلائه، وشاكري نعمه، كما حرص قدوتنا وأسوتنا خير الأنام، وخاتم المرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى أزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. لقمان: 31.
2. تفسير البغوي: 3 /26.
3. التفسير الكبير: 19 /67.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

حرص على أن يكون عبداً شكوراً ـ الحلقة الخامسة

بعثته صلى الله عليه وسلم من أعظم الآلاء التي أنعم الله بها على المؤمنين، فيقول تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ}.[1]

والمؤمنون يشكرون نعمة اهتدائهم إلى الإسلام الذي جاءهم به النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، فيؤمنون، ويستقيمون ويطيعون الله تعالى، ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وعلى لسان الذي نجا من غواية قرين الكفر والسوء، يقول تعالى: {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}.[2]

جاء ذلك في سياق حوار دار في الآخرة بين فريقي الإيمان وغيرهم، فالذي نجا حين يرى قرينه الكافر الجاحد كيف يتلظى في الجحيم، يذكر نعمة الله عليه بالهداية، فقال تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ* قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ* يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ* أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ* قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ* فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ* قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ* وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}.[3]

ومعنى قوله تعالى هنا: {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِي} بالهداية والعصمة. وقوله: {لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}؛ أي من الذين أُحْضِرُوا العذاب، كما أُحْضِرتَه أنت وأضرابك.[4]

---

1. آل عمران: 164.
2. الصافات: 57.
3. الصافات: 50 – 57.
4. تفسير أبي السعود: 7/ 193.

المؤمنون يشكرون نعم الله بالسمع والطاعة للمنعم تعالى

الله جل في علاه أمر المؤمنين أن يذكروا نعمه، فقال تعالى: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.[1]

للرازي في تفسيره الكبير وقفة جميلة عند هذه الآية الكريمة، فيقول: لما ذكر هذا التكليف -أمر المؤمنين بذكر نعمة الله عليهم- أردفه بما يوجب عليهم القبول والانقياد، وذلك من وجهين؛ الأول كثرة نعم الله عليهم، ومعلوم أن كثرة النعم توجب على المنعم عليه الاشتغال بخدمة المنعِم والانقياد لأوامره ونواهيه، ولم يتم التعرض لذكر الكثرة هنا، حيث ذكر نعمة وليس النعم؛ لأن المقصود هنا التأمل في جنس نعم الله، لا في إحصاء عددها؛ فجنسها لا يقدر غير الله عليه، فمن الذي يقدر على إعطاء نعمة الحياة، والصحة، والعقل، والهداية، والصون عن الآفات، والإيصال إلى الخيرات جميعها في الدنيا والآخرة، ومعلوم أن النعمة متى كانت على هذا الوجه، كان وجوب الاشتغال بشكرها أتم وأكمل.

والأمر بالتذكر هنا مشعر بسبق النسيان، فهي لكثرتها وتعاقبها، صارت كالأمر المعتاد، فصارت غلبة ظهورها وكثرتها سبباً لوقوعها في محل النسيان، مما اقتضى الأمر بذكرها.

والوجه الثاني للأسباب التي توجب القبول والانقياد لتكاليف الله تعالى، حسب ما جاء في الآية الكريمة، هو الميثاق الذي واثقهم الله تعالى به، والمواثقة المعاهدة التي قد أحكمت بالعقد، وللمفسرين في تفسير هذا الميثاق وجوه، منها أن المراد هو المواثيق التي جرت بين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبينهم، في أن يكونوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر، وفيما يحبون ويكرهون، مثل مبايعته مع الأنصار في أول الأمر، ومبايعته عامة المؤمنين تحت الشجرة، وغيرهما.[2]

---

1. المائدة: 7.
2. التفسير الكبير: 11/ 141 - 142.

ولو عمل الإنسان وفق هذه المعاني الجلية، ما وجد على ظهر الأرض كافر ولا جاحد، فالخلق كلهم يتمتعون بنعم الخالق سبحانه، في وجودهم، وبقائهم، وقضاء حاجاتهم، وفي التلذذ بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى، والتي لو قدروا أبسطها وأصغرها حق قدرها لأطاعوا الله وعبدوه، علماً أنهم لن يبلغوا حد شكرها، وقد نبه الله تعالى إلى ضعف حالة شكر العباد الموازية لبعض النعم التي تفضل الله بها عليهم في أجسادهم، ويحتاجونها في معاشهم وحلهم وترحالهم، فقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}.[1]

وفي سورتين أخريين تكرر التأكيد الرباني على هذا الربط بين مقابلة نعم السمع والبصر والفؤاد وبين قلة الشكر، وذلك في سورة السجدة آية (9)، وفي سورة الملك آية (23)، وذكر السمع والبصر والأفئدة، وهي القلوب لعظم المنافع التي فيها، فيجب شكر خالقها، ومن شكره توحيده، واتباع رسوله، صلى الله عليه وسلم، ففي ذكرها تعديد نعمة، وإقامة حجة.[2]

وفي سورة النحل تم التذكير بهذه النعم مع بيان غايته، وهو مقابلتها بالشكر، فقال تعالى: {...وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.[3]

فالله ذكر هذه النعم الجسام لنشكره عليها، وفي واقع الخلق لا يكاد أحد يذكرها، إلا عند اختلالها، أو فقدها، ثم صرح بالسبب، فقال: {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.[4]

والتقرب إلى الله تعالى بالعبادة من أسمى النعم وأرفعها، التي يستبشر بها العابدون وحق لهم ذلك، فعن أبي مُوسَى قال: (كنت أنا وَأَصْحَابِي الَّذِينَ قَدِمُوا مَعِي فِي السَّفِينَةِ نُزُولًا فِي بَقِيعِ

1. المؤمنون: 78.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 3/ 55.
3. النحل: 78.
4. قواعد الأحكام في مصالح الأنام: 1/ 138.

بُطْحَانَ، وَرَسُولُ الله، صلى الله عليه وسلم، بِالْمَدِينَةِ فَكَانَ يَتَنَاوَبُ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، عِنْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ كُلَّ لَيْلَةٍ نَفَرٌ منهم، قال أبو مُوسَى: فَوَافَقْنَا رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، أنا وَأَصْحَابِي، وَلَهُ بَعْضُ الشُّغْلِ في أَمْرِهِ، حتى أَعْتَمَ بِالصَّلَاةِ حتى إبهار اللَّيْلُ، ثُمَّ خَرَجَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فَصَلَّى بِهِمْ، فلما قَضَى صَلَاتَهُ، قال لِمَنْ حَضَرَهُ: على رِسْلِكُمْ أُعْلِمُكُمْ، وَأَبْشِرُوا أَنَّ من نِعْمَةِ الله عَلَيْكُمْ أَنَّهُ ليس من الناس أَحَدٌ يُصَلِّي هذه السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ، أو قال: ما صلى هذه السَّاعَةَ أَحَدٌ غَيْرُكُمْ، لَا نَدْرِي أَيَّ الْكَلِمَتَيْنِ قال، قال أبو مُوسَى: فَرَجَعْنَا فَرِحِينَ بِمَا سَمِعْنَا من رسول الله، صلى الله عليه وسلم).[1]

شكر سعي المؤمنين

الله جل في علاه يشكر سعي عباده المؤمنين وعملهم الصالح، فيقول جل شأنه: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً}.[2]

فالله يجازي الشاكرين بالشكر، مصداقاً لقوله تعالى: {مَّا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ الله شَاكِراً عَلِيماً}[3]، يقول الرازي: (لأنه تعالى لما أمرهم بالشكر سمى جزاء الشكر شكراً على سبيل الاستعارة، فالمراد من الشاكر في حقه تعالى كونه مثيباً على الشكر، والمراد من كونه عليماً أنه عالم الجزئيات جميعها، فلا يقع الغلط له ألبتة، فلا جرم يوصل الثواب إلى الشاكر، والعقاب إلى المعرض).[4]

وشكر الله السعي الحسن للعباد، فقال جل شأنه: {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً}[5]، ومعنى السعي المشكور هنا، المرضي المقبول المقابل بالثواب.[6]

1. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها.
2. الإسراء:19.
3. النساء: 147.
4. التفسير الكبير: 11/ 71.
5. الإنسان: 22.
6. تفسير أبي السعود: 9/ 75.

مع التنويه إلى أن الشاكرين في الغالب ليسوا أغلبية، وإنما هم قلة، مصداقاً لقوله تعالى: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}[1]؛ أي أن العاملين بطاعة الله شكراً لنعمته سبحانه قليلو العدد، والشكر بالإضافة إلى قلة أصحابه، فهو أيضاً قليل الكم بالمقارنة مع عظيم النعم، فيقول تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}.[2]

على أمل أن يتيسر ختم الوقوف عند جوانب الحرص على التزام جانب العبادة المعبرة عن شكر النعم، بالوقوف عند موضوع عقاب الجاحدين، سائلين الله عز وجل أن يجعلنا من ذاكري آلائه، وشاكري نعمه، كما حرص قدوتنا وأسوتنا خير الأنام، وخاتم المرسلين العابد الشاكر محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى أزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. سبأ: 13.
2. الأعراف: 10.

يخاطب رب العزة جل جلاله، نبيه، صلى الله عليه وسلم، فيقول: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}.[1]

ورد في التفسير أن هذه الآية الكريمة نزلت في أهل مكة، حيث أسكنهم الله تعالى حرمه الآمن، وجعل عيشهم في السعة، وبعث فيهم محمداً، صلى الله عليه وسلم، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة.[2]

والله تعالى يسأل نبيه، صلى الله عليه وسلم، في هذه الآية الكريمة سؤال إثارة وتنبيه، لا سؤال استفهام، قائلاً: (ألم تر) أي ألم تنظر إلى الكافرين الجاحدين؟ الذين بدلاً من أن يشكروا نعمة الله؛ أن أنزل عليهم هذا الدين القويم الذي جئتهم به، كفروا، فأنزلوا قومهم النار دار الهلاك، وفي الصحيح، عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، (**{الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا} قال: هُمْ والله كُفَّارُ قُرَيْشٍ. قال عَمْرٌو: هُمْ قُرَيْشٌ وَمُحَمَّدٌ، صلى الله عليه وسلم، نِعْمَةُ اللهِ {وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} قال: النَّارَ يوم بَدْرٍ**).[3]

فالذين بدلوا نعمة الله كفراً هم الكفار من أهل مكة، أهلكوا قومهم يوم بدر، فأدخلوا النار، والبوار الهلاك، وسميت جهنم دار البوار؛ لإهلاكها من يدخلها.[4]

توعد جاحدي النعم

بعد الوقوف عند جوانب من موضوع جزاء شاكري النعم، الذي جاء في سياق الحديث عن موضوع الحرص على شكر النعم بالعبادة والطاعة، تختم هذه الحلقة الحلقات الخمس

1. إبراهيم: 28.
2. التفسير الكبير: 19 /97.
3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل.
4. عمدة القاري: 17/ 92 - 93.

السابقة، التي تناولت هذا الموضوع، وذلك بالتعريج على بعض القضايا المتعلقة بجحود النعم، فكما وعد الله تعالى الشاكرين بالمزيد من مدده سبحانه، فقد توعد الكافرين الجاحدين بعذابه الشديد، فقال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}.[1]

فشاكرو النعم، وذاكرو الآلاء، يقابلهم كافروها وجاحدوها، الذين توعدهم الله بالويل، فقال سبحانه: {فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}[2]، وفي سورة المرسلات تكرر هذا الوعيد في عشر آيات منها، فقوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} جاء في الآيات: 15، 19، 24، 28، 34، 37،40، 45 ،47، 49، إضافة إلى مجيئه في الآية العاشرة من سورة المطففين كذلك.

وتوعد الله الجاحدين والمكذبين، بألوان من السخط، التي منها استبدال النقم بالنعم، أي أن الله يقلب حال التنعم على الذين لم يقدروا لهذه النعم قدرها، بنقم يسلطها عليهم في صور شتى.

تنوع أساليب وعيد الجاحدين

في القرآن الكريم وعيد لجاحدي النعم، وتبكيت حالهم، جاء ذلك بأساليب عديدة، منها الإنكار عليهم بالسؤال الاستنكاري، بعد التذكير بنعم الله تعالى عليهم، كما في قوله تعالى: {...أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ}[3]، وكما أن السؤال هنا يفيد استنكار جحودهم نعم الله، فإن استنكاراً آخر وجه إليهم في بعض الآيات القرآنية؛ لإيمانهم بالباطل وكفرهم بنعم الله، فقال تعالى: {...أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}.[4]

ومن هذه الأساليب الوعيد والتهديد، كما في قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ

1. إبراهيم: 7.
2. الطور: 11.
3. النحل: 71.
4. النحل: 72.

بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}.[1]

ومنها نعي حال الجاحدين، وتعرية مواقفهم، كما في قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ}.[2]

ومن أساليب تبكيت حال جاحدي النعم، إعلامهم أن ما ظنوه نعمة، إنما هو فتنة، فقال تعالى: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[3]، يعني تلك النعمة فتنة، أي استدراج من الله، وامتحان وبلية، وقيل: بل الكلمة التي قالها الإنسان {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ} فتنة، وأكثر الناس لا يعلمون أنه استدراج وامتحان.[4]

وفي سياق الحديث عن النعم وشكرها، ساق القرآن الكريم بعض خصائص الجاحدين، فقال تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ}.[5]

فهذا الصنف من الناس يتوسل إلى الله في الشدة، ويتنكر في الرخاء، ويعرض عن الشكر الواجب، وهذه الخصيصة يشترك فيها جنس الإنسان من هذا الصنف، وفي هذا يقول تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً}.[6]

تسبب كسب الأيدي بتبدل النعم إلى نقم

ما كان الخسران ليلحق بجاحدي النعم لولا أنهم اختاروا هذا السبيل، وسلكوا طريقه، فالله تعالى يقول: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.[7]

1. الزمر: 8.
2. فصلت:51.
3. الزمر: 49.
4. تفسير البغوي: 4/ 82.
5. هود: 10.
6. الإسراء: 83.
7. الأنفال: 53.

وقد جرت سنة الله في خلقه أن لا يبدل نعمه عليهم إلا إذا وجدت أسباب من ذنوبهم وعصيانهم، ومن الآيات القرآنية التي تؤكد هذا المعنى، قوله تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ...}.[1]

وفي المجمل؛ فإن الله تعالى يجازي الناس بما تكسب أيديهم، فيقول تعالى: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}.[2]

ويقول سبحانه:{مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ...}.[3]

وضرب الله تعالى في قرآنه الكريم مثلاً بالقرية التي كفرت بأنعمه سبحانه، فانقلب نعيمها إلى سخط، تجرعت مرارته بلباس الجوع والخوف، فقال تعالى: {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ}.[4]

ومن هذا القبيل المثل الذي ضربه الله تعالى في سورة الكهف في الآيات الكريمة 32 – 44، بصاحب الجنتين مِنْ أَعْنَابٍ، والذي بعد جحده النعمة أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً، وفي الآيات الكريمة 17 – 33 من سورة القلم، ضرب الله تعالى مثلاً بأصحاب الجنة، الذين أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ، فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ، جراء منعهم المسكين حقه فيها، ثم شهدوا على أنفسهم أنهم ضالون وظالمون وطاغون، على إثر معاينتهم الحقيقة، فعبروا عن شديد ندمهم، بعد أن صار حالهم وجنتهم مثلاً لعذاب الله تعالى في الدنيا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

---

1. الرعد: 11.
2. الشورى: 30.
3. النساء: 79:
4. النحل: 112.

الكيس من يتعظ ويعتبر

الأمثلة في آيات القرآن الكريم كثيرة على صعيد بيان مآل جاحدي النعم، سيقت للاعتبار والاتعاظ والكيس من يتعظ بغيره، والقرآن الكريم يشير بالتصريح أحياناً، وبالتلميح أخرى، إلى هذا الهدف من ذكر الأمثلة والأخبار، كحديثه عن القرى التي بطرت معيشتها، فيقول تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}.[1]

يقول الزمخشري: هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم، كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن، وخفض العيش، فغمطوا النعمة، وقابلوها بالأشر والبطر، فدمّرهم الله، وخرّب ديارهم.[2]

وبالتأكيد أن التخويف من عاقبة البطر، وكفر النعم، لا يقتصر على قوم دون غيرهم، بل يشمل الناس جميعاً، ونحن منهم، فالويل لأهل البطر، وطوبى للشاكرين الحامدين، الذين أنعم الله عليهم بشكر سعيهم!

سائلين الله عز وجل أن يجعلنا من ذاكري آلائه، وشاكري نعمه، كما حرص قدوتنا وأسوتنا خير الأنام، وخاتم المرسلين العابد الشاكر محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى أزواجه وأصحابه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. القصص: 58.
2. الكشاف: 3 /428.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على ضبط اللسان ـ الحلقة الأولى

قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (من كان يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيرًا، أو لِيَصْمُتْ).[1]

خلق الله للإنسان جوارحَ، منها اللسان، إن استخدمها في الخير نال أجراً وثواباً، وإن تعثر في استخدامها عن درب الخير إلى الشر حصد جراء ذلك ويلاً وثبوراً، واللسان من أعظم الآيات الناطقة بقدرة الله تعالى، فهذه القطعة اللحمية كفيلة بإخراج الكلام بلغات مختلفة، ولهجات متنوعة، ونبرات عديدة، حركة بسيطة وإذا بكلام منظوم من حروف عديدة يخرج دالاً على معانٍ محددة، ويمكن أن تغير اللغة عبر اللسان، فهو في الآن نفسه ينطق بلغات مختلفة، سبق له أن تعلمها، وتمرس على التلفظ بكلماتها المنسوجة من حروفها، فسبحان من خلقه، وأودع فيه هذه الخصائص، وقد نبه عز وجل، إلى هذه الآية الخلقية العظيمة، فقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}.[2]

هذا اللسان الآية العظيمة، خلقه الله لخدمة الإنسان، بل خدمة الحياة البشرية، إن أحسن استخدامه، والرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه أعلاه يحفز على ضبط حركة اللسان من خلال ربط هذا الضبط بالإيمان، فإذا توافق نطق اللسان مع مسارات الخير وغاياته، فنعم النطق هو، أما إذا كان النطق ثرثرة أو شراً، فحجبه مطلوب، والسكوت في مثل هذه الحالة مقدم على الكلام، وهكذا هي مناهج الإسلام في الأمور كلها، تشجع على تفعيل

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان.
2. الروم: 22.

الجوارح لخدمة الأغراض النبيلة، والأهداف السامية، أما حين يحدث الانحراف عن جادة الخير، فتعطيل نشاطها يقدم، وبالنسبة إلى اللسان، فالصمت الممثل لحالة تعطيله عن الحركة، يقدم على حالة نشاطه السيء، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يتردد في النطق بالخير، والدعوة إليه، أما إذا لم يخدم النطق هذه الغاية النبيلة، فيكون اللجوء إلى الصمت هو خيار النجاة المطلوب.

صون اللسان

يتماشى مع التوجيه النبوي أعلاه، كثير من الآثار الواردة عن الحكماء بالخصوص، كقولهم: لسانك حصانك؛ إن صنته صانك، وإن خنته خانك. فاللسان يقدم أشخاصاً، ويؤخر آخرين، وبعضهم يعلق على حبال المشانق بسببه، ومما روي عن الشافعي، رحمه الله تعالى، قوله:

احفظ لسانك أيــها الإنسان **** لا يلدغنك إنه ثعـــبان

كم في المقابر من قتيل لسانه **** كانت تهاب لقاءه الأقران

وقوله:

إذا رمت أن تحيا سليماً من الردى **** ودينك موفور وعِرْضُكَ صَينّ

لسانك لا تذكر به عورة امـــرئ **** فكلك عورات وللناس ألسن

والرسول، صلى الله عليه وسلم، نبه إلى أثر حصاد اللسان على صاحبه، فهو خير أو شر، من هنا يقول صلى الله عليه وسلم: (**من يَضْمَنْ لي ما بين لَحْيَيْهِ، وما بين رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ له الْجَنَّةَ**).(*)

والله تعالى ضرب مثلاً بالكلمة الطيبة، والأخرى الخبيثة، فقال جل ذكره: {**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ**

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان.

رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ* وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ}.[1]

وشتان ما بين الطيب والخبيث في الأمر كله، وذلك ليس خاصاً بالكلام فحسب، فالطيب في الأشخاص مرغوب، والخبيث مرفوض، يقول تعالى: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}.[2]

والألفاظ التي ينطقها اللسان مهمة للنجاة في الدنيا والآخرة، ومن حظي برضا الرحمن سبحانه وفضله، يكرمه الله بالثبات على قول الحق، والشهادة به، والنطق بالوحدانية، وهو القائل جل ذكره: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ}.[3]

شهادة اللسان على أقوال صاحبه

أصعب النتائج تلك التي تتعلق بسوء العاقبة في الآخرة، التي فيها تستقر أحوال الخلائق، إما في نعيم خالد، أو عذاب أليم، واللسان له دور مهم يوم القيامة، وبخاصة حين ينطق وجوارح الإنسان الأخرى بالشهادة على ما قدم صاحبها، مصداقاً لقوله تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.[4]

وفي بعض الأحوال تقوم الجوارح الأخرى بالنطق شاهدة على أفعال صاحبها نيابة عن اللسان، وفي هذا يقول تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.[5]

---

1. إبراهيم: 24 – 26.
2. النور: 26.
3. إبراهيم: 27.
4. النور: 24.
5. يس: 65.

وإذا ما استهجن الناس ذلك منها، فإنها ترد بأن الذي منحها خاصية النطق هو الله الخالق جل في علاه، وعن هذا يقول سبحانه: {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.[1]

والإنسان حين يؤمن بدلالات هذه الآيات القرآنية، يأخذ بجانب الحذر من آفات اللسان، فالمسألة ليست كلاماً عابراً والسلام، وإنما هو تسجيل دقيق لا يترك شاردة، ولا واردة إلا وثقها، وما يحدث في عالم التقنيات الحديثة من تسجيل الأصوات والصور، بأجهزة دقيقة، جعلت الإنسان العاقل يأخذ حذره من الوقوع في مزالق قد يدفع مقابلها أثماناً باهظة من حريته، وكرامته، وسمعته، بل أحياناً يدفع حياته حين يحاسب على بعض ما نطق أو فعل من المحظورات، ويكون ذلك حسب إجراءات دنيوية مهما عظمت، فإن لها سقفاً نهايته الرحيل عن الحياة الدنيا، وهو قدر محتوم طال العمر أم قصر، لكن المسألة حتماً أصعب حين تكون المحاسبة في الآخرة في ضوء سجل الأعمال والأقوال، يوم ينطق الحال بقوله تعالى: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً}.[2]

مجالات لضبط اللسان

تتعدد مجالات ضبط اللسان لتشمل أنواع النطق جميعها، والأصل في المسلم أن يكف لسانه عن النطق بالشر، أو أذى الناس بغير حق، فالنبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْمُسْلِمُ من سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ من لِسَانِهِ وَيَدِهِ)[3]، ورفع الرسول، صلى الله عليه وسلم، من مستوى مقام الذي يسلم الآخرون من شر لسانه ويده، فعن أبي مُوسَى، رضي الله عنه، قال: (قالوا: يا رَسُولَ الله؛ أَيُّ الإِسْلامِ أَفْضَلُ؟ قال: من سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ من لِسَانِهِ وَيَدِهِ).[4]

---

1. فصلت: 21.
2. طه: 111.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.
4. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أي الإسلام أفضل.

فالمسلم الحق يكبح جماح لسانه عن الخوض في أعراض الناس بالباطل، أو قلب الحقائق بالكذب، وشهادة الزور، وفي المقابل؛ فإنه لا يسكت عن النطق حين يكون واجباً، كالشهادة اللازمة لإثبات حق، أو دفع باطل، والله تعالى ينهى عن كتم الشهادة، فيقول تعالى: {وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[1]، ويقول سبحانه: {...وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}.[2]

ومعلوم أن الساكت عن الحق شيطان أخرس، وبخاصة حين يكون النطق لازماً لدفع باطل، أو تغيير منكر، أو ذب عن عرض ودين، وعلى رأس ذلك الدفع عن حياض الرسول، صلى الله عليه وسلم، ودينه، والقرآن، ومقدسات الإسلام، فعن أبي بكر بن خلاد، قال: (قلت ليحيى بن سعيد: أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله يوم القيامة؟ فقال: لأن يكونوا خصمائي أحب إليّ من أن يكون خصمي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول لي: لِمَ لَمْ تذب الكذب عن حديثي؟!).[3]

فهذه إطلالة على نعمة اللسان والنطق به، والتحذير من سوء استخدامهما، راجين الله تعالى التوفيق لمتابعة الحديث عن عينة أخرى من مجالات ضبط اللسان وحفظه، عملاً بخير الهدي الموحى به إلى رسولنا الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. البقرة: 42.
2. البقرة: 283.
3. مقدمة ابن الصلاح: 1 /387.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على ضبط اللسان ـ الحلقة الثانية

عن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ في رَكْبٍ، وهو يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: (**أَلا إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كان حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، وَإِلا فَلْيَصْمُتْ**). [1]

تواصلاً مع ما تضمنته الحلقة السابقة، من وقوف عند أهمية اللسان وضبطه، وصونه عن اللغط والآثام، وحقيقة شهادته على أقوال صاحبه يوم القيامة، والتي انتهت عند عرض بعض مجالات ضبط اللسان، التي تعددت لتشمل أنواع النطق جميعها، فبينت أن المسلم الحق يكبح جماح لسانه عن الخوض في أعراض الناس بالباطل، أو قلب الحقائق بالكذب، وشهادة الزور، وفي المقابل؛ فإنه لا يسكت عن النطق حين يكون واجباً، ومن المجالات المهمة التي ينبغي مراعاة ضبط اللسان فيها الحلف، الذي ينبغي أن يكون محدوداً، فالله تعالى ينهى عن كثرة الحلف، فيقول تعالى: {**وَلاَ تَجْعَلُواْ اللهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**}.[2]

وذم القرآن الكريم الذين يتخذون الحلف سبيلاً لترويج الباطل وتزيينه، فيقول جل شأنه: {**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ**}[3]، ويذكر الرازي أن الحلّاف من كان كثير الحلف في الحق والباطل، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف.[4]

أما ابن كثير فيذكر أن الذم هنا للحلّاف، جاء لأن الكاذب لضعفه ومهانته يتقي بأيمانه

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً.
2. البقرة: 224.
3. القلم: 10.
4. التفسير الكبير: 30/ 74.

الكاذبة، التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها، قال ابن عباس: {المهين} الكاذب.[1]

والحديث الشريف أعلاه يبين أنه إذا كان لا بد من الحلف، فيحرم أن يكون بغير الله تعالى، فإما أن يحلف بالله وحده صدقاً وحقاً، أو يترك الحلف ويصمت عنه، ومن الأحاديث الشريفة التي تحذر من الكذب في الحلف، قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا يَحْلِفُ على يَمِينِ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ مَالاً، وهو فيها فَاجِرٌ إلا لَقِيَ الله، وهو عليه غَضْبَانُ، فَأَنْزَلَ الله: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} الْآيَةَ، فَجَاءَ الْأَشْعَثُ وَعَبْدُ اللهِ، يُحَدِّثُهُمْ فقال: فِيَّ نَزَلَتْ، وفي رَجُلٍ خَاصَمْتُهُ في بِئْرٍ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟ قلت: لَا، قال: فَلْيَحْلِفْ؟ قلت: إذاً يَحْلِفُ، فَنَزَلَتْ: (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ)).[2]

فالحلف بغير الله، أو كذباً، أو الإكثار منه، كل ذلك من آفات اللسان الذي ينبغي ضبطه عنها.

ضبط اللسان عن اللَيّ

من مجالات ضبط اللسان حفظه عن آفة اللَيّ، التي ورد ذكرها في سياق قوله تعالى: {مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}.[3]

وفي التفسير الكبير، أن (اللَيّ) عبارة عن عطف الشيء، ورده عن الاستقامة إلى الاعوجاج، يقال: لويت يده، والتوى الشيء؛ إذا انحرف، ولوى لسانه عن كذا إذا غيره، ولوى فلاناً عن رأيه، إذا أماله عنه، ثم يذكر الرازي في تأويل ما أوردته آية النساء أعلاه من ليّ

1. تفسير ابن كثير: 4/ 404.
2. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب الحكم في البئر ونحوها.
3. النساء: 46.

الذين هادوا بألسنتهم وجوهاً؛ الأول: نقلاً عن القفال: {يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم}معناه: أن يعمدوا إلى اللفظة، فيحرفونها في حركات الإعراب، تحريفاً يتغير به المعنى، وهذا كثير في لسان العرب، فلا يبعد مثله في العبرانية، فلما فعلوا مثل ذلك في الآيات الدالة على نبوّة محمد، عليه الصلاة والسلام، من التوراة، كان ذلك هو المراد من قوله تعالى: {يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم} وهذا تأويل في غاية الحسن، حسب رأي الرازي.

الثاني: نقل عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: إن النفر الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، كتبوا كتاباً شوشوا فيه نعت محمد، صلى الله عليه وسلم، وخلطوه بالكتاب، الذي كان فيه نعته، صلى الله عليه وسلم، ثم قالوا: هَذَا مِنْ عِندِ الله. [1]

وليّ اللسان لتسويق الباطل، ديدن المنحرفين عن جادة الحق، الذين قال الله تعالى في شريحة منهم: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[2]، فالمحصلة أن ليّ اللسان يهدف فاعلوه إلى تحريف الحقائق، ولا يقتصر ذم أصحابه على الذين مضوا من السالفين، وإنما يبقى لصيقاً بسالكي هذا النهج المنحرف أينما وحيثما وجدوا، وسواء تسموا علماء أم غير ذلك من المسميات الخادعة، التي تمتطى لتمرير الزيغ والزيف على الناس، إلا من رحم ربي.

ضبط اللسان عن تزييف الحقائق

لا تبعد عن آفة ليّ اللسان بهدف تزيين الباطل، وطمس الحقائق، آفة كذب اللسان، فمن الناس من يتقن نسج الحجج، واختلاق القصص، وهؤلاء هم الأفاكون، الذين توعدهم الله تعالى بالويل والعذاب الأليم، فقال تعالى: {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ}[3]، والأفاك هو الكذّاب،

1. التفسير الكبير: 8/ 94.
2. آل عمران: 78.
3. الجاثية: 7.

والعياذ بالله، وقد ألصق الله تعالى آفة الكذب بلسان صاحبها، فقال تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ}[1] ، فهم رغم زيغهم وانحرافهم عن صراط الله المستقيم، يزعمون كذباً وزوراً أنها ستكون لهم الحسنى، والخيرات عند الله تعالى، كما يدعي تاركو الصلاة، ومتبعو أنفسهم هواها، أنهم سيدخلون الجنة قبل خيار الناس وعلمائهم وأتقيائهم، وفي نظرائهم يقول تعالى: {يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ}.[2]

والمزيفون للحقائق غالباً ما ينطبق عليهم وصف النفاق، فهم الذين يظهرون ما لا يبطنون، ممن قال الله تعالى في زمرة منهم: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}.[3]

والمزيفون هم الأعداء المتربصون بهذه الأمة ودينها وخيراتها ووجودها الشر، وفي أمثالهم يقول تعالى: {إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ}.[4]

فالله تعالى يخبر عن حال المتربصين بالمؤمنين، حيث إنهم يتحينون الفرص لمعاداتهم، وإيذائهم جسدياً بالضرب، والقتل، والتكبيل، والزج في السجون، ولسانياً بالشتم، والغمز، والقدح، مع حرصهم الدائم على أن يرتد المؤمنون عن دينهم، ليكفروا بما جاء به الإسلام العظيم.

من هنا ينبغي للمسلم الفطن أن يحذر من ممارسة مثل هذه الأدوار المنحرفة، هذا من

1. النحل: 62.
2. البقرة: 9.
3. الفتح: 11.
4. الممتحنة: 2.

جانب، ومن الجانب الآخر عليه أن يتسلح بالوعي والنباهة، حتى لا تنطلي عليه حيل الذين يتربصون به ودينه ومقدساته الدوائر والسوء، فليحذر من أن يكون خباً، أو أن يخدع بالخب، وبخاصة حين تتعلق المخادعة بالقضايا المصيرية، التي ركب موجتها في هذا الزمان من لا يرقب في المؤمنين إلاً ولا ذمة، فعاثوا في الأرض الفساد، طولاً وعرضاً، وامتطوا الخيل المعادية تحت شعارات براقة، وعناوين زائفة، فأمعنوا في الأبرياء قتلاً وتشريداً، ورفعوا شعارات ظاهرها فيه الرحمة، وباطنها فيه العذاب والدمار والكيد للإسلام والمسلمين.

فهذه وقفة أخرى عند بعض مجالات ضوابط اللسان التي ينبغي أخذها بعين الرعاية والاعتبار، آملين أن ييسر الله تعالى متابعة الوقوف عند مزيد من هذه المجالات، من خلال الاهتداء بآيات القرآن الكريم، وهدي النبي محمد الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وصف حال الذين يأكلون لحوم الآخرين في حديث ليلة الإسراء والمعراج

عن ابن عباس قال: (ليلة أسري بنبي الله، صلى الله عليه وسلم، نظر في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ...).[1]

وقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (لَمَّا عُرِجَ بِي، مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لهم أَظْفَارٌ من نُحَاسٍ، يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فقلت: من هَؤُلاءِ يا جِبْرِيلُ؟ قال: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ الناس، وَيَقَعُونَ في أَعْرَاضِهِمْ).[2]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، خلال معراجه ليلة الإسراء والمعراج، رأى بقدرة الله تعالى مشاهد من عالم الغيب، كان منها مشاهدة قوم يأكلون الجيف، كما في الحديث الأول، ومشاهدة قَوْمٍ لهم أَظْفَارٌ من نُحَاسٍ، يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، كما في الحديث الثاني، وفي الروايتين سأل النبي، صلى الله عليه وسلم، عن هذين القومين، فأجابه جبريل، عليه السلام، أن هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، وزاد في الثانية، وَيَقَعُونَ في أَعْرَاضِهِمْ. فالمسألة إذن تتعلق بجرائم اللسان ضد الناس، المؤدي إلى عذاب بئيس يوم القيامة، يأكل فيه أصحاب تلك الألسنة الظالة الجيف يوم القيامة، ويخمشون وجوههم وصدورهم بأظفارهم، التي يجعلها الله جل شأنه يومها من نحاس حتى يكون خدشها أقسى وأشد.

الصلة بالحلقة السابقة

تأتي هذه المقدمة المفزعة التي تصف جانباً من عذاب المتفلتين من ضوابط اللسان، لتتواصل مع ما تضمنته الحلقة السابقة، من وقوف عند ما تيسر من مجالات ضبط اللسان، التي ذكر منها ضبط الحلف ليكون قليلاً، وبالله فحسب، وصادقاً، وذم الذين يتخذون الحلف

1. الأحاديث المختارة: 9/ 550 - 551.
2. سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، وصححه الألباني.

سبيلاً لترويج الباطل وتزيينه، وحفظ اللسان من آفة تحريف الكلام عما وضع له، لتزييف الحقائق، من خلال تزيين الباطل، وطمس الحق، على نهج المنافقين، مع الإشارة إلى أن المزيفين للحقائق اليوم هم أعداء يتربصون بهذه الأمة الشر، مما يقتضي من المسلم الفطنة، والحذر من ممارسة مثل هذه الأدوار المنحرفة، وعليه من جانب آخر؛ أن يتسلح بالوعي والنباهة، حتى لا تنطلي عليه حيل الذين يتربصون به ودينه ومقدساته الدوائر والسوء، فليحذر من أن يكون خباً، أو أن يخدع بالخب، وبخاصة حين تتعلق المخادعة بالقضايا المصيرية، التي ركب موجتها في هذا الزمان من لا يرقب في المؤمنين إلاً ولا ذمة، فعاثوا في الأرض الفساد، طولاً وعرضاً، وامتطوا الخيل المعادية تحت شعارات براقة، وعناوين زائفة، فأمعنوا في الأبرياء قتلاً وتشريداً، ورفعوا شعارات ظاهرها فيه الرحمة، وباطنها فيه العذاب والدمار والكيد للإسلام والمسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التحذير من الغيبة والنميمة

الغيبة والنميمة، من آفات اللسان التي يجب الحذر من ارتكابها، ففي حديثي وصف حال المغتاب والنمام ليلة الإسراء والمعراج المثبتين آنفاً، وصف لعذاب الذين يأكلون لحوم الناس في الدنيا، ومعلوم أن الله تعالى شبّه حال الذي يغتاب الناس، بالذي يأكل لحومهم ميتة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}(*)، فالله تعالى يأمر المؤمنين باجتناب استغابة الناس، ويشير إلى نوع من عذاب المخالفين، يلتقي مع ما جاء في الحديثين السابقين، في أن عذاب هذا الصنف من المسيئين يدور حول أكل لحوم بشر ميتين أو جيف، مما تستقذر منه النفوس السوية، وتعافه، ويبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، المراد بمعنى الغيبة، فيقول: (أَتَدْرُونَ ما الْغِيبَةُ؟ قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إن كان في أَخِي ما أَقُولُ؟ قال: إن كان فيه ما تَقُولُ، فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لم

* الحجرات: 12.

يَكُنْ فيه، فَقَدْ بَهَتَّهُ).[1]

ويذكر ابن حجر عن الكرماني قوله: إن الغيبة نوع من النميمة؛ لأنه لو سمع المنقول عنه ما نقل عنه لغمه، ويعقب ابن حجر فيقول: الغيبة قد توجد في بعض صور النميمة، وهو أن يذكره في غيبته، بما فيه مما يسوؤه قاصداً بذلك الإفساد، فيحتمل أن تكون قصة الذي كان يعذب في قبره، كانت كذلك.[2]

والمراد بقصة الذي يعذب في قبره، تلك التي ورد ذكرها في الحديث عن ابن عَبَّاسٍ، قال: (مَرَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِحَائِطٍ من حِيطَانِ المَدِينَةِ، أو مَكَّةَ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ في قُبُورِهِمَا، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، يُعَذَّبَانِ، وما يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ، ثُمَّ قال: بَلَى كان أَحَدُهُمَا، لا يَسْتَتِرُ من بَوْلِهِ، وكان الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ، فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ على كل قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً، فَقِيلَ له: يا رَسُولَ الله؛ لِمَ فَعَلْتَ هذا؟ قال: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عنهما، ما لم تَيْبَسَا، أو إلى أَنْ يَيْبَسَا).[3]

حفظ اللسان عن التلفظ بالسب والشتم والفحش

ومن مجالات ضبط اللسان حفظه عن النطق بألفاظ السب والشتم والفحش، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يحذر من ارتكاب هذه الأخطاء اللفظية، فيقول: (سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ).[4]

وكان عليه الصلاة والسلام خير أسوة بمكارم أخلاقه، التي خلت من هذه الآفات اللفظية، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (لم يَكُنْ النبي، صلى الله عليه وسلم، سَبَّابًا، ولا فَحَّاشًا، ولا لَعَّانًا، كان يقول لِأَحَدِنَا: عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ ما له تَرِبَ جَبِينُهُ).[5]

وعن عَائِشَةَ: (أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ على النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما رَآهُ، قال: بِئْسَ أَخُو

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة.
2. فتح الباري: 10 /470.
3. صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله.
4. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن.
5. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً.

الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابن الْعَشِيرَةِ، فلما جَلَسَ، تَطَلَّقَ النبي، صلى الله عليه وسلم، في وَجْهِهِ، وَانْبَسَطَ إليه، فلما انْطَلَقَ الرَّجُلُ، قالت له عَائِشَةُ: يا رَسُولَ الله؛ حين رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ له كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ في وَجْهِهِ، وَانْبَسَطْتَ إليه، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يا عَائِشَةُ؛ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ الناس عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يوم الْقِيَامَةِ، من تَرَكَهُ الناس اتِّقَاءَ شَرِّهِ).[1]

وأرشد عليه الصلاة والسلام، إلى ما يتقي به شر اللجوء إلى الفحش بسبب الغضب، فعن سُلَيْمَانَ بن صُرَدٍ، قال: (كنت جَالِسًا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، وَرَجُلَانِ يَسْتَبَّانِ، فَأَحَدُهُمَا احْمَرَّ وَجْهُهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: إني لأَعْلَمُ كَلِمَةً، لو قَالَهَا، ذَهَبَ عنه ما يَجِدُ، لو قال: أَعُوذُ بِاللهِ من الشَّيْطَانِ، ذَهَبَ عنه ما يَجِدُ، فَقَالُوا له: إِنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: تَعَوَّذْ بِاللهِ من الشَّيْطَانِ، فقال: وَهَلْ بِي جُنُونٌ؟).[2]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، ينبه بهذا الإرشاد إلى أهمية ضبط اللسان عن الانجرار وراء حماقات نار الغضب، حيث غالباً ما تنفلت كوابح الغاضب، فينطلق لسانه باللعن، والسب، والشتم، والقول البذيء، والفاحش، والمستفز من الكلام والألفاظ، فلما شاهد عليه الصلاة والسلام حالة من هذا القبيل، نوه بدور الاستعاذة من الشيطان في إطفاء نار الغضب، وكبح جماحه، حتى لا يصل بصاحبه إلى أن يسلك سبل الإثم، وما يجلب الندم، وبخاصة أن بعض حالات هيجان الغضب، تقود إلى اقتراف جرائم من أعظمها الاعتداء على خصوم، وقد يكونون أبرياء بالقتل الظالم الآثم.

فهذه وقفة أخرى عند بعض مجالات ضوابط اللسان التي ينبغي أخذها بعين الرعاية والاعتبار، آملين أن ييسر الله تعالى متابعة الوقوف عند مزيد من هذه المجالات، انطلاقاً من هدي آيات القرآن الكريم، وسنة النبي محمد الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً.
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على ضبط اللسان ـ الحلقة الرابعة

يخاطب الله تعالى رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، فيقول سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ}(*)

فالله تعالى يحذر في هذه الآية الكريمة من شريحة المنافقين الذين من خصالهم أنهم يظهرون الود للمؤمنين، فيقولون المعسول من الكلام، ويبدون الحرص على مصالح الإسلام والمسلمين، على غير الحقيقة التي تكنها أنفسهم، فهم يتربصون بالمؤمنين ورسولهم، صلى الله عليه وسلم، الدوائر، وهم أهل الخصام والعداء، لا أهل الود والوفاق، وإن أبدت ألسنتهم خلاف ذلك.

روي أن هذه الآية الكريمة نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، أقبل على النبي، صلى الله عليه وسلم، وأظهر الإسلام، وزعم أنه يحبه، ويحلف بالله على ذلك، وهذا هو المراد بقوله تعالى: {يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَواةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ}، غير أنه كان منافقاً، حسن العلانية، خبيث الباطن، ثم خرج من عند النبي، عليه السلام، فمر بزرع لقوم من المسلمين، فأحرقه.

وقيل: إن سبب نزولها أن كفار قريش بعثوا إلى النبي، صلى‌الله عليه وسلم ، أنّا قد أسلمنا، فابعث إلينا نفراً من علماء أصحابك، فبعث إليهم جماعة، فنزلوا ببطن الرجيع، ووصل الخبر إلى الكفار، فركب منهم سبعون راكباً، وأحاطوا بهم، وقتلوهم، وصلبوهم، ففيهم نزلت هذه الآية.

ويذكر الرازي في تفسيره أن اختيار أكثر المحققين من المفسرين أن هذه الآية عامة في حق

* البقرة: 204.

كل من كان موصوفاً بهذه الصفات المذكورة، ونقل عن محمد بن كعب القرظي أنه جرى بينه وبين غيره كلام في هذه الآية، فقال: إنها وإن نزلت فيمن ذكر، فلا يمتنع أن تنزل الآية في الرجل، ثم تكون عامة، في كل من كان موصوفاً بتلك الصفات.(*)

الصلة بالحلقة السابقة

يأتي التذكير بآفات المنافقين اللسانية التي عمادها إظهار حلاوة اللسان للمؤمنين، وإخفاء معاداتهم في الصدور، تواصلاً مع ما تضمنته الحلقة السابقة، من وقوف عند ما تيسر من مجالات ضبط اللسان، التي منها ضبطه عن الغيبة والنميمة، وهما من أخطاء اللسان ضد الناس، والمؤدي إلى عذاب بئيس يوم القيامة، يأكل فيه أصحاب تلك الألسنة الظالمة الجيف يوم القيامة، والعياذ بالله، ويحشون وجوههم وصدورهم بأظفارهم، التي يجعلها الله تعالى يومها من نحاس حتى يكون خدشها أقسى وأشد.

ومن مجالات ضبط اللسان التي تعرضت لها الحلقة السابقة حفظه عن النطق بألفاظ تدل على السب والشتم والفحش، وكان عليه الصلاة والسلام خير أسوة بمكارم أخلاقه، التي خلت من الفحش والسب، وقد نبه هذا الصعيد إلى أهمية ضبط اللسان عن الانجرار وراء حماقات نار الغضب، حيث غالباً ما تنفلت كوابح الغاضب، فينطلق لسانه باللعن، والسب، والشتم، والقول البذيء، والفاحش، والمستفز من الكلام والألفاظ، فنوه صلى الله عليه وسلم بدور الاستعاذة من الشيطان في إطفاء نار الغضب، وكبح جماحه، حتى لا يصل بصاحبه إلى أن يسلك سبل الإثم وما يجلب الندم، وبخاصة أن بعض حالات هيجان الغضب تقود إلى اقتراف جرائم، قد تبلغ الاعتداء على خصوم أو أبرياء بالقتل الظالم الآثم.

* التفسير الكبير: 5 /168.

القاسم المشترك بين لسان المنافق والجاسوس

ظاهرة تستر المنافقين وراء معسول الكلام لتحقيق مآربهم الخسيسة من خلال التظاهر بود المؤمنين، وإخفاء بغضهم ومعاداتهم، كما يفهم من دلالات قوله تعالى المثبت أعلاه، والتي تؤازرها في مثل هذه الدلالة آيات قرآنية أخرى، فتعقيباً على بعض أحداث غزوة بدر الكبرى، نزل قرآن يفضح مواقف المنافقين وألسنتهم المخادعة، فيقول تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.[1]

فالمنافقون يخفون ما لا يبدون، فهم يظنون بالله ظن الجاهلية، فيقولون أقوالها، كقولهم ساعةَ الابتلاء بالشدة: هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ؟ ويقولون: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا، فأقوال المنافقين التي تنطق بها ألسنتهم الضالة تتماشى مع زيغ إيمانهم، وانحراف سلوكهم، وعلى منهج المنافقين هذا ودربهم، يسير الظلاميون ممن باعوا دينهم بدنيا غيرهم، أولئك الذين يظهرون الود لأهلهم وشعبهم، وهم لحساب الأعداء يعملون ويخلصون، فيتجسسون على ذوي القربى، وتنطق ألسنتهم بما يضر قومهم من الأقوال والأخبار، فهم الأعداء الذين ينبغي الحذر منهم، ومن عيونهم، وألسنتهم، وحرابهم، وفي أمثالهم بل في رموزهم وسلفهم يقول رب العزة: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}.[2]

---

1. آل عمران: 154.
2. المنافقون:4.

فتجمع الجواسيس والمنافقين قواسم مشتركة، شيمتها الخسة والنذالة، وتذبذب المواقف، والسعي في الأرض فساداً، والعمل على خدمة مصالح أعداء الأمة، والإضرار بأبنائها، ومستقبلها، ومصيرها.

نعم من الجواسيس يجب الحذر، ويجب الحذر كذلك من التلبس بصفاتهم، والقيام بأفعالهم، والنطق بألفاظهم، فالله فضح سرائرهم، وأماط اللثام عن معسول كلامهم، فإذا هو سم قاتل، ومن شعر التحذير من الانخداع بألسنة الموصوفين بالثعالب والعقارب وأمثالهم، ما جاء عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، حيث قال:

لا خـــير في ودِّ امـــرءٍ متمـلقٍ   حلــو اللســان وقلبه يتلهب
يلـقاك يحـلف أنـه بـك واثـــقٌ   وإذا توارى عنك فهو العَقْرَبُ
يعطيك من طرف اللسان حلاوةً   وَيرُوغُ مِنْكَ كما يَروغُ الثَّعْلَبُ

ولا يغيب عن البال أبداً فظاعة ما اكتوى به شعبنا الصابر المرابط من أذى الخائنين من أبناء الجلدة، الذين فعلوا الأفاعيل والمخازي بألسنتهم وأيديهم، فيا ويحهم من خزي الدنيا والآخرة.

النهي عن الخضوع بالقول

الانحراف باللسان عن النطق بالخير، يفضي إلى استخدامه للشر، ومجالات هذا وذاك كثيرة، ومن مجالات الاستخدام السيئ للسان، خضوع النساء به ليصبح معولاً لنشر الفتنة والإغواء، من هنا نزل الوحي الإلهي مؤدباً لألسنة نساء النبي، صلى الله عليه وسلم، ومنبهاً إلى الآثار السيئة التي تنتج عن تكسر الأصوات، فقال تعالى: {يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً}.(*)

وفي التفسير أن تليين الصوت وترخيمه، يدل على الاهتمام بالريبة، كإبداء غيره من محاسن

* الأحزاب: 32.

المرأة للرجال، كما قال الشاعر: يحسبن من الكلام زوانيا ويصدهن عن الخنا الإسلام

وقد خاطب الله تعالى نساء النَّبي، صلى الله عليه وسلم، وهن خير النساء بهذا الأمر السماوي، والتوجيه الأخلاقي؛ ليكنَّ أسوة لنساء المسلمين عموماً.[1]

والمعنى: إن أردتن التقوى، وإن كنتن متقيات، فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ، فلا تجبن بقولكن خاضعاً؛ أي ليناً خنثاً مثل كلام المريبات، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ ريبة وفجور.[2]

فالمطلوب كف عن الخضوع بالقول، والاستعاضة عن ذلك بقول المعروف، الذي يقبله الشرع، ويحث عليه، ويتماشى مع آدابه.

فهذه وقفة أخرى عند بعض مجالات ضوابط اللسان التي ينبغي أخذها بعين الرعاية والاعتبار، آملين أن ييسر الله تعالى متابعة الوقوف عند مزيد من هذه المجالات، انطلاقاً من هدي آيات القرآن الكريم، وسنة النبي محمد الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1.أضواء البيان: 5/ 10 - 11.

2. الكشاف: 3 /545.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على ضبط اللسان ـ الحلقة الخامسة

يخاطب الله تعالى رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، فيقول جل شأنه:{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ}.[1]

يدل هذا الخطاب الرباني على وقع بعض القول على الإنسان، بمن في ذلك عليه الصلاة والسلام، فأقوال الكافرين والمنافقين المسيئة قد تجلب الحزن للمؤمنين، وفي التفسير أن هذه الآية الكريمة استئناف مسوق لتسلية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الحزن الذي يعتريه، مما حكى عن الكفرة من الإصرار على التكذيب والمبالغة فيه، ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله عز وجل، وأن ما يفعلونه في حقه، فهو راجع إليه تعالى في الحقيقة، وأنه ينتقم منهم لا محالة أشد انتقام، وكلمة قد لتأكيد العلم بما ذكر المفيد لتأكيد الوعيد.[2] والإيذاء بالقول أوردت الحديث عنه، وبيان آثاره، آيات قرآنية عديدة، منها قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}[3]، فضيق صدر المرء قد يحصل تأثراً بأقوال الخصوم، مثلما ورد في قوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}.[4]

ومن أقوال الجاهلين المسيئة للنبي، صلى الله عليه وسلم، قولهم: إنه أُذُنٌ، كما جاء في قوله تعالى: {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[5]، ومعنى قولهم:(هو أذن): أي

1. الأنعام: 33.
2. تفسير أبي السعود: 3 /126.
3. الحجر: 97.
4. هود: 12.
5. التوبة: 61.

يسمع كل ما يقال له ويصدقه، ويقال: إن قائل هذه المقالة هو أحد مردة المنافقين.(*)

فتلك أقوال انطلقت من ألسن لم تنضبط بقيم المكارم التي جاء بها النبي، صلى الله عليه وسلم، هادياً، وإليها داعياً، وبها مؤمناً، ولها ممارساً.

الصلة بالحلقة السابقة

يأتي التذكير بآثار أقوال المنافقين والكافرين المتفلتة من ضوابط القيم النبيلة على نفوس من يسيئون إليهم وصدورهم، وعلى رأسهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، وذلك تواصلاً مع ما تضمنته الحلقة السابقة، من وقوف عند ما تيسر من مجالات ضبط اللسان، التي ذكر منها الكلام الخادع، الذي يصدر عن المنافقين، مع الإشارة إلى القاسم المشترك بين لسان المنافق والجاسوس، فكلاهما يظهران الود للمؤمنين، فيقولان المعسول من الكلام، ويبديان الحرص على مصالح الإسلام والمسلمين، على غير الحقيقة التي تكنها أنفسهما، فهما في حقيقتهما الأعداء، الذين يتربصون بالمؤمنين ورسولهم، صلى الله عليه وسلم، الدوائر، وهما أهل الخصام والعداء، لا أهل الود والوفاق، وإن أبدت ألسنتهما خلاف ذلك. وإلى جانب ذلك النهي، كانت هناك وقفة عند النهي عن الخضوع بالقول، وبيان الآثار السلبية له على الأخلاق.

من آفات المنافقين اللسانية

المنافقون يظهرون بألسنتهم أقوالاً تخالف ما يبطنون من غل في صدورهم فعند المواجهة والمقابلة، يتظاهرون بحسن الخلق، لكنهم يكيدون كيداً، ويمكرون السوء، وحين تتاح لهم الفرص تبرز عداوتهم، وتظهر أمارات بغضهم وضغينتهم، وفي عينة من هؤلاء يقول الله تعالى: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ

* التسهيل لعلوم التنزيل: 2 /79.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً}.[1]

أي يقول المنافقون: أمرنا وشأننا طاعة لك، هذا بألسنتهم وظاهرهم، ومعنى يبيتون من بيت، أي تدبر الأمر بالليل، والضمير في {تقول} للمخاطب، وهو النبي، صلى الله عليه وسلم، أو للطائفة، فأعرض عنهم؛ أي لا تعاقبهم.[2]

وتعرض الله تعالى بالإشارة إلى فحوى ما يبيتون، واضعاً عنواناً لذلك، مفاده: { مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ} إذن المخفي المبيت من أقوالهم يخرج عن نطاق المرضي والمقبول، فهو يصب في خانة المعاداة والمخاصمة والكيد، ولماذا يكون حالهم كذلك؟ لأنهم يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله، وما دروا أن الله بما يَعْمَلُونَ مُحِيط، وفي هذا يقول جل شأنه: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً}.[3]

ومن أقوال المنافقين التي وظفوا بها ألسنتهم لإصدار المخادعة والتضليل، تلك المتضمنة تبريرهم المسارعة في استرضاء الأعداء وخدمتهم؛ خشية الدوائر، كما جاء في قوله تعالى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ}.[4]

فالله تعالى يبين في هذه الآية الكريمة أن الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون، يعتذرون عن موالاة الكفار من اليهود، بأنهم يخشون أن تدور عليهم الدوائر؛ أي دول الدهر الدائرة من قوم إلى قوم.[5]

---

1. النساء: 81.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 1 /149.
3. النساء: 108.
4. المائدة: 52.
5. أضواء البيان: 1/ 413.

وحال المنافقين هذا يضم تحت لوائه جند الطابور الخامس الذين يسوغون الخنوع لأعداء أمتهم، ومغتصبي حقوقهم، وسالبي أرضهم، ومدنسي مقدساتهم، وقاتلي أبناءهم، وقالعي شجرهم، ومدمري حجرهم، ممن يقدمون الخدمة تلو الخدمة لهم، على حساب مبادئهم، انخداعاً بما لديهم من قوة وإمكانات، فيطمعون أن يصيبهم بعض من فتاتها، أو على أقل تقدير يختارون النخاسة خوفاً من أن يلحق بهم أذى من الذين يسارعون في مودتهم من الأعداء، من قبيل تضييق الخناق على حركتهم أو اعتقالهم، أو غير ذلك من أشكال الأذى الذي يمارسه الطغاة والظالمون ضد غيرهم من المستضعفين، وسواهم ممن تتاح لهم القدرة على بسط اليد عليهم، فالمنافق والخائن يسارعان في مودة الأعداء، خوفاً وطمعاً، متغافليْنِ عن توقع الحقيقة المتمثلة في قدرة الله تعالى على أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ.

ومن أقوال المنافقين أيضاً التي تنم عن ضحالة فقههم، وضيق أفقهم، قولهم: {وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ}، وفي هذا يقول جل شأنه:{أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً}.(*)

ومن أقوال المنافقين الدالة على مرض قلوبهم، استهجانهم الأمثال التي يضربها الله تعالى في قرآنه الكريم، ليتخذ الناس منها دروساً وعبراً وعظاتٍ، مثلما حصل منهم حيال ذكر الملائكة وعدتهم، حسب ما جاء في قوله عز وجل: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا

* النساء: 78.

مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}.[1]

فالحديث في هذه الآية الكريمة يدور حول عدد الملائكة الذين جعلهم الله تعالى خزنة على النار، كما في الآية التي سبقتها، حيث قال تعالى: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}.[2]

فهذه وقفة أخرى عند بعض آفات اللسان التي وقع في شركها المنافقون، آملين أن ييسر الله تعالى متابعة الوقوف عند مزيد من مجالات ضبط اللسان وآفاته، للاعتبار والعظة بهدي القرآن الكريم، وسنة النبي محمد الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. المدثر: 31.
2. المدثر: 30.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على ضبط اللسان ـ الحلقة السادسة والأخيرة

حث الله تعالى نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم، على الصبر تجاه أقوال الخصوم، وبخاصة من الكافرين والمنافقين، فقال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى}[1]، والملاحظ أن الأمر بالصبر على الأقوال المؤذية والمسيئة، والمتفلتة من ضوابط الحكمة، والذوق، واللياقة، والأدب، أتبعه الله تعالى في هذه الآية الكريمة بالأمر بالتسبيح بحمده، في مواضع زمانية يومية، بينتها الآية الكريمة، ومثل هذا النوع من الحث تكرر في القرآن الكريم في مواضع عدة، أُتبع الأمر بالصبر فيها، بالأمر بالتسبيح، ومرة بالهجر الجميل، وأخرى بالاتعاظ بالسابقين من النبيين، عليهم السلام، فجاء الأمر بالصبر، متبوعاً بالأمر بالتسبيح في الآية سالفة الذكر، وفي قوله تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}[2]، وجاء الأمر الموجه للرسول، صلى الله عليه وسلم، بالصبر، متبوعاً بالأمر بالهجر الجميل في قوله تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً}[3]، أما الأمر بالصبر المتبوع بالأمر بالاتعاظ، فجاء في قوله تعالى: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ}.[4]

مما سبق يلاحظ أن الألفاظ المسيئة التي تصدر من الألسنة المعادية، توقع صنوفاً من الأذى النفسي على المقصودين بها أو المستهدفين، مما يستدعيهم التسلح لمواجهة ضرر ذلك بالتسبيح، والصبر، والاتعاظ، والتأسي بصبر الآخرين، الذين لم يجزعوا لما سمعوا من أذى الأقوال، واستمروا في عملهم الدؤوب لإحلال الإصلاح محل الإفساد، والخير مكان الشر،

1. طه: 130.
2. ق: 39.
3. المزمل: 10.
4. ص: 17.

ومن الأدلة المثبتة لوقع الألسنة وآثارها أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، حثَّ شاعره حسان على هجاء المعتدين، رداً على هجائهم، فعن الْبَرَاءِ، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم، لِحَسَّانَ: (اهْجُهُمْ، أو هَاجِهِمْ، وَجِبْرِيلُ مَعَكَ).[1]

ووسائل الإعلام المعاصرة على اختلاف أنواعها، مارست وما زالت، تبذل الجهود المضنية في القيام بدور رديف لأعمال الجيوش والأجهزة العاملة في الحروب على اختلاف أشكالها، وتنوع تخصصاتها، وكثيراً ما يسجل للإعلام القولي واللساني أثره الفاعل في تحقيق النجاح والانتصار، مثلما يسجل له أيضاً تحمله مسؤولية المساهمة في نيل الفشل والهزيمة، بسبب بهاتة دوره، أو عند إخفاقه في أداء ما يلزم من دور فاعل تجاه من يمثلهم.

عينة من أنواع الأقوال الحسنة والسيئة

مع ختم سلسلة حلقات ضبط اللسان في هذه المرحلة، يحسن الوقوف عند عينة من أنواع الأقوال التي ينطق بها اللسان، في ضوء ما ورد من وصفها في القرآن الكريم، مع التنبيه إلى أن بعض هذه الأوصاف مذموم، والآخر محمود، فمن المذموم ما وصف بالإثم، كما في الآية 63 من سورة المائدة، وما وصف بالكذب والافتراء كما في الآية 116 من سورة النحل، والآية 5 من سورة الكهف، ووصف قول المظاهر من امرأته بالمنكر، وذلك في الآية الثانية من سورة المجادلة، ووصف قول من يخالف فعل صاحبه بكبر المقت، وذلك في قوله تعالى: {كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}[2]، ووصف قول السفيه من الجن بالشطط؛ أي المفرط في البعد، وذلك في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً}[3]، ووصف بعض القول بصريح لفظ السوء، كما في قوله تعالى: {لاَّ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ...}.[4]

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي، صلى الله عليه وسلم، من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم.
2. الصف: 3.
3. الجن: 4.
4. النساء: 148.

ووصف القول بالزخرف في سياق الذم، كما في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً...}[1]، والمراد بزخرف القول هنا الذي يكون باطنه باطلاً، وظاهره مزيناً.[2]

وبالنسبة إلى القول اللساني الحسن، فقد أمر الله تعالى به، مقترناً بالأمر بالصلاة والزكاة، كما في قوله تعالى: {...وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ...}[3]، وجاء الأمر بالقول الحسن أيضاً في قوله عز وجل: {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...}.[4]

كما وصف القول اللساني باللين، فقال تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}[5]، والقول اللين يكون ممزوجاً بالرفق، والسلاسة، والذوق، مع البعد عن الاستفزاز والفظاظة، ولا يبعد عنه القول الموصوف بالكريم، الذي أمر الله تعالى به الأبناء حين يخاطبون آباءهم وأمهاتهم، فقال جل شأنه: {...فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً}.[6]

ومن الأوصاف الحسنة للقول نعته بالطيب، كما في قوله جل شأنه: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ...}[7]، ومنها وصفه بالمعروف، كما في قوله عز وجل: {قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى...}[8]، أي أن القول الطيب والحسن، يفوق في نفعه وخيره، وفائدته بالنسبة إلى متلقيه الإنفاق المادي المتبوع بالأذى، وورد الأمر بالقول الموصوف في عدد من الآيات القرآنية، التي تضمن معظمها أحكاماً خاصة بالعلاقات الاجتماعية، وبخاصة الأسرية منها، كما في الآية 235 من سورة البقرة، وفي الآيتين الخامسة والثامنة من سورة النساء، والآية 21 من سورة محمد.

---

1. الأنعام: 112.
2. التفسير الكبير: 13/ 127.
3. البقرة: 83.
4. الإسراء: 53.
5. طه: 44.
6. الإسراء: 23.
7. الحج: 24.
8. البقرة: 263.

ووصف الله تعالى القول اللساني باليسور، في آيتين قرآنيتين، تعلق مضمون إحداهما بأسلوب الدعوة إلى الله تعالى، فقال جل شأنه: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً} [1]، وتعلق الثاني بوعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات، كجزء من إثابتهم بالحسنى، فقال عز وجل: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً}[2]

تسجيل الأقوال الصادرة أولاً بأول

من مؤكدات لزوم حفظ اللسان، إشعار الإنسان بحقيقة تسجيل ما يصدر عنه من أقوال أولاً بأول، وذلك أمر غيبي يندرج ضمن السمعيات التي يُطلب الإيمان بها بناء على الدليل الشرعي الصحيح المثبت لها، ومنه قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ* إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ* مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}. [3]

فالله تعالى وكّل بكل إنسان ملكين يوثقان ما يصدر عنه من أفعال وأقوال، تمهيداً للحساب، حين تعرض صحائف تسجيل الأعمال، وتصيب الإنسان وقتها الدهشة؛ لأنه لا يجد شاردة أو واردة ضائعة، أو مغفلاً عن تسجيلها، مصداقاً لقوله تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}. [4]

ومن الأدلة القرآنية المثبتة لحقيقة حفظ أقوال الإنسان في سجلات بهدف محاسبته عليها يوم القيامة، قوله تعالى: {كَلا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً}[5]، وقوله سبحانه:

---

1. الإسراء: 28.
2. الكهف: 88.
3. ق: 16 – 18.
4. الكهف: 49.
5. مريم: 79.

{وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً}.(*)

فهذه وقفة ختامية عند بعض مجالات ضوابط اللسان التي هي رحبة وواسعة، ومن الصعب بحال الإحاطة بجوانب هذا الموضوع ومجالاته في عدد محدود من المقالات، بل الأمر يحتاج إلى أبحاث موسعة ودراسات شاملة، والهدف الأسمى مما سلف ذكره أخذه بعين الرعاية والاعتبار، آملين أن ينفع الله تعالى قارئي هذه الحلقات بخير ما تضمنته من توجيهات أخلاقية في دينهم، وعلمهم، وتقواهم، وحفظ ألسنتهم، والتسلح باللازم من الصبر وغيره في مواجهات حروب اللسان المسعورة، ضد الإسلام ورموزه، وعلى رأس ذلك الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* مريم: 80.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على الكسب المشروع ـ الحلقة الأولى

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا من أَنْ يَأْكُلَ من عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ، عليه السَّلَام، كان يَأْكُلُ من عَمَلِ يَدِهِ).[1]

يبين هذا الحديث الشريف أهمية العمل اليدوي الذي يوفر لصاحبه مالاً ينفق منه على حاجاته، وبمقتضى هذا البيان، وهذه الإشادة بالعمل اليدوي، يفهم أن الإسلام يحث على العمل والإنتاج ويشجع عليه، لا كما يحلو لبعض الناس أن يفهم مخطئاً أن الإسلام يدعو إلى التراخي والكسل، أو يقلل من قيمة العمل الدنيوي الذي يحتاج إليه الناس في حياتهم ومعاشهم، بل على العكس من هذا الفهم الخاطئ تماماً فإن النصوص الشرعية من القرآن والسنة النبوية المطهرة تتضافر في الحث على العمل المنتج، وتبين أحكامه، كيف لا؟! فالإسلام جاء بأحكام لأعمال الدنيا والآخرة، بل إنه يعتبر العمل الذي ظاهره للدنيا من أعمال الآخرة، إذا قصد به رضا الله، ونيل ثوابه، والعمل وفق طاعته سبحانه وتعالى، والشواهد على صحة هذا الفهم وعلى ميادين تطبيقه كثيرة، من أوضحها، بيانه صلى الله عليه وسلم لثواب المعاشرة الزوجية المشروعة، فعن أبي ذَرٍّ: (أَنَّ نَاسًا من أَصْحَابِ النبي، صلى الله عليه وسلم، قالوا لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم: يا رَسُولَ اللهِ؛ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قال: أَوَ ليس قد جَعَلَ الله لَكُمْ ما تَصَّدَّقُونَ؟! إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، ونهي عن مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ؛ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ له فيها أَجْرٌ؟ قال: أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَهَا في حَرَامٍ، أَكَانَ عليه فيها وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إذا وَضَعَهَا في الْحَلَالِ، كان له أَجْرٌ).[2]

1. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.
2. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

يلاحظ هنا أن الصحابة استغربوا أن يكافأوا بالمثوبة الآخروية على أدائهم عملاً، يتصورون أنه يكون بدافع من غرائزهم وشهواتهم، ويفعلونه متعة ورغبة، فكان الجواب الفصل منه صلى الله عليه وسلم: (قال: أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَهَا في حَرَامٍ أَكَانَ عليه فيها وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إذا وَضَعَهَا في الْحَلَالِ كان له أَجْرٌ) فهذه هي المعادلة إذن، حتى بشأن الأعمال الغرائزية، إن تمت وفق شرع الله وابتغاء رضاه سبحانه، فيترتب عليها الأجر، مقابل ما يكون من العقاب لمن يؤديها في معصية الله، وعلى غير هداه سبحانه، وهكذا الأعمال الحرفية والمهنية، إن التزم فيها العامل بشرع الله، فلم يغش، ولم يكذب، ولم يعمل حراماً، وقصد من وراء هذا التقيد بهذه القيم النبيلة وجه الله تعالى، نال الأجر والمثوبة، بخلاف الذي لا يهمه منها سوى الحصول على المال، بغض النظر عن أمر الحلال والحرام، فقطعاً سيلقى الذي يتجاوز حدود الشرع في مهنته وحرفته العقاب الموعود، والله تعالى أمر بتحري الحلال في ابتغاء الأرزاق، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}[1]، وتكرر هذا الحث لأهميته في عدد من الآيات القرآنية، فيقول تعالى: {وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ}[2]، وقد تكرر ربط قيد الحلال بطلب الرزق في عدد من الآيات القرآنية الأخرى، فيقول تعالى: {فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}.[3]

ويقول سبحانه: {فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.[4]

فالحلال يجب أن يتحراه كل طالب رزق، وذكر الأكل في الآيات القرآنية المذكورة، لا يعني حصر طلب الحلال فيه، بل يشمل هذا المطلب الحاجات جميعها، والحديث السالف ذكر المطعم والمشرب والملبس، وهذه الجوانب المعيشية ذكرت لأهميتها، لكن الأمر لا ينحصر بها.

---

1. البقرة: 168.
2. المائدة: 88.
3. النحل: 114.
4. الأنفال: 69.

الربط بين الكسب المشروع واستجابة الدعاء

يحتاج الإنسان بطبيعته الضعيفة إلى عون الله في صغير الأمور وعظيمها، فأي إنسان يمر بمحكات، يلزمه فيها مدد يأتيه بالفرج، وصاحب القدرة الفائقة على تلبية الحاجات هو الله سبحانه، وفي هذا يقول تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}.[1]

وتفريج كرب المستغيث، وإجابة دعاء السائلين، من شروطهما الحرص على سلامة الصلة بالله، التي يتناقض معها ارتكاب المعاصي والذنوب في المعاش والكسب، فقال صلى الله عليه وسلم: (أَيُّهَا الناس؛ إِنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وَإِنَّ الله أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فقال: {يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا من الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إني بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} وقال: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا من طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ} ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاءِ، يا رَبِّ؛ يا رَبِّ؛ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ).[2]

فالذي يحب أن يستجيب الله دعاءه، ينبغي له أن يدقق في أعماله ومشروعاته، واستثماره لمعاشه؛ لأن الذي لا يبالي من أين اكتسب المال، ويكون هدفه مُنْصَبّاً على زيادة الثروة، بغض النظر عن وسائله لذلك، إنما هو متنكب لدرب طاعة الله، وبالتالي فإنه يضع بيديه معوقات تحجب عنه الإجابة التي يريدها من يرغب فيها، من هنا كان تفسير الرسول، صلى الله عليه وسلم، لحجب استجابة دعاء هذا الصنف من الناس، بطرحه نفي الاستجابة بأسلوب السؤال الاستنكاري: (فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ)؟!!؛ أي فكيف يستجيب الله تعالى دعاء الذي يكون مطعمه حراماً، ومشربه حراماً، وملبسه حراماً؟! والحرام في تحصيل المأكل والمشرب والملبس، يكون في تحصيل الحاجات الاستهلاكية للإنسان من خلال كسب غير مشروع، سواء من طريق السرقة، أم الاختلاس، أم العمل الحرام، الذي يكون بأي صورة نهى الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، عنها، فتحصيل الكسب من طريق القمار، واليانصيب،

1. النمل: 62.

2. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

والربا، وبيع المحرمات، والعمل في الدعارة، أو الغش، والحلف الكاذب، في البيع والعمل، فكل ذلك من أنواع الكسب غير المشروع الذي من عواقبه حجب إجابة الدعاء، ومن أصعبها عقاب الآخرة، فعن رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يوم الْقِيَامَةِ، حتى يُسْأَلَ عن عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ: من أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟**).(*)

تنوع التخصصات المهنية

العمل المهني المشروع يجلب المال والمكاسب لصاحبه، ويحقق النفع لمجتمعه، فلولا الخباز والجزار والحلاق والخياط وعمال البناء والصيانة، وغير ذلك من الأعمال الحرفية لحدث خلل في سلاسة حياة الناس، وتنوع المهن والحرف، يحقق مبدأ التعاون على البر والتقوى الذي شرعه الإسلام، وفي ظل نجاح عدد هائل من طلبة الثانوية العامة في هذه الأيام، وعزم كثير منهم على الالتحاق بمسارات التعليم الجامعي المختلفة، فنتمنى أولاً لهم جميعاً التوفيق والنجاح في تحقيق ما يصبون إليه من خير، وندعو ثانياً إلى العناية والاهتمام بالتخصصات الحرفية والمهنية التي تلزم مجتمعنا، حتى لا يحصل التكدس في تخصصات بعينها، وتهجر الأخرى، مما يحدث بطالة في عمل الخريجين، وتبقى جوانب من الحياة معطلة، أو يعتريها النقص في أداء الخدمة المطلوبة، وفي القرآن والسنة النبوية ذكر لأنواع مختلفة من التخصصات، التي سنعمل بإذن الله تعالى على الوقوف عند ما يتيسر منها في الحلقة القادمة، سائلين الله العلي القدير أن يعلمنا ما ينفعنا في ديننا ودنيانا، وأن يسدد خطانا لاقتفاء سيرة خاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

* سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب في القيامة، وصححه الألباني.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحث على الكسب المشروع ـ الحلقة الثانية والأخيرة

عن أَبي هُرَيْرَة، رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (**لأَنْ يَحْتَطِبَ أحدكم حُزْمَةً على ظَهْرِهِ، خيرٌ من أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا، فَيُعْطِيَهُ، أو يَمْنَعَهُ**).[1]

في الحلقة السابقة تم الوقوف عند بعض جوانب الحث على الكسب المشروع، في ضوء ما جاء في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة، التي بينت أهمية العمل اليدوي الذي يوفر لصاحبه مالاً ينفق منه على حاجاته، وبمقتضى هذا البيان، والإشادة بالعمل اليدوي، يفهم أن الإسلام يحث على العمل والإنتاج، ويشجع عليه، كما تم الوقوف عند مسألة الربط بين الكسب المشروع، واستجابة الدعاء، وانتهت الحلقة عند التمهيد لتنوع التخصصات المهنية، وبيان أهميته، وتواصل هذه الحلقة الحديث عن هذا الجانب، من خلال التركيز على ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية من ذكر لأنواع مختلفة من التخصصات المهنية، وفي الحديث المثبت أعلاه يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، فضل العمل المهني على الرضوخ للكسل والخمول، والاكتفاء بما تجود به أيادي المتصدقين، فالعمل المهني، سواء أكان يدوياً أم غير ذلك، مهما كان شكله هو أشرف وأسمى من التسول الذي تمتهن به الكرامات، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (**ما يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ الناس حتى يَأْتِيَ يوم الْقِيَامَةِ، ليس في وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**).[2]

وعملية جمع الحطب وبيعه هي صورة من صور جمع المال الحلال بالكد والجهد الذاتيين، ولا نظن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أراد حصر البديل عن التسول بها، وإنما ضربها

1. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.
2. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً.

مثلاً للأعمال اليدوية البسيطة التي قد تتيسر لمعظم العاطلين عن العمل بسبب البطالة، أو فقدان أهلية امتهان الأعمال الأخرى التي تلزمها الدربة والخبرة والكفاءة، وهذا التوجيه النبوي، يؤكد الحث على السعي لتحصيل الكسب المشروع بالأساليب والإمكانات المتاحة، وقد أولى الأنبياء، عليهم السلام، العمل المهني واليدوي اهتمامهم، فلم يغفلوا عنه على الرغم من انشغالهم بالدعوة إلى الله، وتبليغ رسالاته للناس، ومن الأنبياء الذين ذكرت مهنهم في القرآن الكريم والسنة النبوية، موسى ونوح وداود وسليمان وزكريا ومحمد، عليه وإياهم صلوات الله وسلامه.

موسى عليه السلام يعمل أجيراً

موسى، عليه السلام، قبل بعثته، تعاقد على القيام بعمل بدني ليتمكن من الزواج، وبهذا الخصوص يقول الله تعالى: {قَالَ إِنِّيَ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء الله مِنَ الصَّالِحِينَ}.(*)

والعمال الذين يؤدون بأيديهم أعمالاً يجنون من ورائها أجوراً، تخدم مسيرة الحياة البشرية، من ناحية، ويخدمون بها أنفسهم وعيالهم بالأموال التي يحصلون عليها مقابل عملهم، من ناحية أخرى، فموسى، عليه السلام، قدم عملاً مقابل الحصول على منفعة، تمثلت بالتمكن من الزواج، وهكذا تسير الأمور في الحياة كلها، يقدم العمال خدمات مختلفة، ويحصلون على أجور يستغلونها في قضاء حوائجهم، ومصالحهم الحياتية، ويساهمون بذلك في خدمة البقاء البشري، واستمرار الحياة على الأرض.

* القصص: 27.

داود عليه السلام يصنع الدروع

لم ينفرد موسى، عن سائر الأنبياء، عليه وإياهم السلام، في أداء العمل اليدوي، بل ذكر القرآن الكريم عن عدد آخر منهم ما يفيد أنهم كانوا يمارسون الأعمال المهنية في حياتهم، فهذا داود، عليه السلام، عمل في مجال صناعة الدروع، أي في أعمال الحدادة، وأخبر الله عز وجل عن ذلك بقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ* أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.[1]

فالله سخر لداود مما خلق ما مكنه من القيام بأعمال مهنية محترفة، وهكذا ينبغي الاجتهاد في استغلال موجودات الكون التي سخرها الله تعالى للإنسان لخدمته وإخوانه من البشر من قبله وإياهم، كل في مجاله وتخصصه، لتحقيق متطلبات خلافة الإنسان في الأرض، وقد أثنى الرسول، صلى الله عليه وسلم، على داود، عليه السلام، لتحصيله قوته من كد يده، فقال: (...وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ، عليه السَّلام، كان يَأْكُلُ من عَمَلِ يَدِهِ) .[2]

نوح عليه السلام يحترف مهنة النجارة

أما نوح، عليه السلام، فقد اشتهر باحتراف مهنة صنع السفن، لتحقيق مصالح كانت مصيرية، حيث نجي بما صنع بإذن الله وعونه من الغرق، الذي التهم جل قومه، وعن هذا النوع من العمل اليدوي يقول سبحانه وتعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ *وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ}.[3]

ومن الملاحظ هنا أن فعل صنع الفلك ورد في هاتين الآيتين الكريمتين بصيغتين، إحداهما

1. سبأ: 10 – 11.
2. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.
3. هود: 37 – 38.

بصيغة الخبر عن قيامه بصنعها، والثانية بصيغة الأمر الرباني له بصنعها، وتكرر ذكر صيغة الأمر بصنعها في قوله تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ}[1]، مما يشير -والله تعالى أعلم- إلى أن هذا العمل اليدوي مطلوب شرعاً، ومثله الأعمال الأخرى التي تنفع الناس في معاشهم، وتسهل لهم الحياة، وتيسر لهم البقاء على وجه الأرض، حتى يأتي الكتاب، وتنقضي الآجال.

زكريا، عليه السلام، نَجَّارًا

من الأنبياء الذين مارسوا العمل المهني، واشتهروا بالصنعة، زكريا، عليه السلام، فقد كان نجاراً، كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (كان زكرياء نَجَّارًا).[2]

وخلص النووي من هذا الخبر عن زكريا، عليه السلام، إلى جواز الصنائع، وإن النجارة لا تسقط المروءة، وإنها صنعة فاضلة.[3]

محمد، صلى الله عليه وسلم، عمل راعياً وفي التجارة

الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، مارس مثل إخوانه المذكورين من الأنبياء والمرسلين العمل اليدوي، الذي كان يجني من وراء القيام به مالاً يستعين به على قضاء حوائجه المعيشية، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما بَعَثَ الله نَبِيًّا إلا رَعَى الْغَنَمَ، فقال أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فقال: نعم، كنت أَرْعَاهَا على قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ).[4]

---

1. المؤمنون: 27.
2. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في فضائل زكرياء، عليه السلام.
3. صحيح مسلم بشرح النووي، 15/ 135.
4. صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط.

حرص السلف على القيام بالعمل المهني

السلف الصالح من المسلمين، وفي صدارتهم الصحابة، رضي الله عنهم، اقتفوا سنة الأنبياء والمرسلين، في ممارسة الأعمال اليدوية التي كانت تجهدهم، فعن عُرْوَةَ، قال: قالت عَائِشَةُ، رضي الله عنها: (**كان أَصْحَابُ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عُمَّالَ أَنْفُسِهِمْ، وكان يَكُونُ لهم أَرْوَاحٌ، فَقِيلَ لهم: لو اغْتَسَلْتُمْ**).(*)

فالأنبياء، عليهم السلام، وخلفهم من الصالحين احترفوا المهن الحرفية، وأتقنوا القيام ببعضها، وما ذكر في هذا المقام عنهم ليس سوى عينة من أخبارهم بهذا الصدد.

وهكذا ينبغي أن ينظر إلى الأعمال اليدوية والمهنية، على أساس أن ممارستها تندرج ضمن أعمال البر والخير، وأن امتهانها كرامة، لا على أساس الاستخفاف بها، كونها أعمالاً دنيوية، فالله خلق الناس ليعيشوا الحياة الدنيا، ويمارسوا فيها نشاطهم، الذي يخدم مبدأ إعمارها، والتوفيق بين العمل للآخرة وبين العمل في المهن وإعمار الدنيا ممكن، بل هو المنهج المطلوب الذي يتوافق مع إيجابية النظرة للدنيا والآخرة، والمحافظة على التوازن بينهما، على درب النبيين الأخيار، عليهم السلام، وخاتمهم نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

وعنايته بذوي الاحتياجات الخاصة

عن مَحْمُودِ بن الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ: (أَنَّ عِتْبَانَ بن مَالِكٍ، كان يَؤُمُّ قَوْمَهُ وهو أَعْمَى، وَأَنَّهُ قال لِرَسُولِ الله، صلى الله عليه وسلم، يا رَسُولَ الله؛ إِنَّهَا تَكُونُ الظُّلْمَةُ وَالسَّيْلُ، وأنا رَجُلٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ، فَصَلِّ يا رَسُولَ الله في بَيْتِي، مَكَانًا أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى، فَجَاءَهُ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ؟ فَأَشَارَ إلى مَكَانٍ من الْبَيْتِ، فَصَلَّى فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم).[1]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، استجاب لصاحب احتياج خاص، ابتلاه الله تعالى في بصره، ففي أثناء توجهه إلى المسجد لأداء صلاة الجماعة فيه، كانت تواجهه صعوبات، بسبب الظلمة، والمطر، والعمى، فطلب من الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن يأتي إلى بيته ليصلي في موضع منه؛ ليتخذه فيما بعد مصلى، حين يتعذر عليه الذهاب إلى المسجد، وعلى الرغم مما في مطلبه من غرابة، إلا أن النبي، عليه الصلاة والسلام، لبى طلبه؛ فدشن مصلاه؛ تقديراً لحاله وظرفه.

وورد في عمدة القاري أن لهذا الحديث فوائد، منها: جواز إمامة الأعمى، وترك الجماعة للعذر، والتماس دخول الأكابر منزل الأصاغر، واتخاذ موضع معين من البيت مسجداً، وغيره.[2]

ولم ينحصر قضاء حوائج أصحاب الاحتياجات الخاصة بقضاء حاجة هذا الصحابي حين يعجز عن شد الخطى إلى المسجد، فهناك امرأة من هذه الشريحة المجتمعية استوقفته صلى الله عليه وسلم؛ لتناجيه في حاجتها، فلبى طلبها، فعن ثَابِتٍ، عن أَنَسٍ: (أَنَّ امْرَأَةً كان في عَقْلِهَا

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب الجماعة والإمامة، باب الرخصة في المطر والعلة أن يصلي في رحله.
2. عمدة القاري: 5/ 193.

شَيْءٌ، فقالت: يا رَسُولَ الله؛ إنَّ لي إلَيْكَ حَاجَةً، فقال: يا أُمَّ فُلَانٍ؛ انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ حتى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ، فَخَلَا مَعَهَا في بَعْضِ الطُّرُقِ، حتى فَرَغَتْ من حَاجَتِهَا).[1]

فهاتان الحالتان تدلان على بالغ الاهتمام الذي كان صلى الله عليه وسلم يوليه إلى ذوي الاحتياجات الخاصة.

امرأة من ذوي الاحتياجات الخاصة من أهل الجنة

عن عَطَاء بن أبي رَبَاحٍ، قال: (قال لي ابن عَبَّاسٍ: ألا أُرِيكَ امْرَأَةً من أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قلت: بَلَى، قال: هذه الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقالت: إني أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ الله لي، قال: إن شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ الله أَنْ يُعَافِيَكِ، فقالت: أَصْبِرُ، فقالت: إني أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ الله أَنْ لا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لها) [2]

فقد بشر الرسول، صلى الله عليه وسلم، هذه المرأة المصابة بمرض الصرع، حيث كانت به من ذوي الاحتياجات الخاصة، مثل المصابين بأعينهم، أو أيديهم، أو سمعهم، بل إن المصاب بمرض عصبي، أو نفسي، قد تكون حاله أصعب من المصاب بآفة بدنية، وهذه المرأة شكت حالها إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، طالبة دعاءه بأن يرفع الله عنها هذا البلاء، إلا أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، خيرها بين الاستجابة إلى طلبها، أو أن تصبر على هذا الابتلاء ولها الجنة، فاختارت الصبر والجنة، وطلبت طلباً ينبغي أن تقدر عليه وتحترم، وهو أن يعينها الله حين تعتريها حالة الصرع على الستر، فيحفظها من أن تتكشف، فكان لها ما طلبت، فكل الاحترام لهذا النوع من النساء اللواتي لا يغفلن عن طلب الستر، حتى حين تكون هناك أعذار يرفع القلم عنهن بسببها.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب قرب النبي، عليه السلام، من الناس وتبركهم به.
2. صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح.

عبد الله بن أم مكتوم

من المواقف الدالة على رعاية ذوي الاحتياجات الخاصة في الإسلام، تلك المتعلقة بالصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم الذي كان أعمى، وأوكل له الرسول، صلى الله عليه وسلم، مسؤوليات رفيعة، فكان أحد أشهر مؤذنيه، إلى جانب بلال بن رباح، فعن سَالِمٍ ابن عبد اللهِ، عن أبيه: أَنَّ رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حتى يُنَادِيَ ابن أُمِّ مَكْتُومٍ، ثُمَّ قال: وكان رَجُلًا أَعْمَى، لا يُنَادِي حتى يُقَالَ له: أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ).[1]

وتولى ابن أم مكتوم الولاية على المدينة بالإنابة في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، حيث كان يستخلفه عليها في كثير من المرات التي كان يخرج فيها في مهمات خارجية، وهذا دون ريب دليل احترام وتقدير واعتراف بقدرة هذا الصحابي المصاب بإعاقة، مما يوجه إلى ضرورة إزالة العراقيل من أمام أصحاب الاحتياجات الخاصة التي تحول دون توليهم المناصب الرفيعة، والمسؤوليات العامة، التي يتمكنون من حملها وأدائها.

وفي عبد الله بن أم مكتوم نزل مطلع سورة عبس، التي سميت بهذا الاسم بسببه، وفي مطلعها يقول الله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى* أَن جَاءهُ الْأَعْمَى* وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى* أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى* فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى* وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى* وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى* وَهُوَ يَخْشَى* فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى* كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ* فَمَن شَاء ذَكَرَهُ* فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ* مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ* بِأَيْدِي سَفَرَةٍ* كِرَامٍ بَرَرَةٍ}.[2]

فعلى الرغم من الاهتمام البالغ من الرسول، صلى الله عليه وسلم، بعبد الله بن أم مكتوم، فإن الله تعالى عاتبه فيه لانشغاله عن الرد عليه في ساعة كان يدور حوار بينه وبين بعض المشركين حول قضايا دعوية، واعتبر سبحانه إجابة الأعمى المقبل على طلب العلم

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب أذان الأعمى إذا كان له من يخبره.
2. عبس: 1 – 16.

والهداية أولى من الانشغال بالمعرضين عنهما. ومن الدروس التي يمكن أن تستفاد من هذا الموقف والتعقيب القرآني عليه، أن يُعطى أصحاب الاحتياجات الخاصة حقهم من الرعاية والاهتمام من المسؤولين وولاة الأمر، فرب صاحب احتياجات خاصة أدعى من غيره للفقه، والدراية، والفهم، والقدرة على خدمة دينه ومجتمعه.

مراعاة التشريع لظروف ذوي الاحتياجات الخاصة

صاحب الاحتياجات الخاصة له ظروف تستدعي المراعاة، وبناء على هذا، فإن الشريعة الإسلامية الغراء أخذت هذا الجانب بعين الاعتبار، فرفع الله جل جلاله عن أصحاب الاحتياجات الخاصة تكليف القيام بأعمال لا يستطيعونها، فقال جل شأنه: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ...}[1]، وتأكد هذا المعنى في الآية السابعة عشرة من سورة الفتح.

وعن أبي إِسْحَاقَ عن الْبَرَاءِ، قال: (لَمَّا نَزَلَتْ {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ من الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله} قال النبي، صلى الله عليه وسلم، ادْعُ لي زَيْدًا، وَلْيَجِئْ بِاللَّوْحِ، وَالدَّوَاةِ وَالْكَتِفِ، أو الْكَتِفِ وَالدَّوَاةِ، ثُمَّ قال: اكْتُبْ {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ}، وَخَلْفَ ظَهْرِ النبي، صلى الله عليه وسلم، عَمْرُو بن أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى، قال: يا رَسُولَ الله؛ فما تَأْمُرُنِي فَإِنِّي رَجُلٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ؟ فَنَزَلَتْ مَكَانَهَا {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ من الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ الله غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ}.[2]

وإضافة إلى هذه المراعاة التشريعية، فقد وعد الله تعالى ذوي الاحتياجات الخاصة بمقام محمود يوم القيامة، على صبرهم ورضاهم بقضاء الله تعالى وقدره، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إِنَّ الله قال: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ، فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ، يُرِيدُ عَيْنَيْهِ).[3]

---

1. النور: 61.
2. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كاتب النبي، صلى الله عليه وسلم.
3. صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب فضل من ذهب بصره.

فهذه جوانب دالة على عناية الرسول، صلى الله عليه وسلم، وديننا العظيم بذوي الاحتياجات الخاصة، حيث يجدون الاحترام والتقدير، وتفعيل دورهم في المجتمع، وتستثمر قدراتهم في الحياة؛ حتى لا يشعروا بأنهم مهمشون، أو ينظر الآخرون لهم بنظرات سلبية، إضافة إلى وعدهم بالمثوبة والأجر العظيم حين يصبرون على ما ابتلاهم به الله تعالى، عافانا الله وإياهم من شر الابتلاء، وأعاننا لنكون ميسرين حياة ذوي الاحتياجات الخاصة بيننا، على سنة الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

ومواقفه عند الابتلاء بفقد الأحبة

عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (دَخَلْنَا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أبي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وكان ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ، عليه السَّلام، فَأَخَذَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إبراهيم، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عليه بَعْدَ ذلك، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تَذْرِفَانِ، فقال له عبد الرحمن بن عَوْفٍ، رضي الله عنه: وَأَنْتَ يا رَسُولَ الله؟ فقال: يا ابن عَوْفٍ؛ إنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فقال صلى الله عليه وسلم: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نَقُولُ إلا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ).[1]

يعبر صلى الله عليه وسلم عن مشاعره الجياشة تجاه ولده وفلذة كبده بالدمع، كأي إنسان لم تنزع من قلبه الرحمة، كيف لا؟! وقد شهد الله له بالرحمة والرأفة، فقال تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}.[2]

ويقول سبحانه: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً}.[3]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، ذرفت عيناه دمعاً لما عاد ابنه إبراهيم، وهو يحتضر، فاستغرب بعض الحاضرين، ومنهم الصحابي عبد الرحمن بن عوف، فأجابه الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم: (إِنَّهَا رَحْمَةٌ) أي الحالة التي شاهدتها مني هي رقة القلب على الولد، لا ما توهمت من الجزع.

وبالنسبة إلى قوله: (ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى) قيل: إنه أتبع الدمعة الأولى بدمعة أخرى، وقيل:

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (إنا بك لمحزونون).
2. التوبة: 128.
3. الأحزاب: 43.

أتبع الكلمة الأولى المجملة، وهي قوله: (إِنَّهَا رَحْمَةٌ) بكلمة أخرى مفصلة، وهي قوله: (إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ).[1]

ويستفاد من هذه الحادثة أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، تجري عليه الأعراض البشرية، التي خلق الله الناس عليها، فيحب ويكره، ويفرح ويحزن، ويمرض وينعس وينام، ويجوع ..إلخ. وإنه ينبغي التعامل مع ما يصدر عن البشر من تصرفات تتماشى مع هذه الطبيعة بتفهم، وقبول، دون تنكر لها، إلا إذا صاحبها شطط، أو تجاوز للحدود الشرعية، فالحزن يُقْبَل في حدود معينة، مثل أن يرافقه دمع تذرفه العيون، لكنه يُنْكَر إن أصبح في صورة تعبر عن الضجر من حكم الله تعالى وقدره، أو إذا رافقته نياحة وعويل، كما يفعل أهل الجاهلية قديماً وحديثاً.

وقال ابن بطال وغيره: هذا الحديث يفسر البكاء المباح، والحزن الجائز، وهو ما كان بدمع العين، ورقة القلب، من غير سخط لأمر الله، وهو أبين شيء وقع في هذا المعنى، وفيه مشروعية تقبيل الولد، وشمه، ومشروعية الرضاع، وعيادة الصغير، والحضور عند المحتضر، ورحمة العيال، وجواز الإخبار عن الحزن، وإن كان الكتمان أولى، وفيه وقوع الخطاب للغير، وإرادة غيره بذلك، وكل منهما مأخوذ من مخاطبة النبي، صلى الله عليه وسلم، ولده مع أنه في تلك الحالة لم يكن ممن يفهم الخطاب لوجهين، أحدهما صغره، والثاني نزاعه، وإنما أراد بالخطاب غيره من الحاضرين، إشارة إلى أن ذلك لم يدخل في نهيه السابق، وفيه جواز الاعتراض على من خالف فعله ظاهر قوله، ليظهر الفرق.[2]

ولم يقتصر ذرف الدمع على فراق فلذات الأكباد، أو الآباء، والأمهات، والإخوة، والأخوات، وإنما ذرفت عيونه، صلى الله عليه وسلم، دمعاً لفراق بعض أصحابه، فعن عبد الله بن عُمَرَ،

1. فتح الباري: 3 /174.
2. التخريج نفسه.

رضي الله عنهما، قال: (اشْتَكَى سَعْدُ بن عُبَادَةَ شَكْوَى له، فَأَتَاهُ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَعُودُهُ مع عبد الرحمن بن عَوْفٍ، وَسَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ، وَعَبْدِ الله بن مَسْعُودٍ، رضي الله عَنْهُمْ، فلما دخل عليه، فَوَجَدَهُ في غَاشِيَةِ أَهْلِهِ، فقال: قد قَضَى؟ قالوا: لَا يا رَسُولَ اللَّهِ، فَبَكَى النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ النبي، صلى الله عليه وسلم، بَكَوْا، فقال: أَلا تَسْمَعُونَ إِنَّ الله لَا يُعَذِّبُ بدَمْعِ الْعَيْنِ، ولا بحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بهذا، وَأَشَارَ إلى لِسَانِهِ، أو يَرْحَمُ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عليه، وكان عُمَرُ، رضي الله عنه، يَضْرِبُ فيه بِالْعَصَا، ويرمي بِالْحِجَارَةِ، ويحثي بِالتُّرَابِ).[1]

رحمة البشر فيما بينهم ورحمة الله بهم

الرسول، صلى الله عليه وسلم، في ذرفه الدمع على فراق الأحبة، يعبر بجلاء عن مكنونات قلبه المفعم بالرقة والإحساس المرهف، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام، أن تراحم الخلق بينهم على عظمته لا يعدو كونه جزءاً يسيراً من رحمة الله التي وسعت كل شيء، فعن عُمَرَ ابن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه: (قَدِمَ على النبي، صلى الله عليه وسلم، سَبْيٌ فإذا امْرَأَةٌ من السَّبْيِ قد تَحْلُبُ ثَدْيَهَا، تَسْقِي إذا وَجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا، وَأَرْضَعَتْهُ، فقال لنا النبي، صلى الله عليه وسلم: أَتُرَوْنَ هذه طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا وَهِيَ تَقْدِرُ على أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فقال: لَلهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ من هذه بِوَلَدِهَا).[2]

ومن الأحاديث الشريفة، التي تؤكد أهمية الرحمة بين الخلق، ما جاء بشأن الربط بين تراحمهم، ورحمة الله بهم، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (سمعت رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: جَعَلَ الله الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ في الأرض جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذلك الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حتى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عن وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ).[3]

وعن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قَبَّلَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الْحَسَنَ بن عَلِيٍّ،

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.
3. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء.

وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بن حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فقال الْأَقْرَعُ: إِنَّ لي عَشَرَةً من الْوَلَدِ، ما قَبَّلْتُ منهم أَحَدًا، فَنَظَرَ إليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قال: من لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ).[1]

وفي رواية أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له: (أوأملك لك أَنْ نَزَعَ الله من قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ).[2]

صيغ مأثورة للتعازي

مواساة المبتلين بفقد ذويهم تعد من أعمال البر والتقوى، فالمسلمون رحماء بينهم، ويد واحدة، وكالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، وقد ورد عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، مأثورات صحيحة في صيغ التعزية وفضلها، ومن ذلك ما روي عن أُسَامَة بن زَيْدٍ، رضي الله عنهما، قال: (أَرْسَلَتْ ابْنَةُ النبي، صلى الله عليه وسلم، إليه إِنَّ ابْنًا لي قُبِضَ، فائتنا، فَأَرْسَلَ يقرىء السَّلَامَ، وَيَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ ما أَخَذَ، وَلَهُ ما أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ، وَلْتَحْتَسِبْ).[3]

وفي هذا الحديث قدم ذكر الأخذ على الإعطاء، وإن كان متأخراً في الواقع؛ لما يقتضيه المقام، والمعنى أن الذي أراد الله أن يأخذه هو الذي كان أعطاه، فإن أخذه أخذ ما هو له، فلا ينبغي الجزع؛ لأن مستودع الأمانة لا ينبغي له أن يجزع إذا استعيدت منه، ويحتمل أن يكون المراد بالإعطاء، إعطاء الحياة لمن بقي بعد الميت، أو ثوابهم على المصيبة، أو ما هو أعم من ذلك.[4]

وهنا يجدر التنبيه إلى أن التعزية بعد وقوع مصيبة الموت غير مقيدة شرعاً بصيغ محددة، بل يمكن التعبير عنها للمصاب بعبارات عديدة، منها: (أحسن الله عزاءكم، وجبر مصيبتكم، وغفر لميتكم)، أو (عظم الله أجركم)، فيرد المصاب -الذي طرحت عليه التعزية- بقول:

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.
2. التخريج نفسه.
3. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته.
4. فتح الباري: 3/ 157.

(شكر الله سعيكم)، ولو تبادل المسلمون التعازي بصيغ أخرى تعبر عن هذه المعاني فلا بأس في ذلك.

فهذه بعض المواقف المرشدة إلى حسن التصرف عند مواجهة الابتلاء بفقد الأحبة، استخلصت من سنة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يحرم النياحة ويحذر من عواقبها الوخيمة

عن أُمِّ عَطِيَّةَ، رضي الله عنها، قالت: (أَخَذَ عَلَيْنَا النبي، صلى الله عليه وسلم، عِنْدَ الْبَيْعَةِ، أَنْ لَا نَنُوحَ، فما وَفَتْ مِنَّا امْرَأَةٌ غير خَمْسِ نِسْوَةٍ، أُمِّ سُلَيْمٍ، وَأُمِّ الْعَلَاءِ، وَابْنَةِ أبي سَبْرَةَ امْرَأَةِ مُعَاذٍ، وامرأتين، أو ابْنَةِ أبي سَبْرَةَ، وَامْرَأَةِ مُعَاذٍ، وَامْرَأَةٍ أُخْرَى).[1]

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن البكاء الهادئ على فقد الأحبة مقبول، ومتوقع أن يصدر من الناس؛ مؤمنهم وكافرهم، بحكم الطبيعة التي خلق الله تعالى الناس عليها، بينما النياحة عليهم محرمة، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، ذرف الدمع في حضرة بعض من عادهم وهم يحتضرون من الأقارب والأصحاب، لكنه نهى عن النياحة والعويل، وحذر الذين يمارسون هذه المثالب السلوكية أشد تحذير، فعن عبد الله، أَنَّ حَفْصَةَ بَكَتْ على عُمَرَ، **قال:** (مَهْلًا يا بُنَيَّةُ؛ أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عليه).[2]

يقول ابن حجر: إن الحديث وإن كان دالاً على تعذيب كل ميت بكل بكاء، لكن دلت أدلة أخرى على تخصيص ذلك ببعض البكاء، وتقييد ذلك بمن كانت تلك سنته، أو أهمل النهي عن ذلك، فالمعنى على هذا أن الذي يعذب ببعض بكاء أهله من كان راضياً بذلك، بأن تكون تلك طريقته.[3]

وعن ابن عُمَرَ، قال: (لَمَّا طُعِنَ عُمَرُ أُغْمِيَ عليه، فَصِيحَ عليه، فلما أَفَاقَ، قال: أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ

---

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما ينهى عن النوح والبكاء والزجر عن ذلك.
2. صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه.
3. فتح الباري: 3/ 153.

رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قال: إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ الْحَيِّ).[1]

الرضا بقضاء الله وقدره

تختلف ردود أفعال المؤمن حيال المصائب التي تنتابه في الأهل والأحبة عن غيره من الناس، فهو يعتقد أن نواصي الأمور بيد الله، ويؤمن بمفهوم قوله تعالى: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.[2]

من هنا؛ فإن حال المؤمن كله خير، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إن أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا له، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيرًا له).[3]

وردة فعل المصاب بالابتلاء في نقص الأحبة تعبر عن درجة إيمانه ويقينه بقضاء الله وقدره، من هنا ربط الرسول، صلى الله عليه وسلم، الصبر المعتبر بميقات الصدمة الأولى، فعن أَنَسِ ابن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (مَرَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فقال: اتَّقِي الله، وَاصْبِرِي، قالت: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لم تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، ولم تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لها: إنه النبي، صلى الله عليه وسلم، فَأَتَتْ بَابَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فلم تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فقالت: لم أَعْرِفْكَ؟ فقال: إنما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولى).[4]

الاستعانة بالصبر والصلاة وجزاء الصابرين

تعرض الناس للابتلاء والمصائب أمر لا يكاد يخلو من شدته إنسان، والله أرشد المؤمنين إلى حسن مواجهة الخطوب، فأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة، ونبه في مجال الشهادة في سبيله أن أصحابها يتمتعون بحياة من نوع خاص في آخرتهم على عكس الأموات من الناس، ثم

1. صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه.
2. التوبة: 51.
3. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.
4. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.

أكد عز وجل أن سنته في ابتلاء المؤمنين بأنواع من المحن التي منها نقص الأنفس، هي سنة قائمة، وبشر الصابرين عليها بحسن الجزاء، دون أن يفصل كنهه، غير أنه سبحانه وصف أصحابه، مبيناً أنهم الذين يتلقون أخبار المصائب والابتلاءات بالاسترجاع، قائلين: {إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ}، وأثنى الله عز وجل على هذه الشريحة المؤمنة الصابرة، من خلال وعدهم بصلواته ورحمته، ووصفهم بالمهتدين، فقال جل شأنه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ* وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ* وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}.[1]

ووجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، المبتلين من المؤمنين بالمصائب إلى أن يقولوا عبارات إيمانية تعود عليهم بالخيرات في الدنيا والآخرة، فعن أُمِّ سَلَمَةَ، أنها قالت: سمعت رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: (ما من مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فيقول ما أَمَرَهُ الله: {إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ} اللهم أْجُرْنِي في مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا منها، إلا أَخْلَفَ الله له خَيْرًا منها، قالت: فلما مَاتَ أبو سَلَمَةَ، قلت: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ من أبي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ إني قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ الله لي رَسُولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قالت: أَرْسَلَ إلي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حَاطِبَ بن أبي بَلْتَعَةَ، يَخْطُبُنِي له، فقلت: إِنَّ لي بِنْتًا وأنا غَيُورٌ، فقال: أَمَّا ابْنَتُهَا، فَنَدْعُو الله أَنْ يُغْنِيَهَا عنها، وَأَدْعُو الله أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ).[2]

وعنها قالت: (دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على أبي سَلَمَةَ، وقد شَقَّ بَصَرُهُ، فَأَغْمَضَهُ، ثُمَّ قال: إِنَّ الرُّوحَ إذا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ، فَضَجَّ نَاسٌ من أَهْلِهِ، فقال: لا تَدْعُوا على أَنْفُسِكُمْ،

1. البقرة: 153 - 157.

2. صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة.

إلا بِخَيْرٍ، فإن الْمَلائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ على ما تَقُولُونَ، ثُمَّ قال: اللهم اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ في الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ في عقبة في الْغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لنا وَلَهُ يا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وأفسح له في قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ له فيه).[1]

ومن توجيهاته، صلى الله عليه وسلم، للمؤمنين المبتلين بالمصائب، أمرهم بالصبر والاحتساب، واليقين بقدر الله وقضائه، فعن أُسَامَةَ بن زَيْدٍ، قال: (كنا عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَأَرْسَلَتْ إليه إِحْدَى بَنَاتِهِ، تَدْعُوهُ، وَتُخْبِرُهُ، أَنَّ صَبِيًّا لها أو ابْنًا لها في الْمَوْتِ، فقال لِلرَّسُولِ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلهِ ما أَخَذَ، وَلَهُ ما أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ، وَلْتَحْتَسِبْ، فَعَادَ الرَّسُولُ، فقال: إِنَّهَا قد أَقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا، قال: فَقَامَ النبي، صلى الله عليه وسلم، وَقَامَ معه سَعْدُ بن عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بن جَبَلٍ، وَانْطَلَقْتُ مَعَهُمْ، فَرُفِعَ إليه الصَّبِيُّ، وَنَفْسُهُ، تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا في شَنَّةٍ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فقال له سَعْدٌ: ما هذا يا رَسُولَ الله؟ قال: هذه رَحْمَةٌ جَعَلَهَا الله في قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ الله من عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ).[2]

أنموذج مثالي للصبر وجزائه

من النماذج العملية على حسن التصرف تجاه المصائب التي تنتاب المؤمن، ذلك الموقف الذي عبرت من خلاله امرأة الصحابي أبو طلحة لما مات ابنها، ثم حضر زوجها، فتصرفت بلياقة عالية، وهدوء لا يساوره اضطراب، ولا يعكر جوه جزع، فعن أَنَسَ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، يقول: (اشْتَكَى ابن لِأَبِي طَلْحَةَ، قال: فَمَاتَ، وأبو طَلْحَةَ خَارِجٌ، فلما رَأَتْ امْرَأَتُهُ أَنَّهُ قد مَاتَ، هَيَّأَتْ شيئاً، وَنَحَّتْهُ في جَانِبِ الْبَيْتِ، فلما جاء أبو طَلْحَةَ، قال: كَيْفَ الْغُلَامُ؟ قالت: قد هَدَأَتْ نَفْسُهُ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قد اسْتَرَاحَ، وَظَنَّ أبو طَلْحَةَ أنها صَادِقَةٌ، قال: فَبَاتَ، فلما أَصْبَحَ اغْتَسَلَ، فلما أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، أَعْلَمَتْهُ أَنَّهُ قد مَاتَ، فَصَلَّى مع النبي، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ أَخْبَرَ

1. صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر.
2. صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت.

النبي، صلى الله عليه وسلم، بِمَا كان مِنْهُمَا، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لَعَلَّ الله أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا في لَيْلَتِكُمَا، قال سُفْيَانُ: فقال رَجُلٌ من الْأَنْصَارِ، فَرَأَيْتُ لَهُمَا تِسْعَةَ أَوْلَادٍ، كلهم قد قَرَأَ الْقُرْآنَ).(*)

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، حرم النياحة، وحذر من عواقبها الوخيمة، وتوعد الميت الراضي بعويل أهله من بعده، أو الموصي بذلك بعذاب بئيس، راجين الله العلي القدير أن يلهمنا الصبر والثبات على الحق عند الشدائد، وأن يجزينا خير الجزاء، كما جزى نبيه، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من لم يظهر حزنه عند المصيبة.

الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم

يرعى المسنين ويحث على حفظ قدرهم ومراعاة حاجاتهم

عَنْ رَافِعِ بنِ خَدِيجٍ وَسَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ (أَنَّ عَبْدَ الله بن سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةَ بن مَسْعُودٍ أَتَيَا خَيْبَرَ فَتَفَرَّقَا فِي النَّخْلِ، فَقُتِلَ عبد الله بن سَهْلٍ، فَجَاءَ عبد الرحمن بن سَهْلٍ وَحُوَيِّصَةُ وَمُحَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ صَاحِبِهِمْ، فَبَدَأَ عبد الرحمن وكان أَصْغَرَ الْقَوْمِ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: كَبِّرْ الْكُبْرَ، قال يحيى: يَعْنِي لِيَلِيَ الْكَلَامَ الأَكْبَرُ).[1]

بمناسبة اليوم العالمي لرعاية المسنين، يحسن الوقوف أولاً عند معنى المسن، ثم عند عينة من صور رعاية الرسول، صلى الله عليه وسلم، للمسنين، فالمسن في اللغة هو الذي كَبِرَ، وفي المحكم: كَبِرَتْ سِنُّه يُسِنُّ إِسْناناً، فهو مُسِنٌّ. وهذا أَسَنُّ من هذا؛ أَي أَكبر سِنّاً منه.[2]

من صور رعاية الرسول، صلى الله عليه وسلم، لكبار السن، احترام حقهم في تولي الحديث باسم أقوامهم ومرافقيهم، وهذه والحمد لله عادة متأصلة إلى حد كبير في أوساط العرب والمسلمين، الذين يحترمون قيمهم والأخلاق النبيلة لمجتمعاتهم، والحديث المثبت أعلاه يؤكد حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على ترسيخ هذه القيمة الأخلاقية الرفيعة، التي يتجلى فيها توجيه الاهتمام إلى توقير الكبير واحترامه، وتجنب هضم امتيازاته المشروعة، وقد برز هذا الاهتمام من خلال التوجيه النبوي لسلوك نفر من المسلمين قدموا إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، في قضية، فلما تصدى أصغرهم للحديث، نبهه عليه الصلاة والسلام إلى هذا الخلل، طالباً أن يقوم بالحديث الأكبر سناً، فقال:(كَبِّرْ الْكُبْرَ) أي لِيَلِيَ الْكَلَامَ الأَكْبَرُ، ومما لا ريب فيه أن هذا التوجيه يحوي ما يحوي من مؤشرات الاهتمام

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الكبير ويبدأ الأكبر بالكلام والسؤال.
2. لسان العرب: 7/ 278.

بالكبير، وهو يتعلق بجانب جد مهم، إذ إن الكبير يتأذى من تجاهله والاستخفاف بشخصه، وحين يتصدى للحديث الصغير متجاهلاً كبار الحاضرين، يحدث خلل يمتعض منه أصحاب الذوق السليم، والقيم الرفيعة، والأصول السوية.

وإلى جانب ترك تولي البدء بالحديث في المواقف المهمة والمناسبات العامة للكبير، فإن من أوجه الرعاية المعنوية للمسنين، احترامهم وتوقيرهم في الظروف والأحوال جميعها، ومن ذلك مبادرة الصغير إلى طرح السلام على الكبير، فللكبير حق على الصغير أن يبادره بالتحية، وهذا من الآداب التي حث عليها الرسول، صلى الله عليه وسلم، على هذا الصعيد، فعن أبي هُرَيْرَةَ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ على الْكَبِيرِ وَالْمَارُّ على الْقَاعِدِ وَالْقَلِيلُ على الْكَثِيرِ).[1]

ولا تنحصر رعاية المسنين في السنة النبوية المطهرة على هذا الجانب السلوكي، بل إن هذه الرعاية تبرز في سلوكات أخرى، حتى في جوانب العبادات، ومن شواهد ذلك:

رعاية المسنين في الصلاة

مراعاة حال المسنين في الصلاة أمر نبه إليه الرسول، صلى الله عليه وسلم، فهم الأولى بإمامة الصلاة عند توافر شروطها الأخرى فيهم، فالسن أحد مراتب الأولوية التي تؤخذ بعين الاعتبار عند اختيار من يتقدم لإمامة الصلاة، عن أَبَي مَسْعُودٍ قال: قال لنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله، وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً، فَإِنْ كانت قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً، فَلْيَؤُمَّهُمْ أَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا في الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَلْيَؤُمَّهُمْ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا، ولا تَؤُمَّنَّ الرَّجُلَ في أَهْلِهِ، ولا في سُلْطَانِهِ، ولا تَجْلِسْ على تَكْرِمَتِهِ في بَيْتِهِ، إلا أَنْ يَأْذَنَ لك أو بِإِذْنِهِ).[2]

أما عن مراعاة وسع المسنين وقدرتهم في الصلاة، فقد نبه الرسول، صلى الله عليه وسلم،

1. صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب تسليم القليل على الكثير.
2. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة؟

أئمة صلاة الجماعة إلى ذلك، وعنف الذي يثقل على المصلين المأمومين بإطالة الصلاة، لأن المتضررين من الإطالة بها المسنين، فعن جَابِرَ بن عبد الله الْأَنْصَارِي قال: (أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ وقد جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ، وَأَقْبَلَ إلى مُعَاذٍ فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ أو النِّسَاءِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ، وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ منه، فَأَتَى النبي، صلى الله عليه وسلم، فَشَكَا إليه مُعَاذًا، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: يا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أنت أو فاتن؟ ثَلَاثَ مِرَارٍ، فَلَوْلَا صَلَّيْتَ ب {سبح اسْمَ رَبِّكَ}{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} {وَاللَّيْلِ إذا يَغْشَى} فإنه يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ).[1]

وهذا ما ينبغي لأئمة الصلاة وخطباء المساجد التنبه إليه، فالمسن لا يقوى على الجلوس الطويل، ولا على الوقوف الطويل، ويحتاج في كثير من الأحيان إلى أن يقضي حاجته في فترات متقاربة، مما يعني أن الإطالة في الخطب والصلاة تضره، ودرء مثل هذه المفسدة أولى، والله تعالى أعلم، من الحرص على تحصيل الفوائد من الإطالة، سواء في الخطب أم الصلاة.

رفع الحرج عن المسنين في العبادات

الإسلام ينطلق في تشريعاته جميعها من مبادئ وقيم راسخة، من ضمنها قاعدة رفع الحرج، والتكليف وفق الوسع والطاقة، من هنا يأتي تشريع بدائل لكثير من الأحكام التعبدية في الصلاة والحج والصيام على وجه الخصوص، مراعاة لحال كبار السن الذين يحرجهم أداء الواجبات الأصلية، أو يتعسر عليهم القيام بها على الوجه المطلوب، فقد شرعت الإنابة في رمي الجمرات في الحج عند العجز عن القيام بهذا الواجب التعبدي بالنفس، وشرع الطواف والسعي ركوباً للعاجز عن المشي، وشرعت الصلاة دون قيام للعاجز عنه، وشرع اللجوء إلى إخراج الفدية عند العجز عن الصيام عجزاً دائماً، فقال جل شأنه: {... وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}.[2]

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب من شكا إمامه إذا طول.
2. البقرة: 184.

وقد يتقدم العمر بالمرء دون أن يتمكن من أداء فريضة الحج، ومعلوم أنها وجبت على المسلم المستطيع مرة واحدة في العمر، فإذا ما بلغ بالكبير الحال إلى أن يعجز عن أدائها عجزاً دائماً، فقد شرع الحج عنه، فعن الْفَضْلِ أَنَّ امْرَأَةً من خَثْعَمَ قالت: (يا رَسُولَ الله؛ إِنَّ أبي شَيْخٌ كَبِيرٌ عليه فَرِيضَةُ الله في الْحَجِّ، وهو لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِيَ على ظَهْرِ بَعِيرِهِ، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم، فَحُجِّي عنه)[1]، ولا شك أن في هذا التشريع تيسيراً على الكبير، ورفع الحرج عنه، وإتاحة الفرصة له لأن يسقط عن كاهله هذا الواجب المحدد بمرة في العمر، مما يرفده بثواب من ناحية، ويريحه نفسياً، لأنه تمكن بالبديل من أداء هذه الفريضة التعبدية، بدلاً من أن يبقى هاجس العجز عن أدائها يلاحقه.

رعاية الأبناء لآبائهم الكبار

من الأوجه البارزة التي يُراعى فيها الاهتمام بالمسنين، إحاطتهم بعين الاهتمام وبالغ الحفاوة من قبل أبنائهم، فعن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، قِيلَ: من يا رَسُولَ الله؟ قال: من أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أو كِلَيْهِمَا فلم يَدْخُلْ الْجَنَّةَ).[2]

ويتماشى هذا التوجيه النبوي مع الأمر الرباني برعاية الوالدين وبرهما وبخاصة عند كبرهما، فيقول تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً}.[3]

وبالتأكيد إن هجر الوالدين أو أحدهما حال كبرهما وترك رعايتهم إلى الملاجئ دون متابعة من أبنائهم يتعارض مع هذه التوجيهات السامية، ويخل بأداء أبسط حقوقهم المشروعة

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو للموت.
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة.
3. الإسراء: 23.

الواجبة على أبنائهم الذين سبق لهم أن تلقوا من آبائهم الرعاية والحضانة والدفء، لما كانوا صغاراً ضعفاء، فلما تبدل الحال، وقوي الأبناء، وضعف الآباء، تنكر بعضهم للوفاء، فاستحق من كانت هذه حاله الخسران والوبال، والعياذ بالله.

سائلين الله العلي القدير أن يحفظ للمسنين كرامتهم وسلامتهم، وأن يجعلنا من الذين يوقرونهم ويحفظون حقوقهم، عملاً بشرعنا ومبادئ ديننا وسنة نبينا، صلى الله عليه وعلى أزواجه وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الفهرس

الفصل الأول / العقيدة الرسول الأسوة محمد صلى الله عليه وسلم		
.1	يخبر عن هدم الذنوب بالإسلام والحج والهجرة وأمور أخرى	6
.2	أنبأ بالأخسرين أعمالاً – الحلقة الأولى	11
.3	أنبأ بالأخسرين أعمالاً – الحلقة الثانية	16
.4	أنبأ بالأخسرين أعمالاً – الحلقة الثالثة والأخيرة	21
.5	العزة لله وله وللمؤمنين	26
.6	أَنزَلَ اللهُ عَلَيه القرآن وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَاً	31
.7	يذكر بالفراق الحتمي للحياة الدنيا	36
.8	يتَعَوَّذ من جَهْدِ الْبَلَاءِ وَدَرَكِ الشَّقَاءِ	41
.9	يخبر عن رب العزة سبحانه إعلانه الحرب على من يعادي أولياءه	46
.10	يرد البدع المحدثة في الدين – الحلقة الأولى	51
.11	يرد البدع المحدثة في الدين – الحلقة الثانية والأخيرة	56
.12	ينبذ التطرف والمغالاة	61
الفصل الثاني / العبادات		
.1	يشرع النداء للصلاة بالأذان ورفع الصوت به – الحلقة الأولى	66
.2	يشرع النداء للصلاة بالأذان ورفع الصوت به – الحلقة الثانية والأخيرة	71
.3	وقوله: (ساعة وساعة)	77
.4	يبشر المؤمنين بخيرات رمضان	82
.5	يربط ثواب الصائم بحسن سلوكه	87
.6	يرشد الصائمين إلى سننه في الصيام وبعض آدابه وأحكامه – الحلقة الأولى	92
.7	يرشد الصائمين إلى سننه في الصيام وبعض آدابه وأحكامه – الحلقة الثانية	97
.8	يرشد الصائمين إلى سننه في الصيام وبعض آدابه وأحكامه – الحلقة الثالثة والأخيرة	102
.9	يعظم الشعائر والحرمات	107
.10	وشعيرة الطواف بالصفا والمروة – الحلقة الأولى	112
.11	وشعيرة الطواف بالصفا والمروة – الحلقة الثانية والأخيرة	116
.12	وسنته في العيد والأضحية	120

	الفصل الثالث/ السيرة النبوية	
.1	يذكر يوم مولده	126
.2	الصادق الأمين – الحلقة الأولى	131
.3	الصادق الأمين – الحلقة الثانية والأخيرة	136
.4	يبين فضل مدينته المنورة – الحلقة الأولى	141
.5	يبين فضل مدينته المنورة – الحلقة الثانية	146
.6	يبين فضل مدينته المنورة – الحلقة الثالثة	150
.7	يبين فضل مدينته المنورة – الحلقة الرابعة والأخيرة	155
	الفصل الرابع / جهاد وأسرى	
.1	يبين فضل الرباط في سبيل الله تعالى	161
.2	يبين ثواب الأم المحتسبة	165
	الفصل السادس / مناهج وقيم	
.1	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة الأولى	171
.2	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة الثانية	175
.3	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة الثالثة	179
.4	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة الرابعة	184
.5	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة الخامسة	189
.6	حرص على أن يكون عبداً شكوراً – الحلقة السادسة والأخيرة	194
.7	يحث على ضبط اللسان – الحلقة الأولى	199
.8	يحث على ضبط اللسان – الحلقة الثانية	204
.9	يحث على ضبط اللسان – الحلقة الثالثة	209
.10	يحث على ضبط اللسان – الحلقة الرابعة	213
.11	يحث على ضبط اللسان – الحلقة الخامسة	218
.12	يحث على ضبط اللسان – الحلقة السادسة والأخيرة	223
.13	يحث على الكسب المشروع – الحلقة الأولى	228
.14	يحث على الكسب المشروع – الحلقة الثانية والأخيرة	232
.15	وعنايته بذوي الاحتياجات الخاصة	237
.16	ومواقفه عند الابتلاء بفقد الأحبة	242
.17	يحرم النياحة ويحذر من عواقبها الوخيمة	247
.18	يرعى المسنين ويحث على حفظ قدرهم ومراعاة حاجاتهم	252